نشأة المساجد ورسالتها

المسجد والجامع

المسجد الموضع الذى يسجد فيه . قال الزجاج : كل موضع يتعبد فيه فهو مسجد . ألا ترى النبى صلى الله عليه وسلم قال :

« جعلت لى الأرض مسجدا وتربتها طهورا » .

وقال عز وجل : « ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه » . المعنى على هذا المذهب : من أظلم ممن خالف قبلة الاسلام ؟

والجامع نعت للمسجد ، وانما نعت بذلك لأنه علامة الاجتماع . وما كانوا فى الصدر الأول يفردون كلمة « الجامع » وانما كانوا تارة يقتصرون على كلمة « المسجد » ، وطورا يصفونها فيقولون : « المسجد الجامع » ، وآونة يضيفونها الى الصفة فيقولون : « مسجد الجامع » . ثم تجوز الناس بعد ، واقتصروا على الصفة ، فقالوا للمسجد الكبير ، والذى تصلى فيه الجمعة — وان كان صغيرا — « الجامع » ، لأنه يجمع الناس لوقت معلوم .

وأول مسجد بنى فى الاسلام هو مسجد قباء الذى يقال له مسجد التقوى أيضا ، لقوله تعالى فيه : « لمسجد أسس على التقوى من أول يوم » .

وروى أبو سعيد الخدرى أن النبى صلى الله عليه وسلم سئل عن المسجد الذى أسس على التقوى ، فقال : « هو مسجدى » (أى مسجد المدينة) . وهذا لا يعارض الأول ، اذ كل منهما أسس على التقوى ... غير أن قوله سبحانه : « من أول يوم » يقضى أن يكون مسجد قباء ، لأن تأسيسه كان من أول يوم حلول الرسول صلى الله عليه وسلم دار هجرته . ويرى الحافظ بن حجر أن السر فى جوابه صلى الله عليه وسلم دفع توهم أن ذلك مقصور على مسجد قباء .

ولما افتتح عمر بن الخطاب البلدان كتب الى أبى موسى الأشعرى — وهو على البصرة — يأمره أن يتخذ مسجدا للجماعة ، ويتخذ للقبائل مساجد ، فاذا كان يوم الجمعة انضموا الى مسجد الجماعة . وكتب الى سعد بن أبى وقاص — وهو على الكوفة — بمثل ذلك ، وكتب الى عمرو بن العاص — وهو على مصر — بمثل ذلك . وكتب الى أمراء أجناد الشام ألا يتبددوا الى القرى ، وأن ينزلوا المدائن ، وأن يتخذوا فى كل مدينة مسجدا واحدا ، ولا تتخذ القبائل مساجد ... فكان الناس متمسكين بأمر عمر وعهده ، وكانت صلاة الجمعة تؤدى ، فى المسجد الجامع .

ظلت صلاة الجمعة تؤدى فى جامع عمرو بالفسطاط ، باعتباره أول جامع أنشىء فيها ، الى أن قدم صالح بن على بن عبد الله بن عباس من العراق

فى طلب مروان بن محمد ، آخر خلفاء بنى أمية ، عام ١٣٣ هـ (٧٥٠ م) . فنزل بعسكره فى شمالى الفسطاط ، وبنى هناك الأبنية ، فسمى هذا الموضع العسكر . ثم أقيمت صلاة الجمعة فى مسجد بناه الفضل بن صالح بن على بن عبد الله بن عباس عام ١٦٩ هـ (٧٨٥ م) ، عرف بجامع العسكر .

استمرت الجمعة تقام فى هذين المسجدين حتى بنى أحمد بن طولون مسجده فى عام ٢٦٥ هـ (٨٧٨ م) ، فأبطل صلاة الجمعة من جامع العسكر ، وبقيت تقام بجامعه وجامع عمرو ، الى أن قدم جوهر القائد ، وبنى الجامع الأزهر عام ٣٦١ هـ (٩٧١ م) ، فكانت الجمعة تقام فى جامع عمرو بن العاص وجامع ابن طولون والجامع الأزهر .

وفى عام ٣٦٦ هـ (٩٧٦ م) أنشأت السيدة تغريد ، أم الخليفة الفاطمى العزيز بالله ، جامع القرافة المعروف بجامع الأولياء . ثم أنشأ العزيز بالله جامعه بباب الفتوح فى عام ٣٨٠ (٩٩٠ م) ، وجمع فيه فى عام ٣٨١ هـ (٩٩١ م) ، وأتمه ابنه الحاكم بأمر الله وصلى فيه الجمعة فى شهر رمضان من عام ٤٠٣ هـ (١٠١٣ م) . كما أنشأ الحاكم بأمر الله جامعى المقس وراشدة ، فكانت الجمعة تقام فى هذه الجوامع كلها الى أن انتهت الدولة الفاطمية عام ٥٦٧ هـ (١١٧١ م) ، وأبطلت الخطبة فى الجامع الأزهر ، واستمرت فيما عداه .

والمساجد الجامعة ، وان كان الهدف الأول من انشائها هو أداء الفرائض ، الا أنها ساعدت على التآلف والتعارف ، ونشر التعليم واذاعته ، ونشر أوامر الدولة وقوانينها . وكانت تتخذ كمحاكم لفض المنازعات الدينية والمدنية ، وأقيم بها بيت المال .

وكانت تعقد فيها الدروس ، كما أقيمت الكتاتيب لتحفيظ القرآن والتعليم الابتدائى ... فكانت بمثابة جامعة للطالب ينشأ فيها طفلا ، ويتخرج فيها عالما .

وجامعة عمرو بن العاص أقدم جامعة اسلامية ، وكانت خير ينبوع انتهل منه الطلاب والعلماء . ولما قدم مصر الامام الشافعى ألقى دروسه فيه . وفى النصف الثانى من القرن الرابع للهجرة (نهاية العاشر للميلاد) بلغت حلقات الدروس فيه عشر حلقات لنحو ٢٢٠٠ طالب ، فى الوقت الذى كان فى الأزهر ٣٥ طالبا . ووقعنا على أسماء الكثيرين من أجلة العلماء الذين قاموا بالتدريس فيه حتى القرن التاسع للهجرة (الخامس عشر الميلادى) .

ولما أنشأ أحمد بن طولون مسجده عام ٢٦٥ هـ (٨٧٨ م) ، عين فيه القراء والفقهاء للتدريس . وكذلك بعد أن أصلحه السلطان لاجين المنصورى عام ٦٩٦ هـ (١٢٩٦ م) ، رتب فيه دروسا للفقه على المذاهب الأربعة ، ودروسا للتفسير والحديث والطب ، وأنشأ — بزيادته القبلية — كتابا لاقراء اليتامى كتاب الله .

وكذلك الجامع الأزهر ، أنشىء ليكون مسجدا جامعا للقاهرة أسوة بجامع عمرو بالفسطاط ، والجامع الطولونى بالقطائع . وكان أول درس ألقى فيه فى شهر صفر عام ٣٦٥ هـ (٩٧٥ م) . واستمرت به الدروس الى الآن .

وفى نهاية الدولة الفاطمية كانت السلطة مركزة فى وزرائها ، فانتهزوا الفرصة للقضاء على التشيع ، وأنشأوا المدارس للمذاهب السنّية بمصر والاسكندرية .

وهذا هو السر فى كبر مساحة هذه المساجد ، فقد أعدت لتجمع عددا كبيرا ، بل أمة مجموعة ... ثم كثر انشاء المساجد والمدارس فى أنحاء مصر والقاهرة ، وتعددت الخطبة .

نشأة المدارس فى مصر

كانت مصر فى القرون الخمسة الأولى للعصر الاسلامى مركزا للعلم ، ومقصدا للطلاب . وكانت مساجد عمرو وابن طولون والأزهر والحاكم ودار الحكمة عامرة بالدراسات المختلفة . ومع أن الفاطميين حينما استولوا على مصر ، دعوا فيها لمذهب الشيعة ، وولوا فقهاءهم مناصب القضاء ، لم يستطيعوا التغلب على المذاهب السنية والتمسك بها .

ولما قامت الدولة الأيوبية قضى سلاطينها — وكانوا شافعية — على التشيع ، وأنشأوا المدارس لفقهاء المالكية والشافعية .

وقد شاركت الاسكندرية القاهرة فى نهوضها العلمى والثقافى فى تلك الحقبة ... الا أن لها فضل السبق فى انشاء المدارس للمذاهب السنية . ففى عام ٥٣٢ هـ (١١٣٧ م) — والدولة الفاطمية قائمة — أنشأ الوزير رضوان بن الولخشى ، وزير الخليفة الحافظ لدين الله ، مدرسة فى الاسكندرية.

كما أنشأ العادل أبو الحسن على بن السلار ، وزير الخليفة الفاطمى الظافر ، المتوفى عام ٥٤٨ هـ (١١٥٣ م) ، مدرسة أخرى بالاسكندرية عام ٥٤٦ هـ (١١٥١ م) . وقد كان شافعى المذهب .

وكان لملك مصر صلاح الدين يوسف الأيوبى أكبر الفضل فى انشاء هذه المدارس وانتشارها فى أنحاء مصر ... فانه عمل جاهدا على القضاء على مذهب الشيعة وانعاش مذاهب السنة ببناء المدارس لفقهائها ، وغير ذلك من الوسائل ، مما جعل لمذهب الشافعى الحظ الأكبر من عنايته ، فخص به القضاء لكونه مذهب الدولة .

وأول مدرسة له بمصر هى المدرسة الناصرية بجوار جامع عمرو بن العاص . أنشأها عام ٥٦٦ هـ (١١٧٠ م) . وفى السنة نفسها أنشأ المدرسة القمحية ، بجوار جامع عمرو أيضا : الأولى برسم الفقهاء الشافعية ، والثانية برسم الفقهاء المالكية . وكان وقتئذ وزيرا للخليفة العاضد .

وعندما أصبح سلطانا لمصر أمر فى عام ٥٧٢ هـ (١١٧٧ م) بانشاء المدرسة الصلاحية بجوار قبر الامام الشافعى . كما أمر بانشاء مدرسة بجوار المشهد الحسينى . وفى عام ٥٧٢ هـ (١١٧٧ م) أمر بانشاء المدرسة السيوفية برسم فقهاء الحنفية — وهى أول مدرسة أوقفت عليهم — كما أنشأ فى الاسكندرية مدرسة وبيمارستانا ودارا للمغاربة فى عام ٥٧٧ هـ (١١٨١ م) .

ثم اقتدى به أولاده وأمراؤه فى بناء المدارس فى مصر والقاهرة وغيرها من بلاد القطر ، وحذا حذوهم من ملك مصر بعدهم .

وفى الوقت الذى أعدت فيه المدرسة لتؤدى فيها الشعائر الدينية ، أعدت أيضا لتكون مراكز ثقافية ... فقد عنى بها عناية فائقة ، وألحقت بها المكتبات ... كما عنى بصحة أساتذتها وطلبتها ، وأغدقت عليهم الخيرات . وكان لها أكبر الأثر فى النهضة العلمية بمصر . وزخرت أرجاء مصر بثروة فنية من المساجد والمدارس ودور الحديث تخرج فيها أجلة العلماء فى مختلف العلوم ، وكبار موظفى الدولة فى شتى شئونها ... فقاموا بأعبائها خير قيام ، وخلفوا لمصر تراثا علميا تتيه به .

وتصميم المسجد الجامع أربعة ايوانات مسقوفة فى الغالب ، ومحمولة عقودها على عمد رخامية ، أكبرها ايوان المحراب الذى يشتمل على عدة أروقة ، ويتوسط الايوانات صحن مكشوف تتوسط قبة تحتها فسقية . والى أن ظهرت المدرسة كان المسجد لا يلحق به مدفن ... لا للمنشىء ولا لغيره .

أما تصميم المدرسة فانه يشتمل على ايوانين ، أو أربعة ايوانات معقودة متقابلة تكون شكلا متعامدا ، أكبرها ايوان المحراب ، وأصغرها الايوانان الجانبيان ، ويتوسطها غالبا صحن مكشوف به قبة الفسقية ، وألحق بها مدفن للمنشىء وسبيل يعلوه كتاب ، عدا مساكن للطلبة ، مثل مدرسة السلطان حسن .

ولما صغر حجمها غطى الصحن ، واستغنى عن الفسقية وعن قبتها التى كانت تتوسطه . ومع ذلك فقد وجدت مدارس اشتملت على ايوانين معقودين ، وآخرين صغيرين تكتنفهما حجرات .

وفى القرن التاسع للهجرة (الخامس عشر للميلاد) ، غلب تصميم المدرسة على المسجد . فأنشىء على مثالها كثير من المساجد ، بصرف النظر عن كونه خصص لمذهب أو لا . وتارة يكتب عليها مدرسة ، وأخرى مسجد ، مما يعزز أن هذه الأسماء ترجع الى وظيفة البناء لا الى البناء نفسه ، وكان مدلولها الغرض الذى أقيم من أجله لا طراز بنائه

على أن تصميم المسجد ظل سائدا جنبا الى جنب مع المدرسة ، وزيد على المسجد الحاق السبيل والكتاب به ، وأحيانا مدفن للمنشىء .

واذا كان تصميم المدرسة قل جدا فى العصر العثمانى ، فان تصميم المسجد ظل قائما فى مصر والأقاليم حتى الآن .

ومن دور العبادة التى خصصت لأغراض اجتماعية أيضا الخوانق (بيوت الصوفية) . فهى أولا مساجد توفرت فيها مشتملات المسجد من منارة ومنبر ، وتؤدى فيها الجمعة والجماعة ، ألحقت بها مساكن لاقامة المتصوفين ، ورصدت عليها الأوقاف للصرف عليها .

والربط وهى بمثابة زوايا لأداء الشعائر دون الجمعة ، حيث لايوجد بها منبر ولا منارة ، وألحقت بها مساكن للفقراء المنقطعين . ومنها ما خصص للنساء ، وكانت بمثابة دور كفالة للمرأة . تقيم بها البنات حتى يتزوجن ، والمطلقات حتى يردهن أزواجهن أو يتزوجن .

وكما كانت تلك المعابد معاهد علوم ، فهى كذلك مدارس فنون ،وخير الهام للمهندس والصانع بما حوته من مختلف الفنون والصناعات . وفيها يجد المؤرخ أصدق سجل بما حوته من نصوص تاريخية تضمنت أسماء الذين شادوها ، فشادوا مجدنا الخالد وتراثنا الغنى المجيد .

حسن عبد الوهاب

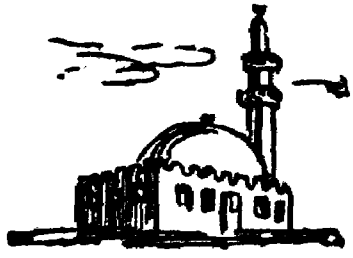

جامع عمرو بن العاص

المسجد فى الأصل الموضع الذى يسجد فيه . قال الزجاج : « كل موضع يتعبد فيه فهو مسجد » . ولعله أخذ من قوله عليه الصلاة والسلام : « جعلت لى الأرض مسجدا ، وتربتها طهورا » .

وأول مسجد فى الاسلام هو مسجد « قباء » ، ويقال له : مسجد التقوى ، لقوله تعالى : « لمسجد أسس على التقوى من أول يوم » .

ولما فتح عمر البلدان ، كتب الى أبى موسى الأشعرى والى البصرة أن يتخذ المسجد للجماعة ، وكتب الى سعد بن أبى وقاص والى الكوفة بمثل هذا ... وكذلك الى أمراء الأجناد بالشام ، والى والى مصر : ألا يتمددوا الى القرى ، ، وأن ينزلوا المدائن ، ويتخذوا مسجدا واحدا ، ولا يتخذ القبائل مساجد ... فكان الناس يتمسكون بأمر الخليفة عمر رضى الله عنه ، فبنيت المساجد فى العواصم التى ورثت الحضارة عن الرومان والفرس ، كالقدس والقاهرة ودمشق .

ولم يكن نصيب القاهرة بأقل من العواصم الأخرى ، فبنى فيها عمرو بن العاص مسجده العتيق الذى امتاز عن سواه بأنه المسجد الوحيد الذى عاصر جميع الحكام الذين قاموا على مصر منذ الفتح الاسلامى الى وقتنا الحاضر ، وشهد جميع التطورات التى حدثت خلال ما يقرب من أربعة عشر قرنا ، تغير فيها من حال الى حال ... فلقد نشأ صغيرا متواضعا ، ثم نما وكبر ، وازدهى وازدهر ، وأخيرا شاخ وهرم حتى قارب الفناء .

وشهرة المسجد التاريخية مازالت ذائعة فى البلاد كافة . فلا يصل الى مصر أثرى أو مستشرق أو سائح الا بادر الى زيارة هذا المسجد الجليل .

ولم تقتصر مهمة المسجد فى الاسلام على الصلاة فحسب ، بل كان دار تعليم وتثقيف وتهذيب والدور الذى قام به مسجدنا هذا لا يقل عن دور غيره من المساجد الأثرية الخالدة : كابن طولون ، والجامع الأزهر ، وغيرهما .

موقعه ونشأته

فى عام ٢١ للهجرة (٦٤١ — ٦٤٢ للميلاد) حينما تم لعمرو بن العاص تحرير مصر من الرومان وأسس مدينة الفسطاط . وبعد تطهير الاسكندرية من فلولهم ، أقام أحد قواده « قيسية بن كلثوم » فى حديقة شمال حصن « تراجان » — أو حصن بابليون — الذى كان يسمى بقصر الشمع ، واتخذ عمرو داره على مقربة من هذا المكان من الناحية الشرقية . وكان مجرى النيل آنذاك واقعا شرقى مجراه الحالى ، وكانت ضفته الشرقية تمتد حيث يمتد شارع مار جرجس ، فشارع السد ، فقنطرة الدكة ، فجامع أولاد عنان .

فى هذا الوقت بعث الخليفة عمر بن الخطاب ، الى حكام البلاد التى حررها الاسلام — ومنهم عمرو بن العاص — يأمرهم ببناء مساجد لاقامة صلاة الجمعة . وقد اختار عمرو لمسجد الفسطاط مكانا يشرف على النيل ، هو مكان حديقة قيسية ، وعرض على قيسية أن يعوضه عن ذلك ، فأبى أن يقبل التعويض ، وغلب عليه الكرم فتبرع بأرضه للمسلمين .

روى ابن سعد الجوانى : أن شجرة من هذه الحديقة بقيت قائمة خلف المحراب الكبير .

ونقل أبو سعيد الحميرى : أن مساحة المسجد « خمسون ذراعا طولا فى ثلاثين عرضا » ، وكانت تحوطه طرقة فى نواحيه كلها ، وله بابان تجاه دار عمرو من الجهة الشرقية ، وبابان فى الشمال ، وبابان فى الغرب .

والمقبل من زقاق القنديل كان يرى الواجهة الشرقية للجامع ، موازية للسور الغربى لدار عمرو ، قبل توسيع المسجد بدخول هذه الدار فيه .

وكان عرض المسجد من القبلة الى الواجهة البحرية مساويا لعرض دار عمرو ، وسقفه منخفضا ، مكونا من الجريد والطين ، محمولا على ساريات من جذوع النخل . ولم يكن له صحن ، ولا أمامه رحبة يستنشق المصلون طلق هوائها ، بل كانوا ينتظرون الصلاة فى الخارج لشدة الحر .

وكانت المسافة بين سور المسجد وسور دار عمرو سبعة أذرع ، وكانت أرضه مفروشة بالحصباء الملتصقة بالأرض . وبه بئر يقال لها « البستان » فى حلقة الفقيه ابن الجيزى المالكى .

وجاء فى الخطط للمقريزى أن مكان مسجد عمرو كان كنيسة قبطية هدمها المسلمون وفى كتاب النجوم الزاهرة : أنه كان بمكان المسجد سوق للبيع والشراء .

يقول الكندى ويزيد بن أبى حبيب : سمعت من مشايخنا الذين شهدوا بناء المسجد ، أنه كان يوجد ثمانون من أصحاب النبى عليه السلام ، وبينهم الزبير بن العوام والمقداد وعبادة بن الصامت وغيرهم ، وقد اشتركوا فى تحرير القبلة .

قال الليث : ان عمرا مد الخيط لتحرير القبلة ، وأشرف على العمل بالارشادات النافعة حتى تمت العمارة .

ويقول داود بن عقبة : ان عمرا عهد ببناء القبلة الى ربيعة بن شرحبيل بن حسنة ، والى علقمة القرشى ، ثم العدوى .

ويقول عبد الله بن جعفر : ان المحراب بناه عبادة ابن الصامت ورافع بن مالك . ولم يكن المحراب مجوفا كما نراه الآن .

ويقول القضاعى فى كتابه : ان عمرا صنع منبرا ، ولكن عمر بن الخطاب أشار عليه بتكسيره ، اذ قال : « أما يحسن بك أن تقوم قائما ، والمسلمون جلوس تحت عقبك » ، فصدع عمرو بالأمر ، وأزال المنبر .

كانت الحيطان بالآجر غير مطلية بالبياض ، ولم يكن للجامع مئذنة ، ولا زخرفة فيه من الداخل أو الخارج .

وكان المسجد فى أول أمره يستخدم مكانا للاجتماعات العامة ، علاوة على اقامة الشعائر الدينية فيه .

وكان الحاكم يقوم فيه بالوعظ ، ويصلى بالناس صلاة الجمعة ، فكان اجتماع المسلمين فى هذا اليوم فرصة لاعلان الآراء العامة ، وصار المسجد مكانا لتبادل الآراء فى الصالح العام .

لقد عثر على وعظ ألقاه عمرو يكشف لنا بما لا يقبل الجدل عن الوظيفة التى قام بها المسجد فى أوائل أيام الفتح ....

انه حديث رسمى لأحد الصحابة ، فهو ذو فائدة خاصة ، اذ نجد فيه أنباء عامة عن الحالة العقلية يخالطها من المعلومات الادارية ما يتسع لاحتوائه وعظ وال يلقيه على قومه فى تلك الأيام الأولى .

قال الراوى : « رحت أنا ووالدى الى صلاة الجمعة تهجيرا ، وصلينا فأطلنا الركوع . ثم أقبل

رجال بأيديهم السياط يزجرون الناس ، قلت : يا أبت من هؤلاء ؟ فقال : يا بنى ، هؤلاء الشرط . فأقام المؤذن الصلاة ، فقام عمرو بن العاص على المنبر ، فرأيت رجلا ربعة قصير القامة ، وافر الهامة ، أدعج ، أبلج ، عليه ثياب موشاة وجبة ...

« حمد الله وأثنى عليه حمدا موجزا ، وصلى على النبى صلى الله عليه وسلم ، ووعظ الناس ، وأمرهم ونهاهم . وسمعته يحض على الزكاة وصلة الأرحام ، ويأمر بالابتعاد ، وينهى عن الفضول ، وكثرة العيال ، واخفاض الحال فى ذلك فقال :

« يامعشر الناس : اياكم وخلالا أربعا ، فانها تدعو الى التعب بعد الراحة ، والى الضيق بعد السعة ، والى الذلة بعد العزة ... اياكم وكثرة العيال ، واخفاض الحال ، وتضييع المال ، والقيل بعد القال فى غير درك ولا نوال . ثم انه لا بد من فراغ يؤول اليه المرء فى توديع جسمه والتدبير لشأنه ، وتخليته بين نفسه وبين شهواتها ، ومن صار الى ذلك فليأخذ بالقصد والنصيب الأقل . ولا يضيع فى فراغه نصيب العلم من نفسه فيحوز من الخير عاطلا ، ومن حلال الله وحرامه غافلا .

« يامعشر الناس : انه قد تدلت الجوزاء ودكت الشعرى ، وأقلعت السماء ، وارتفع الوباء ، وقل الندى ، وطاب المرعى ، ووضعت الحوامل ، ودرجت السخائل ، وعلى الراعى بحسن رعيته . فحى لكم على بركة الله تعالى الى ريفكم تنالوا من خيره ولبنه ، وخرافه ، وصيده . وأريحوا خيلكم وسمنوها وصونوها وأكرموها ، فانها جنتكم من عدوكم ، وبها مفاتحكم ، ونصركم ، واستوصوا بمن جاورتموه من القبط خيرا ، واياكم والموسسات المعسولات فانهن يفسدن الدين ، ويعصرن الهمم .

« حدثنى عمر أمير المؤمنين ، أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ستفتح عليكم من بعدى « مصر » ، فاستوصوا بقبطها خيرا ، فان لكم فيهم صهرا وذمة ... فكفوا أيديكم ، وغضوا فروجكم ، وغضوا أبصاركم . ولا أعلمن ما أتى رجل قد أسمن جسمه ، وأهزل فرسه . واعلموا أنى معترض الخيل كاعتراض الرجال ، فمن أهزل فرسه من غير علة ، حططته من فريضته قدر ذلك ، واعلموا أنكم فى رباط الى يوم القيامة لكثرة الأعداء حولكم ، وتشوف قلوبهم اليكم ، والى داركم معدن الزرع والمال والخير الواسع والبركة النامية ...

« حدثنى عمر أمير المؤمنين ، أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « اذا فتح الله عليكم مصر ، فاتخذوا فيها جندا كثيفا ، فذلك الجند خير أجناد الأرض » . فقال أبو بكر رضى الله تعالى عنه : « ولم يارسول الله ؟ » . قال : « لأنهم وأزواجهم فى رباط الى يوم القيامة » . فاحمدوا الله معشر الناس على ما أولاكم ، فتمتعوا فى ريفكم ما طاب لكم ... فاذا يبس العود ، وسخن الماء ، وكثر الذباب ، وحمض اللبن ، وصوح البقل ، وانقطع الورد عن الشجر ، فحى الى فسطاطكم على بركة الله . ولا يرجع أحد منكم ذو عيال الا ومعه تحفة لعياله على ما أطاق من سعته أو عسرته أقول قولى هذا وأستحفظ الله عليكم » .

الزيادة فى المسجد

أول زيادة فى المسجد حصلت فى عام ٥٣ للهجرة (٦٧٢ — ٦٧٣ للميلاد) على يد مسلمه بن مخلد الأنصارى ، والى مصر من قبل معاوية بن أبى سفيان أول خلفاء بنى أمية ، وكانت بعد تأسيس المسجد باثنين وثلاثين عاما .

نقل الكندى . « أن المسلمين شكوا الى مسلمة

ضيق المسجد بهم ، فأبلغ شكواهم الى الخليفة معاوية ، فأمر بتوسيع المسجد » .

ولقد حصل التوسيع من الناحية الشرقية حيث كانت دار عمرو ، ومن الجهة البحرية دون الجهتين الغربية والقبلية . وأنشئت رحبة من الجهة البحرية ، وزينت الحيطان والسقف بأنواع الزخرفة .

ويقول الكندى أيضا : « ان معاوية كان قد أمر ببناء صومعة للأذان ، وأن مسلمة شيد أربع صوامع فى كل ناصية من نواصى الجامع ، ولم يكن يوجد منها شىء قبل ذلك » . وهذه الصوامع كانت نواة للمآذن فى مصر ، ترقت وتطورت حتى بلغت الهيئة التى تشاهد عليها الآن .

ويقول السيوطى : « ان مسلمة نقش اسمه عليها ، وهو كذلك أول من غطى المسجد بالحصر ، ولم يكن يغطيها الى ذلك الحين الا الحصباء . وكان سلم الصومعة فى الطريق فنقله خالد بن سعيد الى داخل المسجد » .

الزيادة الثانية

احتفظ المسجد بالصورة التى تركه عليها مسلمة الى أن ولى مصر عبد العزيز بن مروان ، من قبل أخيه الخليفة عبد الملك ، فهدمه عام ٧٩ للهجرة (٦٩٨ م) لتجديده وتوسيعه من الجهة الغربية ، وأنشأ فيه رحبة . ولكنه لم يجد فى جهته الشرقية مكانا يكفى لتوسيعه لضيق الطريق .

وبعد عشرة أعوام ، أى فى عام ٨٩ هـ (٧٠٧ — ٧٠٨ م) ، أمر عبد الله بن عبد الملك بن مروان ، الوالى عبد العزيز بتعلية سقف المسجد ، وكان منخفضا جدا .

ويقول الكندى : « ان عبد العزيز زاد فيه من جوانبه كلها ، ثم سقف بعد ذلك » .

الزيادة الثالثة

فى عام ٩٠ للهجرة (٧٠٨ — ٧٠٩ للميلاد) ، قدم مصر الأمير قرة بن شريك واليا على مصر من قبل الخليفة الوليد بن عبد الملك ، فهدم المسجد فى أول عام ٩٣ للهجرة (٧١٠ — ٧١١ م) بأمر من الخليفة الوليد ، ثم بدىء بتعميره فى شهر شعبان من السنة المذكورة ، وتم فى رمضان عام ٩٣ للهجرة (يونيه ٧١٢ م) . وكانت صلاة الجمعة زمن العمارة تقام بالقيصرية .

وكانت زيادته هذه المرة من الجهة القبلية ، ومن الجهة الشرقية ، فأدخل فى سطحه بقية الطريق وجزءا من دار عمرو ودار ابنه عبد الله . وكذلك أنشأ محرابا مجوفا على شاكلة المحراب الذى أحدثه بالحرم النبوى عمر بن عبد العزيز عام ٨٨ للهجرة (٧٠٦ — ٧٠٧ م) ، وسمى محراب عمرو .

ثم رأى قرة بن شريك أن يطلى بالذهب رءوس الأعمدة الأربعة المحيطة به ، ولم يكن يوجد بأعمدة المسجد قبل ذلك أى تذهيب ، وكذلك زخرف معظم الأعمدة . ونصب فيه منبرا خشبيا جديدا عام ٩٤ للهجرة (٧١٢ — ٧١٣ م) ، وأحدث فيه المقصورة تقليدا لمقصورة معاوية بالجامع الأموى .

أما المحراب الأوسط — ويعرف بمحراب عمرو ابن مروان — فقد يكون أنشىء بعد محراب قرة . وقيل ان قرة هو الذى أنشأ المحرابين .

وكان لمسجد قرة أربعة أبواب فى الشرق ، والأخير باب النحاسين ، وكذلك كان له أربعة أبواب فى الغرب ، وثلاثة أبواب فى الجهة البحرية .

ثم أقيم منبر جديد من الخشب عام ٩٤ للهجرة (٧١٢ — ٧١٣ م) بعد ازالة المنبر الأصلى الذى أقامه عمرو . ويحتمل أن يكون ذلك بعد وفاة عمر ابن الخطاب . ويقال أيضا ان هذا المنبر هو منبر عبد العزيز بن مروان ، نقل من كنيسة بمصر .

وفى رواية أخرى : ان زكريا ، الوالى على النوبة ، أهدى هذا المنبر الى عبد الله بن سعد خليفة عمرو ، اذ أرسل اليه نجارا اسمه بقطر ، فركب هذا المنبر .

ومهما يكن من الأمر فان هذا المنبر كان باقيا فى المسجد الى وقت قيام قرة بن شريك بما أحدثه من الزيادات ، فأنشأ معها منبرا آخر .

وأعقب ذلك أن أصدر عبد الملك بن موسى بن نصير الوالى من قبل مروان بن محمد ، عام ١٣٢ للهجرة (٧٤٩ — ٧٥٠ م) ، أمره باقامة المنابر فى كافة المساجد الى جانب القبلة بدلا من الخطابة على العصى ، وبعدها بقليل كان يقال ان الناس لا يعرفون منبرا أقدم من منبر جامع عمرو — أى منبر قرة بن شريك — وأن هذا المنبر كان يلى فى الأقدمية منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وبقى هذا المنبر على هذه الحال الى زمن العزيز بالله ، ففك تركيبه فى عام ٣٩٦ للهجرة ، وأرسله الى الاسكندرية ، واستعاض عنه بمنبر مذهب .

وفى عام ٩٧ للهجرة (٧١٥—٧١٦ م) بنى بيت المال . ويقول ابن دقماق : ان الذى بنى هذا البيت هو قرة بن شريك ... كما ذكر أيضا أن الذى بناه هو أسامة بن زيد المتوفى عام ٩٩ للهجرة (٧١٧—٧١٨ م) ، وهو متولى الخراج بمصر من قبل سليمان بن عبد الملك الأموى .

وانتهى بعمارة ابن شريك توسيع المسجد نحو الجهتين القبلية والشرقية ، فلم نسمع بعد ذلك عن عمل عمارى آخر تم أو أنشىء فى الجامع فى عهد الدولة الأموية .

أما علة تجويف المحراب ، وتذهيب الأعمدة وترخيمها ، وما جد من محدثات فى المسجد ، فيمكن أن تستنتج مما ذكره ياقوت الحموى ، فى كتابه « معجم البلدان » ، عن أعمال قرة بن شريك فى جامع عمرو ، قال : « ثم لما ولى مصر قرة بن شريك فى سنة ٩٣ هـ (٧١١ — ٧١٢ م) ، هدمه بأمر الوليد بن عبد الملك ، فزاد فيه ، ونمقه وحسنه على عادة الوليد بن عبد الملك فى بناء الجوامع » .

الزيادة الرابعة

فى عام ١٣٣ للهجرة (٧٥٠ — ٧٥١ م) ، جاء صالح بن على بن عبد الله واليا على مصر من قبل الدولة العباسية ، فأسس « العسكر » وجامعها ، ودار امارة ثانية بدلا من دار الامارة الأموية التى كانت بالفسطاط .

ثم نظر فى زيادة مسجد عمرو ، فوسعه من الجهة البحرية ، وأدخل فيه دار الزبير بن العوام . وبهذا أزال النتوء الذى نتج عن ادخال دارى عمرو وابنه عبد الله فى المسجد . وأنشأ لذلك بابا خامسا فى الجهة الشرقية — سمى فيما بعد «باب الكحل» لمقابلته لزقاق الكحل — وأضاف أربع دعامات خلف المسجد بجانب الباب الأول حيث يوجد لوح أحمر .

وفى عام ١٧٥ هـ (٧٩١ م) زاد فى المسجد موسى ابن عيسى الهاشمى ، الوالى على مصر من قبل هرون الرشيد ، من الناحية البحرية ، فأدخل فيه نصف رحبة أبى أيوب .

ولما انتقص الطريق ، بسبب امتداد المسجد ، وسع موسى بن عيسى الهاشمى الطريق بجزء من دار الربيع بن سليمان .

الزيادة الخامسة

فى عام ٢١٢ للهجرة (٨٢٧ م) ولى مصر عبد الله ابن طاهر ، من قبل الخليفة المأمون . وفى جمادى

الآخرة من العام ذاته ، أمر بتوسيع المسجد ، فأضيف الى مساحته من الجهة الغربية مثلها ، فاستوعب ذلك النصف الغربى من رحبة أبى أيوب وفى أواخر رجب من العام المذكور عاد ابن طاهر الى بغداد ، وعهد الى عيسى بن يزيد الجلودى اتمام زيادته .

يقول مدير ادارة حفظ الآثار : « يمكن تصور زيادة ابن طاهر برسم خط مار بمركز دوران المحراب الكبير الحالى ، وبمنتصف فتحة الباب الأوسط المقابل له بالواجهة البحرية ، فهذا الخط يقسم الجامع الى قسمين : الشرقى منهما يعادل بالتقريب مسطح الجامع الى عهد موسى بن عيسى ، والغربى هو زيادة ابن طاهر التى كانت خاتمة الزيادات بحيث نرجح أن مساحة أرض المسجد لم تتغير من وقتها الى الآن » .

وكانت مساحة المسجد فى ذلك العهد ١٦٠ ذراعا معماريا فى ١٥٠ ذراعا ، أى مثل مساحة جامع ابن طولون ، باستثناء الرواق الذى يحوطه من ثلاث نواح . وقد علق عبد الله بن طاهر لوحا أخضر حرق حينما اشتعل الحريق فى المسجد ، فعلق أحمد ابن محمد لوحا آخر مثله فى الرحبة بالجهة البحرية .

وزيادة ابن الطاهر أهم الأعمال التى أجريت بالمسجد من الناحيتين الأثرية والمعمارية ... وأهميتها تتجلى فى زيادة مساحة المسجد الى الضعف ، وهدم الجدار الفاصل بينه وبين الجزء القديم ، وزيادة عدد الأعمدة ، ووصل العقود . وقد يتسع العمل أكثر من هذا لو كان للجامع القديم صحن ... لأن الحالة الجديدة تستدعى تخطيط صحن جديد ، وتعديل تخطيط الأروقة المحيطة بالصحن وبنائها .

ومعظم زيادة ابن طاهر قد احترقت ، ويصعب القول بوجود أبنية باقية من ذلك العهد .

زيادات اخرى

روى الكندى فى كتاب الموالى : أن القاضى أبا عمرو بن الحارث بنى فى عام ٢٢٧ للهجرة رحبة ، ونقل سلم المئذنة الى جهة الغرب من المسجد ، وفرش بالبلاط الجزء الذى وسعه ابن طاهر ، ورسم السقف ، وأنشأ « سقاية » فى المكان المعروف بالحذائيين . أما رحبة الحارث فقد بنيت لصق « دار الضرب » ، على مقربة من رحبة أبى أيوب

وفى عام ٢٥٨ للهجرة — وكان أحمد بن طولون واليا على مصر — أنشأ أبو أيوب الرحبة المسماة باسمه بعد حريق اشتعل فى مؤخرة المسجد ، وأنشأ معها المحراب المعروف باسمه أيضا ، وهو الذى كان موجودا غربى هذه الرحبة بجوار الشباك المسمى « الحذائيين » . وقد توفى أبو أيوب ، رحمه الله ، عام ٢٦٦ للهجرة فى سجون ابن طولون .

حريق المسجد

فى عام ٢٧٥ للهجرة (٨٨٨ م) وفى يوم جمعة اشتعلت نيران شديدة فى المسجد ، وقد بدأ اشتعالها فى أحد الأبواب ، وامتد اللهب الى رحبة الحارث ، ونشأ عن هذا الحريق تلف معظم الاضافات التى أنشأها ابن طاهر ، والرواق الذى كان فيه « اللوح الأخضر » ، فأمر خمارويه بن أحمد بن طولون بتجديد بناء هذا الجزء من المسجد باشراف أحمد بن محمد . ويقول المقريزى : ان هذا التجديد حصل مع مراعاة المشابهة التامة لما كان يوجد من قبل . وبلغت تكاليف ذلك ٦٤٠٠ دينار ، أى نحو ٣٨٤٠ جنيها وقد نقش اسم خمارويه فى لوح أخضر ، وعلق فى الرواق .

ومما يستحق الاشارة أن أحد الولاة أمر ، فى

عام ٢٩٤ للهجـرة ، باغلاق المسـجد بين أوقات الصلاة ، فاعترض الناس على هذا الامر ، فعادت الحال الى ما كانت عليه .

تحسينات مختلفة

أدخل على المسجد بعد الحـريق اصـلاحات كثيرة . وفى عام ٣٣٦ للهجرة (٩٤٧—٩٤٨ م) أنشـأ أبو حفص عمر ، القـاضى العباسى ، غرفة للمؤذنين فوق السطح . وكان اماما لمصر والحرمين الشريفين ، فعهد اليه بمأمورية الحجاج ، وتوفاه الله بعد عودته من هذه المأمورية .

وفى عام ٣٥٧ هـ جاء أبو بكر محمد بن عبد الله ، فأضـاف فى دار العرب ، رواقا مساحته تسـعة أذرع ، وبه نافذتان تطلان على رحبة الحارث . ومات أبو بكر قبل تمام العمل ، فتولاه ابنه على ابن محمد ، وانتهى منه فى الأيام العشرة الأواخر من شهر رمضان المعظم عام ٣٥٨ للهجرة .

ثم أنشأ أبو الفـرج يعقوب بن يوسف تحت بيت المال فى المسجد « فوارة » يدور حولها سقف من خشب . وتمت هذه الأعمال باشراف معروف الأطرى أمين مسجد القدس الشريف .

وفى عـام ٣٧٨ هـ (٩٨٨ م) غطيت هـذه « الفوارة » ببلاط الرخام .

وفى عام ٣٨٧ للهجرة (٩٩٧ م) أعيـد طلاء المسجد بالجص ، وجود نقشه ، وشرع فى تنظيفه تنظيفا تاما . وقد علق بأعلى أبواب الواجهة الشرقية خمسة ألواح مزخرفة ومذهبة ، منقوشا عليها اسم من قام بهـذه الأعمـال ، الا أن الألواح رفعت بعد وفاته .

ويقـال : « ان الحـاكم بأمر الله أمر وزيره « برجوان » — صاحب الحارة المعـروفة باسمه بحى الجمالية — باصلاح الجامع ، فجدد بياضه ،

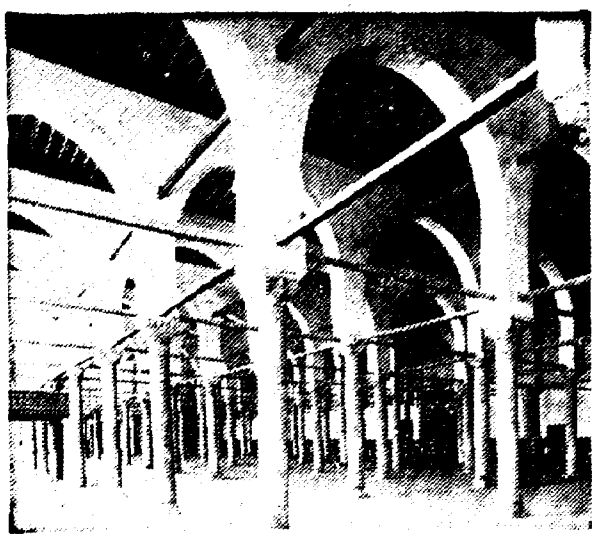

الايوان الغربى لجامع عمرو

وخلـع كثيرا من فسيفسـاء الجدران ، وبيض موضعهـا ، ونقشت خمسـة ألواح وذهبت ، ثم نصبت على أبوابه الخمسة الشرقيه وعليها اسم « برجوان » ، فلما قتل خلعت هذه الألواح » .

وفى عام ٤٠٣ للهجـرة (مارس عام ١٠١٣ م) أرسل الخليفة الحاكم بأمر الله الى المسجد ١٣٠٠ نسخة من المصحف الشريف كامـلا ، ومن بعض أجزائه — بعضها كان مكتوبا بحروف ذهبية — لينتفع المسلمون بالمطالعة والقراءة فيها ، وأنشـأ للمسجد « شمعدانا » كبيرا صرف عليه ما يقرب من مائة ألف دينـار فضة ... ولعظم حجـم هذا « الشمعدان » استدعى الحال توسيع أحد الأبواب للتمكن من توصيله لداخل المسجد .

وفى شعبان عام ٤٠٦ للهجرة (يناير عام ١٠١٦ للميلاد) أصدر الحاكم أمره بانشاء رواقين فى صحن المسجد ، وأزال الأعمدة الخشبية التى وضعها أبو أيوب فى عام ٢٥٧ هـ (٨٧٠ — ٨٧١ م) .

وفى عـام ٤٣٨ للهجـرة (١٠٤٦ م) ، أمر الخليفة المستنصر بعمل منطقة من فضة فى صـدر المحراب الكبير ، وجعل لعمود المحـراب أطواقا من الفضة .

وفى رمضان من هذه السنة أمر بأن يظهر المؤذنون خارج المقصورة ، وكانوا قبلا يؤذنون داخلها ، ثم نقش بالفضة المحراب الكبير ، وكتب عليه اسم النبى صلى الله عليه وسلم ، وزخرف أعمدة هذا المحراب بأطواق من فضة .

وفى عام ٤٤١ للهجرة (١٠٤٩ م) جدد بناء حائط القبلة من المنبر الى زيادة «الحازن» باشراف القاضى أبى عبد الله ، كما أمر الخليفة بتذهيب بقية الجدار القبلى . وبعد ذلك بعام صنعت مقصورة للامام من خشب ، ومحراب من ساج بعمودين من الصندل

وفى عام ٤٤٢ للهجرة (١٠٥٠ م) أصلح القاضى أبو عبد الله أحمد بن محمد بن زكريا غرفة المؤذنين الموجودة على السطح وزخرفها ، وأنشأ للنزول ممرا الى بيت المال ، وللصعود الى السطح أنشأ سلما من الخزانة المستجدة خلف المحراب الكبير ... يقول مدير لجنة حفظ الآثار : « والراجح أن بابها هو الذى اكتشفناه أخيرا على يمين المحراب الأوسط ، وهذا مما يجعل بيت المال قريبا من هذا المحراب » .

يؤيد ذلك ما كتبه ابن رسته تحت عنوان « صفة مصر » حيث قال : « وان بيت مال مصر فى المسجد الجامع قدام المنبر ، وهو منفصل من سطوح المسجد ، ولا يتصل بشىء منها ، وهذا مرفوع بأساطين من حجارة ، وهو « بيت المال » شبه قبة مرتفعه ، يجلس الناس تحت البيت ويمرون تحته . وهناك قنطرة من خشب : اذا أرادوا دخول هذا البيت جروا تلك القنطرة بالحبال حتى يستقر طرفها على سطح المسجد ، واذا خرجوا ردوا القنطرة وعليها باب حديد باقفال ، واذا صلوا العشاء الآخرة أخرج الناس كلهم من المسجد ولم يترك به أحد ، ثم تغلق أبواب الجامع وهذا لحال بيت المال » .

وفى عام ٤٤٤ للهجرة أضيف مجلس بين باب الدرب وممر المستحم ، وزخرف هذا المكان ، ووضع فيه محراب ذو بلاط من الرخام أصله من المحراب الكبير .

ونقل القضاعى : أنه فى عام ٤٥٠ للهجرة (١٠٥٨ م) بنيت المنارة الموجودة بين منارة عرفة والمنارة الكبرى .

الحريق الثانى

وفى عام ٥٦٤ للهجرة (١١٦٨ — ١١٦٩ م) أغار « أمورى » — ملك أورشليم (بيت المقدس) — على مصر ، وعسكر جنوب الفسطاط ، وصدرت أوامر « شاور » — وزير العاضد آخر خلفاء الفاطميين — باشعال النار فى المدينة اجتنابا لها من الوقوع فى أيدى الفرنجة ، فأحرق المسجد ، ويظن أنه لم يبق منه سوى الحيطان وبعض العقود ... فلقد استمرت النار مشتعلة ما يقرب من أربعة وخمسين يوما .

تجديد بناء المسجد

فى عام ٥٦٨ للهجرة (١١٧٢ — ١١٧٣ م) — بعد وفاة العاضد — جدد صلاح الدين الجامع بأكمله ، وجدد واجهة القبلة كلها هى والمحراب الكبير ، ورخمه ونقش عليه اسمه ، ثم أحدث بعض التعديلات الجزئية ، فأعاد نقش المسجد ، وزخرفة الأعمدة ، وأكمل تبليطه تحت الحصر بالرخام ، وعمر « المنظرة » التى تحت المئذنة الكبيرة .

وليس لدينا ما نستدل به على أعمال تمت فى السنين التالية : لا عن التوسيع ، ولا عن الزخرفة ،

ولا عن الحفظ والصيانة . وكل ما وقفنا عليه وصف زيارة على بن موسى بن سعيد المغربى ، أحد السائحين ، فى عام ٦٤٥ للهجرة . وقد توفى بدمشق عام ٦٧٣ هـ (١٢٧٤ م) ، وكانت زيارته على الترجيح فى أيام حكم الصالح نجم الدين أيوب . وهذا الوصف ورد بالمقريزى عند الكلام على مدينة الفسطاط بصف المسجد العمرى . يقول ابن سعيد المغربى :

« تابعت السير فى طريقى فى أسواق ضيقة بحيث تكدرت من الأوساخ ، ومن تزاحم ما لديهم من البضائع والابل المثقلة بالأحمال ، التى لا يدرك شدتها الا الذين كابدوها قبلى ، ووصلت فى نهاية الأمر الى الجامع ، فرأيت من ضيق الطريق المحيطة به ما لم أره فى جامع مراكش ، فدخلته فاذا هو مسجد بناؤه قديم ، ليس به شىء من الزخارف والزينة ، ولا تزويق فى الحصر المعلقة فى دائر الحيطان والمفروشة فى أرضه ...

« ووجدت المسلمين من كافة الطبقات يتخذون منه طريقا فى الذهاب والاياب من باب الى باب ، اجتنابا للف فى طرق ملتوية ، والباعة تبيع فيه كل أنواع البندق والفواكه والفطير ، فيستنفدها المسلمون أكلا هناك دون مراعاة حرمة المسجد كما كانت تقضى به العادة فى ذاك الوقت ...

« وكان هناك بضعة أطفال فى غدو ورواح يسقون الآكلين ، ويعيشون من فضل ما يعطونهم من الصدقات ، وكانت فضلات هذه المآكل فى صحن الجامع وجميع أركانه ، وكان سطح المسجد وزواياه مغطاة بنسيج العنكبوت ، والصبية يلعبون ويمرحون فى الأفنية ، وغطيت الحيطان بأنواع الكتابات المختلفة بأقلام الفحم والبوية الحمراء ...

« وبالرغم من ذلك ، فقد كان بناء المسجد ذا

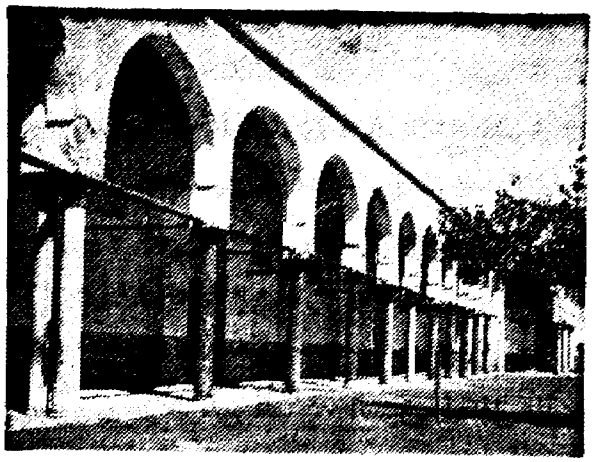

الايوان الشرقى لجامع عمرو

مظهر فيه بعض من الفخامة يؤثر فى نفس الناظر اليه ، وهذا التأثير لم يكن يحصل قط لمن يرى جامع اشبيلية ، مع ما فيه من الزخرفة الفخمة ، وحديقته القائمة فى وسطه . وقد حدث فى نفسى شعور هدوء وعزاء دون أن يخيل الى وجود شىء يوصل الى مثل هذا الشعور ...

« ولقد علمت أن هذا التأثير الباطن سببه أن أحد الصحابة رضى الله عنهم أشرف على بنائه . والذى انشرح له صدرى ، وسر منه خاطرى ، هو وجود جماعات من الطلبة جالسين حلقات حول اثنين من علماء القراءة والتفسير والتوحيد ، فسألت عن مصدر معيشتهم ، فعرفت أنهم يعيشون مما يحملون من الأعشار الشرعية ، وعلمت أيضا أنهم يتكبدون صعوبات فى تحصيل هذه الأعشار وبعد ذلك زايلت المسجد ورجعت الى ضفة النيل » .

هذه القصة تدل دلالة واضحة على حالة الاهمال التى كان عليها المسجد فى أواخر عهد دولة صلاح الدين . على أن هذا قد تجاوز الحد فى النقد ، وغالى فى تحقير المسجد ، شأنه فى الكلام على القاهرة ، مما جعل المقريزى يحمل عليه ، ويصفه بالمغالاة .

وعلى كل فان عمارة صلاح الدين كانت آثارها باقية الى حوالى منتصف القرن الثامن للهجرة ... فقد ورد فى رحلة « البلوى » فى « تاج المفرق فى تحلية علمـاء المشرق » لخالد بن عيسى بن أحمد المغـربى ، التى بداها عـام ٧٣٦ هـ (١٣٣٥ — ١٣٣٦ م) ، وأتمها عام ٧٤٠ هـ (١٣٣٩ — ١٣٤٠ م) أنه زار مصر ، ووصف مسجد عمرو بقوله :

« كنت أتردد الى المسجد العتيق الحافل الذى بناه عمرو بن العاص رضى الله عنه ، واليه ينسب اليوم ، فأرى جامعا منيرا ، ومسجدا كبيرا له صحن فسيح ، وأسوار حافلة ، ومقاصير من العود عجيبة ، وتواريخ مكتوبة بالخط الحافل المذهب كثيرة ... فمنها ما كان مكتوبا على المحراب ونصه :

« بسم الله الرحمن الرحيم . انما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر . النصر والفتح المبين لسيدنا ومولانا الامام المستضىء بنـور لله : أبى محمد الحسن أمير المؤمنين . أمر بتجديده الملك الزاهر الناصر المجاهد ، صلاح الدنيا والدين ، أبو المظفر يوسف ، وفقه الله تعالى لطاعته » .

وكانت عمارة صلاح الدين فى عام ٥٦٨ للهجرة ، وهى الأولى والأخيرة فى عهد الدولة الايوبية التى خلفتها دولة المماليك البحرية .

وفى عام ٦٤٨ للهجرة قام السـلطان عز الدين أيبك أول سلاطين المماليك ، بترميمات فى حيطان المسجد ، ودهنها من جديد ، وأصلح الأعمدة ، ورمم الأرض بالرخام مع الزيادة عليها ... حتى انه لم يترك جزءا من تلك الأرض بغير ترميم ولا حصير .

وفى عهد بيبرس ، عام ٦٦٦ للهجرة (١٢٦٨ م) ، رئى أن الحائط البحرى غير متماسك ، ومهـدد بالسـقوط ، ففحصه القـاضى الأكبر تاج الدين عبد الوهاب بنفسه ، واستشار مهندسه المعمارى ، وأوقف المياه التى كانت تجرى من « الفوارة » بسبب ما أصابها من تلف ، وأنشأ سقادات للحائط البحـرى ، وأزال فى الوقت ذاته معظم الغـرف المتراكمة فوق السطح .

وهذه الاصلاحات صرف عليها من ريع المسجد ، ومع هذا فقد لوحظ بعد ذلك بقليل أن البناء كان بصفة عامة قليل المتانة ، فأصـدر السلطان نداء استندى به أكف الجمهور ، فكانت النتيجة اصلاح الحائط البحـرى اصلاحا تاما ، مع نقـل بعض الأعمدة واستبدالها ، وتجديد العقود التى كانت مقامة عليه ، وانتهزت هذه الفرصة لجلاء الأعمدة ، وغطيت كافة الحيطان بغطاء جديد من المصيص ، وسدت نافذتا الحائط البحرى بقصد تقويته .

* * *

وبعد ذلك بنحو عشرين عاما ، فى عهد السلطان قلاوون عام ٦٨٧ للهجرة (١٢٨٨ للميلاد) ، قام عز الدين الأقـرم ببعض الترميمات . وتدل حالة الاهمال التى كان عليها الجامع على أنه اضطر لنقل الردم الذى كان متراكما بسبب الزيادات ، ثم جدد الدهان ، وجـلا الأعمدة الى نصف ارتفاعهـا ، وأوصل الماء الى « ميضأة » المسجد من بئر كانت موجودة فى « زقاق الأقفال » .

وفى زمن علاء الدين بن مروان سقفت الزيادات البحرية والشرقية التى كانت من قبـل مستودعا للحصر ، وأقيم حاجز « دربزين » بين البابين لمنع المارة من الدخول فى الملحقات ، بين باب المسجد وباب الزيادات الموصل الى سـوق النحاسـين ، ورصف هذا الجزء من الزيادات بالبلاط ، وفك رخام الصحن ، وبلط الحارات فى دائرة المسجد .

وفى عام ٦٩٦ للهجرة ابتاع الصاحب تاج الدين دارا بجوار المسجد وهدمها ، وأنشأ مكانها سقاية كبيرة ، وكانت تصل الى مستوى أرض المسجد ،

ولما مر يعليها الى السطح ، ثم هدم بعد ذلك الحجرة التى كانت بأسفل منارة المنظرة .

حدوث الزلزال

فى عام ٧٠٢ للهجرة (١٣٠٢ — ١٣٠٣ م) حدث زلزال ألحق ببناء المسجد ضررا بالغا ، فعهد الأمير « سلار » ، فى زمن السلطان الناصر « محمد بن قلاوون» ، بتجديد بنائه الى بدر الدين بن خطاب ، فقام بهدم الحائط البحرى من أول السلم الصاعد الى السطح حتى باب الزيادة البحرية الشرقية ، وأعاد بناء ما هدم كأصله ، وأنشأ بابين جديدين فى الزيادات البحرية الغربية ، وأقام أمام الأعمدة المربعة صفا آخر من الأعمدة بقصد تقوية البناء ، ثم أعاد دهان المسجد ، وسقف الزيادات البحرية الشرقية محافظة على الحصر ، ووضع حاجزا « درابزينا » بين باب المسجد وباب الزيادات تنظيما لمرور الناس ، وأضاف سقفا فى الزيادات الغربية ليقيم عليه رواقين ، وفرش أرضه ببلاط من الرخام.

وهدم عدة مساجد شرقى الفسطاط للانتفاع بأعمدتها ، ورفع معظم البلاط من أرضية المسجد المغطاة بالحصر ، وركبه قرب باب الشرابيين .

وبعد ذلك بقليل تقوضت الزيادات البحرية والشرقية ، وآل المسجد الى السقوط ، وتزعزعت أقواس العقود ، وتهيأت للسقوط ... فمنذ وفاة السلطان الظاهر برقوق ، لم يفكر أحد من السلاطين فى تعمير المسجد .

وفى عام ٨٠٤ للهجرة (١٤٠١ — ١٤٠٢ م) طلب برهان الدين ابراهيم بن عمر بن على التاجر ، أن يعمر الجامع ، فهدم الجزء القبلى بين المحراب الكبير والصحن كله طولا وعرضا ، ورفع اللوح الأخضر ، ثم أعاد البناء سيرته الأولى مع بلاط الرخام ، وجدد جلاء الأعمدة ، وجدد السقوف التى كانت ساقطة ، فصار الجامع بأكمله مجددا ... فكان الناس يثنون دائما على هذا الرجل الذى وفقه الله لتعمير مسجده .

وفى عصر السلطان قايتباى عام ٨٧٦ للهجرة (١٤٧١ م) ، أجريت بعض الاصلاحات فى الحيطان والأسقف ، وبنيت من ماله الخاص .

وبعد هذه العمارة لم يرد ذكر لاصلاحات أخرى بالمسجد الى أن دالت دولة المماليك الشراكسة ، ودخلت مصر فى حيازة العثمانيين الذين لم يرد لهم ذكر فى تاريخ اصلاحات المسجد الى عام ١٢١١ للهجرة (١٧٩٦ م) ، وكان قد تخرب بخراب ما حوله من الأبنية بالفسطاط ، وهجره المصلون لبعده عن العمران .

يقول الجبرتى : « ان الجامع قد مضى عليه الزمن الطويل وهو فى حالة تخريب تام ، وكان الجامع من وقت حريق الفسطاط محاطا بمقامات من كل نوع ، والمنازل القليلة التى لا تزال موجودة قائمة على ضفتى النيل فى الجهة البحرية قرب الترعة . وكان الأهالى يصلون بمساجد أخرى صغيرة بالقرب من الجامع ، ولم يكونوا يترددون قط على الجامع العتيق » .

ثم قال : « وقد وقع لى أن شاهدت الوقت الذى كان المسلمون يختلفون الى الجامع لأداء جمعة رمضان ، وكان الشعب يجتمع وقتئذ قادما من القاهرة ومصر وبولاق للتسلى والرياضة ، وكان يقصد اليه أيضا الحكام ، وفى وجودهم يقوم كثير من المشعوذين ، واللاعبين بالقرود والراقصات ، فيجتمع هؤلاء كلهم فى صحن الجامع » .

وهذه الأحوال انقطعت بعد ذلك بزمن ، لما كان عليه الجامع ، وما يحيط به من حالة التخريب والاضمحلال ... فان السطح والأعمدة قد تساقطت ، وتبعها فى السقوط جزء من الحائط الشرقى .

وفى عام ١٢١٢ للهجرة (١٧٩٨ م) هدمه الأمير مراد بك محمد لسقوط سقفه وأعمدته ، وميل ايوانه الغربى وسقوط بعضه . ثم أقام الأعمدة من جديد ، وحسن الزخارف ، وبنى منارتين ، ورخم السطوح ، وقواها بأخشاب متينة ، ثم أعاد النقوش وفرش الأرضية بالحصير ، وعلق قناديل الزيت بالسقوف ... وتم ذلك جميعه لاقامة صلاة الجمعة اليتيمة فى شهر رمضان سنة ١٢١٣ للهجرة .

وفى هذه السنة نفسها خرب الجامع ، ونهب ما فيه ، وأخذ جميع ما كان يحتويه من تحف وزخرف وغير ذلك حتى صار أسوأ مما كان فيه قبل العمارة .

ظل المسجد على هذه الحال الى أن تولى محمد على ، فقام ببعض الاصلاحات ، وأعاد صلاة الجمعة فيه ، ووقف عليه من الأعيان ما يكفى للصرف عليه . واستمر ولاة مصر يصلون فيه الجمعة الأخيرة من رمضان ، وان لم يقوموا باصلاحات تذكر ، اذ بقى المسجد كما تركه مراد بك بعد تخريب الفرنسيين له .

اضمحل المسجد ، وسقط ايواناه الشرقى والغربى عام ١٣٠٠ للهجرة (١٨٨٢ — ١٨٨٣ م) ، وما زالا على حالهما الى الآن .

وفى عام ١٣١٧ للهجرة (١٨٩٩ م) ، أجرى به ديوان الأوقاف عمارة جدد بها سقف الايوان القبلى ، وبعض الايوان البحرى ، وأقيمت جدرانه، وفرشت أرضه بالبلاط .

لجنة حفظ الآثار العربية

فى آخر عام ١٣٢٣ للهجرة (١٩٠٦ م) كونت لجنة مهمتها حفظ الآثار العربية ، وعنيت بمساجد القاهرة الأثرية ، وفى مقدمتها مسجد عمرو العتيق ، وعهدت الى قسمها الفنى بفحصه فحصا دقيقا ، وتقديم تقرير شامل بما يلزمه من اصلاحات ، ومقدار تكاليفها .

قام هذا القسم بعمله فى ٢ من المحرم عام ١٣٢٤ للهجرة (٢٣ من فبراير عام ١٩٠٦ للميلاد) ، ورأى قبل كل شىء وجوب البحث فى أرض المسجد عن آثار الأسس التى زالت جدرانها ، لكى يتمكن بوساطتها من وضع خطة تفصيلية للأعمال التى يستقر الرأى على اجرائها به ... على أن تشمل هذه الخطة اعادة الايوانين القديمين الى ما كانا عليه ، واصلاح الايوانين الموجودين ، وتعيين صحن الجامع .

ولما تمت عملية الكشف فى صفر عام ١٣٣٤ للهجرة (مارس عام ١٩٠٦ للميلاد) عرض القسم نتيجة البحث ، وبين أن الحفر كان فى عدة مواضع من المسجد كشف فيها عن جدران من عصور مختلفة . واستصوبت اللجنة الاستمرار فى أعمال الحفر ، حتى تنكشف جميع الحيطان المماثلة للتى كشفت ، وبعد كشفها يمكن الحكم على أهميتها . ووافق القسم على اقتراح اللجنة وطلب أن يكون الحفر شيئا فشيئا حتى لا يزدحم المسجد بالأتربة ، فتحول دون اقامة الشعائر الدينية .

وفى ربيع الأول عام ١٣٢٥ للهجرة (ابريل عام ١٩٠٧ م) زار القسم الفنى من اللجنة المسجد مرة ثانية . ورأت اللجنة كشف جوانب المسجد لأن أرضه منخفضة عن أرض الشارع ، وطلبت توجيه نظر « ديوان الأوقاف » الى ازالة بعض المنازل المجاورة له .

ولما كان صلاح المسجد يتطلب نفقات طائلة ، والريع لا يكفى ، وجهت دعوة لحث المسلمين الراغبين فى احياء التراث الاسلامى على المساهمة بالتبرع لمشروع تجديد « مسجد عمرو » .

أعلنت الدعوة فى آخر جمعة من شهر رمضان

عام ١٣٣٩ للهجرة (أغسطس عام ١٩٢١ م) ، ووضع مهندس الأوقاف فى ذلك الحين مشروع التجديد . وكان المشروع للأسف حبرا على ورق فوقف عند هذا الحد .

وفى عام ١٩٢٦ للميلاد أعلنت مسابقة عامة لوضع تصميم للمسجد يطابق ما كان عليه أيام مجده وفخامته ، فقدم المتسابقون سبعة مشروعات فصل فيها فى عام ١٩٢٧ م ، واعتمدت اللجنة أحدها .

وفى عام ١٩٣٠ نفذت لجنة حفظ الآثار العربية بعض مشروعاتها ، فأصلحت الايوان الكبير اصلاحا شاملا ، وقوت جدران الأجزاء الأخرى من المسجد . ولكن ذلك لم يضف لما أقامه مراد بك محمد شيئا ، ثم لم يعد للجنة حفظ الآثار صوت ، فلم تعمل شيئا .

والمسجد فى جملته بحسب ما يراه الانسان فى هذه الأيام ، كأنه شيخ هرم تبدو عليه مسحة من الجلال والعظمة ، فأثر ترميم مراد بك لا يزال موجودا تشهد به اللوحة التاريخية الموضوعة بجوار القبلة الكبيرة ، فلقد أرخ لاصلاح المسجد وترميمه بأبيات شعر فى عام ١٢١١ للهجرة .

وبالجهة القبلية الشرقية المقبرة التى دفن فيها « عبد الله بن عمرو بن العاص » ... فحين سار مروان بن الحكم الى مصر ، وحارب المصريين ، كان عبد الله من قتلى هذه المعركة ، فدفن فى داره . ولما وسع المسجد قرة بن شريك أدخل به ذلك الجزء من الدار الذى دفن فيه عبد الله ، فصار من ذلك الحين ضريحا له .

وموت عبد الله ، ودفنه فى داره ، وردت فيهما روايات كثيرة وأقوال مختلفة ... فالواقدى يروى أن عبد الله بن عمرو مات بالشام عام ٦٥ للهجرة ، والبرقى يرى أن موته كان بمكة ، وقيل بالطائف ،

منظر عام لصحن جامع عمرو

وقيل بمصر ودفن فى داره . وهذه الرواية موافقة للوضع الحالى .

وفى « أسد الغابة » يشك ابن الأثير فى موته وفى تاريخه ، فلا يجزم برأى . أما « النجوم الزاهرة » فانها توافق من يقول بموته فى البيت ، ثم أدخل فى المسجد ، وهذا هو الراجح من الأقوال .

وأمام القبلة أحد أعمدة « البواكى » وقد سور بسور حديدى ليمنع الناس من تقبيله والدوران حوله وملامسته ، ويفسر ذلك تفسيرات شتى ، وأصحها أن هذا « العمود » أتى به من المدينة ، فأخذ الناس يتبركون به بوسائل مختلفة ، فأرادت وزارة الأوقاف أن تقضى على هذا الاعتقاد .

والمسجد مظلم بالليل ، ولم ينور سوى المصلى القائم بالجزء الشمالى الغربى ليصلى فيه الناس الصلوات الخمس . وقد اجتمع أهل حى المسجد ، وجمعوا من تلقاء أنفسهم مبلغا من المال ، وأوصلوا الكهرباء الى أركان المسجد كلها ، فأضىء وفرح أهل الحى بذلك ، ولكنه لم يدم طويلا ، فلقد أمرت وزارة الأوقاف بتقطيع الأسلاك خوفا على المسجد الأثرى من الحريق ... وتم ذلك كله فى عام ١٣٧٨ للهجرة (١٩٥٨ م) .

وتقام بالمسجد صلاة الجمعة من كل أسبوع ، ويصلى به آلاف المسلمين من جميع جهات القاهرة . وقد اشترك الأهالى أيضا فى شراء آلة لتكبير الصوت تستعمل كل جمعة ليصل الأذان والخطبة الى أجزاء المسجد جميعها

ومسجدنا الكبير تحوطه الآن من الجهة الغربية مقابر المسلمين ، ومن الجهة الشرقية مواقد « الفواخير » لعمل الأوانى الفخارية ، ومن الجهة القبلية مدابغ بدائية وفواخير أيضا ، أما الجهة البحرية فميدان فسيح كان يستخدم فيما مضى موقفا للسيارات ، ثم أمرت « بلدية القاهرة » بتغيير المكان احتراما للمسجد العتيق .

العصر الذهبى فى تاريخ المسجد

ان ما كتبه المؤرخون عن هذا المسجد ، والتفصيلات الكثيرة التى دونوها عنه تجلو صورة واضحة لتخطيطه فى أوج عزه ومجده . ولعل ابن دقماق ، المتوفى عام ٨٠٨ هـ (١٤٠٦ م) ، قد ترك لنا معلومات كثيرة عن تخطيط المسجد ، اعتمد فيها على ابن المتوج المتوفى عام ٧٣٠ هـ (١٣٢٩ — ١٣٣٠ م) .

وتخطيط المسجد فى القرن السابع للهجرة كان كتخطيطه فى أواخر القرن الثامن ... فقد دلت البحوث التى قام بها المؤرخون المحدثون على صدق ما رواه المؤرخون فى القرنين السابقين اللذين وصل المسجد فيهما الى كماله وروعته .

بلغت مساحة مسطح المسجد ١٦٠ ذراعا معماريا فى ١٥٠ ذراعا . وهذه المساحة هى التى اهتدى اليها مدير ادارة حفظ الآثار فى كتابه « جامع عمرو بن العاص » ، فتكون مساحته ٢٤٠٠٠ ذراع معمارى . وهذه المساحة موافقة تقريبا لما كتبه المقريزى ، وابن دقماق ، وأيده المؤرخ « كورييت بك » .

وما كتبه المقريزى وابن دقماق يفيد أيضا انه كان للمسجد ١٣ بابا : خمسة منها فى الجهة الشرقية ، وواحد بالجهة القبلية مخصص للخطيب ، وأربعة بالواجهة الغربية ، وثلاثة بالواجهة البحرية . وقد سدت كلها ، ما عدا الثلاثة الموجودة الآن بالجهة البحرية ، وبابا حديثا رابعا فتح بالجدار المذكور ليصل المسجد بدورة المياه الحديثة التى أنشأها ديوان الأوقاف عام ١٨٩٩ للميلاد فى غير الموضع القديم الذى كان خارج المسجد من الجهة العربية القبلية . وكانت الأبواب من خشب الأرز منقوشة مذهبة ومزخرفة بالألوان .

وكان للمسجد ثلاثة محاريب فى جداره القبلى ، هى : المحراب الكبير المجاور للمنبر ، والمحراب الأوسط ، ومحراب الصلوات الخمس . وكان فى صدرها منطقة من الفضة مكتوب فيها اسم النبى صلى الله عليه وسلم ، وحول الأعمدة أطواق من الفضة . وكان الجزء السفلى من المحراب مزينا بالرخام المختلف الألوان .

وهناك محراب رابع فى الايوان القبلى من الجهة الشرقية ، يزعم البعض أنه للسيدة فاطمة الزهراء ، وآخرون يظنونه محراب معبد للسيدة نفيسة . ولا أساس لذلك ... لأن السيدة فاطمة الزهراء دفنت بالمدينة ، والسيدة نفيسة ضريحها بالقاهرة معروف . ويقال « ربما كان لفاطمة ابنة عفان » .

وأقدم المئذنتين الموجودتين مئذنة الواجهة البحرية ، لأن مئذنة الزاوية القبلية الغربية جددها مراد بك محمد . وقد بنيت هاتان المئذنتان فى أثناء حكم الاتراك ، ويدل على ذلك نسقهما فهما على التأكيد متأخرتان .

ولقد ذكر القلقشندى وغيره أنه كان للمسجد خمس مآذن : اثنتان منها فوق الجدار القبلى ،

هما « عرفة » و « الكبيرة » ، وثلاث على الواجهة البحرية ، وهى « الجديدة » و « السعيدية » و « المستجدة » . وأولى هذه الثلاث الأخيرة كانت قائمة فوق الطرف الشرقى للواجهة البحرية ، والثالثة فوق طرفها الغربى .

وجدار المسجد القبلى — على مابه من آثار الترميم القريبة العهد نسبيا — هو على التأكيد أحد جدران المسجد القديمة . وقد بناه فى موضعه الحالى « قرة بن شريك » فى عام ٩٣ الهجرة (٧١١ — ٧١٢ للميلاد) ، وطرأ عليه منذ ذلك الحين عدة ترميمات ، ولكن أساسه بقى مكانه والجزء القائم بين المحراب الأوسط والجدار الغربى جدد بناؤه فى عام ٤١١ للهجرة (١٠٤٩ م) ، وأزيلت بقيته بمعرفة القاضى ابن عبد الله ، عن أمر الخليفة المستنصر ، وقوى الجدار كله فى عهد الرئيس برهام الدين عام ٨٠٤ للهجرة (١٠٤١ — ١٠٤٢ م) ، اذ هدم الجامع كله فيما بين المحراب والصحن طولا وعرضا .

وحائطه الشرقى حديث العهد ، وان بقى منه — فى الجهة البحرية للكشف البحرى من الركن القبلى — جزء ينبىء عن آثار قديمة جدا ومن المؤكد أن الجزء البحرى من هذا المكان جدد كله بمعرفة مراد بك عام ١٢١٢ للهجرة .

والحائط البحرى حصل فيه ترميم فى عام ٦٦٦ للهجرة (١٢٦٨ م) ، وأعيد تجديد جزء منه فى عام ٧٠٢ هـ (١٣٠٢ — ١٣٠٣ م) ، ولم يتغير مكانه الحالى ، وأقدم جزء فيه يوجد بين الباب القائم تحت المنارة الحالية والمحراب بجوار الباب الأصلى .

أما الحائط الغربى فليس فى النصوص المكتوبة ما يدل على أنه جدد تجديدا تاما بعد التوسيع الأخير للمسجد . ويحتمل أن يكون الجزء البحرى منه قد أعيد بناؤه فى عام ٦٦٦ هـ أيضا فى عهد تاج الدين . ويعد الجزء الذى يجاور الجزء البحرى مباشرة أقدم جزء فى المسجد . ويفترض المؤرخ « كوربت » أنه كان يوجد فى هذه الناحية أربعة صفوف من الأعمدة ، ولكنه لم يوضح لماذا بنى الحائط فى مكانه الحالى ، وفى أى عصر جدد ذلك ... وعلى هذا لايمكننا التسليم بنظريته ، والمرجح عكس ذلك .

وأعمدة المسجد كما ذكر ابن دقماق ، ووافقه « كوربت » أنه كان يوجد فى هذه الناحية أربعة بالايوان القبلى ، ومثل هذا العدد بالايوان البحرى ، وبالايوان الشرقى ستة صفوف فى كل صف منها سبعة أعمدة ، فيكون مجموعها اثنين وأربعين ، وبالايوان الغربى مثل ما بالايوان الشرقى .

وكان فى الزيادات التى أضيفت الى جهات المسجد الثلاث عدة مرافق ، ففى الجهة البحرية كانت رحبة كبيرة يتسع منها المدخل الأصلى للجامع . والمحراب على يمين الباب الأصلى يدل على أن هذا المكان كانت تصلى فيه الجماهير التى ضاق بها داخل المسجد .

وكان يوجد فى الزيادات البحرية الشرقية مجلس قاضى القضاة الذى كان يجلس للحكم يومين فى الأسبوع ، ومخازن الحصر وغيرها من الأشياء المستعملة فى الجامع ، ودكاكين لتجار السبح والمصاحف والكتب .

وكان بالقرب منه مدرسة لتحفيظ القرآن الشريف ، ورواق أبى بكر ، وبقية منازل الدرب وكافة المرافق المعتاد الحاقها بالمسجد ، كالأماكن المخصصة للوضوء والخلاوى والميضأة .

وحيطان المسجد كانت مبنية بالطوب ، ممونة بالجير ، وكانت مكسوة بالجص من الداخل

والخارج . والأعمدة كانت من الرخام المصقول ذى الألوان المختلفة ، والأروقة كالحيطان مبنية بالطوب المطلى بالمصيص . وكانت مشدودة فى أولها بأخشاب من خشب الأرز ، داخلة فى البناء تمنع عنها دفع العقود .

وكانت الأوتار منقوشة ومزخرفة ، تعلق فيها المصابيح بسلاسل من النحاس . وكانت تيجان الأعمدة وقواعدها من الرخام الأبيض ، والأعمدة الأربعة التى كانت عند قبلة المسجد القديم الذى بناه عمرو ، كانت تيجانها مذهبة .

وكان سقف المسجد من الداخل مؤزرا بالرخام ، وفوق هذه الوزر طبقة من الجص المزخرف كتب فيه بعض السور الشريفة بحروف بارزة مذهبة ، على أرضية زرقاء وبالجزء العلوى من البوائك والجدران زخرفة تحت السقف ، وبدائر المحراب زخرفة مثلها وكانت المبادىء والعنايا مزخرفة أيضا ، وسقوف المسجد مكونة من « براطيم » خشبية مدهونة ومنقوشة ، تتخللها مربعات خشبية ملونة ، وبعض الأجزاء فضية أو مذهبة .

ولوقاية السقف من حرارة الشمس والمطر والتلف ، بلط سطحه بالبلاط . وكان الزوار يطوفون بالسطح سبع مرات ، وهم يتلون الأدعية فى مواضع خاصة منه .

وكانت أرض المسجد مفروشة بترابيع الرخام ، وأرض الصحن مكشوفة ، وبها زخرفة كثيرة بالفسيفساء والرخام الملون .

وكان بالميضأة التى تتوسط الصحن أعمدة كأعمدة الجامع ، وأرضيتها مفروشة كلها بالرخام الملون .

وكان المنبر من خشب الصندل المذهب ، وفى كل « بائكة » من « البوائك » التى تحيط بالصحن ثلاثة قناديل توقد بالزيت ، وقنديل من النحاس المحلى بزجاج مختلف ألوانه .

وكان بالرواق المقابل للمحراب — زيادة عن القناديل — مصباح كبير الحجم فى وسط كل منطقة من المناطق المحصورة بين « الطيات » والمربعات الكبيرة .

مسجد هذا مجده ، وهذا عزه ، جدير بأن يعود سيرته الأولى .

اثر المسجد الثقافى

لم تكن مهمة المسجد أداء الصلاة فيه فحسب ، بل كان منتدى يجتمع فيه المسلمون يتدارسون ، ويتناقشون فى أمور دينهم ودنياهم ... وخطبة عمرو السابقة أكبر دليل على ذلك .

كان المسجد مدرسة كبرى ، يتلقى فيها الطلاب العلوم الدينية من فقه وتفسير وحديث ، والعلوم اللغوية من نحو وبلاغة وأدب وتاريخ اسلامى وغير ذلك من العلوم المفيدة .

وكان مجلسا للقضاء والحكم بين الناس ، وكانت الزيادة البحرية الشرقية مجلسا لقاضى القضاة يجلس فيها يومين فى الأسبوع ليحكم بين الناس .

وفى عام ٣٨ للهجرة جلس فيه سليمان بن عتر ليعظ الناس بالقصص الدينية ، وكان قد جمع له القضاء والقصص ، ثم عزل عن القضاء ومنذ ذلك التاريخ ظل المسجد مركزا ثقافيا ومحكمة للقضاء .

وكان بالمسجد زوايا لتدريس العلم ، وقف الخيرون عليها أموالا كثيرة ، فكثرت المناظرات العلمية ، ومطارحة الشعر . وظهر التنافس بين العلماء والتلاميذ ، وخاصة بين المذاهب الفقهية .

وقد سجل المقريزى بعض حالة المسجد العلمية فقال :

« كانت هناك زاوية الشافعى يدرس بها الامام رضى الله عنه فعرفت به ، وعليها أرض بناحية « سندبيس » وقفها السلطان العزيز بالله عثمان ابن الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب وقد تولى التدريس بها أعيان الفقهاء وجلة العلماء ...

« والزاوية المجدية — بصدر المسجد بين المحراب الكبير ومحراب الخمس ، داخل المقصورة الوسطى — رتبها مجد الدين بن أبى الأشبال الحارث بن مهذب الدين أبى المحاسن وزير الأشراف ، وقرر التدريس بها قريبه قاضى القضاة وجيه الدين عبد الوهاب البهنس ، وعمل على هذه الزاوية عدة أوقاف بمصر والقاهرة . وبعد تدريسها من المناصب الجليلة ...

« والزاوية الصاحبية ، حول « عرفة » ؛ رتبها الصاحب تاج الدين محمد بن فخر الدين محمد ابن بهاء الدين ، وجعل لها مدرسين : أحدهما مالكى ، والآخر شافعى ، وجعل عليها وقفا بظاهر القاهرة بخط البرادعيين ...

« والزاوية الكمالية — بالمقصورة المجاورة لباب الجامع الذى يدخل اليه من سوق الغزل — رتبها كمال الدين السمنودى ، وعليها فندق بمصر موقوف عليها ...

« والزاوية الناجية — أمام المحراب الخشب — رتبها تاج الدين السطحى ، وجعل عليها دورا بمصر موقوفا عليها ...

« والزاوية الزينية : رتبها زين الدين للقراءة . ذكر ذلك ابن المتوج ...

« وقد أدرك بالمسجد محمد بن عبد الرحمن الحنفى قبل وباء عام ٧٤٩ للهجرة بضعا وأربعين حلقة لاقراء العلم ، لاتكاد تبرح منه » .

ويقول ابن المأمون قاضى المالكية : « ان من جملة الحدم ما كان يصنع ثمانية عشر ألف فتيلة للاضاءة ، وكان الوقود أحد عشر قنطارا ونصفا زيتا طيبا ...

« ولما وفد محمد بن جرير الطبرى على مصر ، بان فضله فى القرآن والفقه والحديث واللغة والنحو والشعر ، فلقيه أبو الحسن بن سراج ، فوجده فاضلا بارعا فى كل ما يذاكره من العلم ، ويجيب عنه ، حتى سأله عن الشعر فرآه فاضلا بارعا فيه ، يحفظ الكثير منه ، فسئل أن يمليه ، فاستجاب وجلس بجامع عمرو لاملائه » .

لقد كان المسجد آنذاك منتعشا عامرا بالمعلمين والعلماء وغيرهم وبعد أن توسعت مدينة القاهرة ، وبنيت فيها المساجد الكثيرة ، انتقل اليها المشتغلون بالدرس والتحصيل ، وترك الناس الفسطاط ومسجدها العتيق .

ابراهيم محمد الجمل

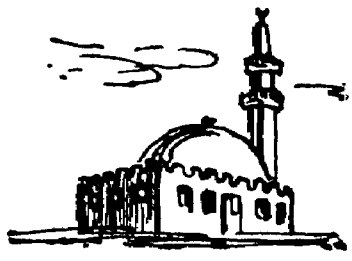

الجامع الأزهر

أنشىء أول ما أنشىء ليكون مسجدا جامعا ، ثم بدأت فيه الدراسة بعد انشائه بعدة أعوام ، فصار مسجدا ومعهدا معا ، ثم أقبل عليه العلماء وطلاب العلم من شتى أنحاء العالم الاسلامى ، فصار جامعة تدرس فيها علوم الدين والدنيا . ثم امتحن العرب والمسلمون بالغزو التترى والاستعمار الأوربى ، فكان منبر ثورة ، وحصن مقاومة ، ومقر قيادة ... ثم هو من قبل ومن بعد القلعة التى قامت على حراسة علوم الدين واللغة حتى الآن ، وبعد أن عمرت أكثر من ألف عام .

ذلكم هو الأزهر الذى أنشأه جوهر الصقلى عام ٣٥٩ للهجرة (٩٧٠ م) ، بأمر الخليفة المعز لدين الله الفاطمى . ولم يكن انشاؤه فى قلب القاهرة استجابة لرغبة طارئة أو فكرة عابرة ، وانما كان تنفيذا لخطة مرسومة وسياسة موضوعة جرى عليها الخلفاء والولاة والقواد المسلمون فيما كانوا ينشئون من مدائن وأمصار ... فحيث كان يراد انشاء مدينة كان المسجد الجامع يحتل مكان القلب منها .

كذلك أنشئت مدينة الفسطاط ، فكان جامع عمرو حجر الأساس فيها ، ثم كان ما يحيط به خططا للقبائل المختلفة ، تقيم كل قبيلة فى الخطة المخصصة لها مساكنها ومتاجرها . وكذلك أنشئت مدينة العسكر — بعد أن دالت دولة الأمويين وقامت دولة العباسيين — فكان جامع العسكر كذلك حجر الأساس فيها . وكذلك أنشئت مدينة القطائع فى عهد الدولة الطولونية ، فكان جامع ابن طولون فى مكان القلب منها أو حجر الأساس فيها ... ثم كان انشاء القاهرة بعد ذلك ، فكان الجامع الأزهر كذلك .

من بعيد

وهذه الخطة سنة كانت متبعة فى كثير من المدن التى قام بانشائها الخلفاء والولاة والقواد المسلمون . فاننا نجدها فى البصرة والكوفة وفى كثير من مدن الشام . ويرى بعض المؤرخين أن هذه السياسة أو الخطة ترجع الى عهد عمر رضى الله عنه ، بدليل ما كان يكتبه الى الولاة — ومنهم عمرو بن العاص — فى هذا الشأن .

ولكن مد النظر الى ما قبل عهد عمر يرينا أن هذه الخطة ترجع الى أبعد من هذا العهد قرونا وأجيالا ... فقد كان أول بناء أنشىء فى مكة هو بيت الله الحرام ، كما يقول سبحانه : « ان أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا وهدى للعالمين » . ثم كانت أول قبيلة نزحت اليه ، واستقرت عنده ، هى « جرهم » ، ثم تبعتها ولحقت بها قبائل أخرى ، فأقامت حول هذا البيت العتيق ، وأقامت حوله منازلها ومتاجرها ... فكانت مكة ، وكان بيت الله فى مكان القلب منها ، يحج اليه الناس من كل صوب وحدب « رجالا وعلى كل ضامر ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله على ما رزقهم » .

فليس من البعيد — بل من المحتمل القريب — أن يرى المسلمون فى هذه المدينة

نموذجا لما ينشئون من مدن وأمصار . ولعل مما يرجح ذلك أو يؤكده ما نجده فى الفقه الاسلامى ... فان مذهب الامام مالك يشترط لصحة الجمعة أن تكون فى المسجد الجامع ، ويشترط فى المسجد الجامع أن يكون داخل البلدة أو قريبا منها بحيث يمكن أن يصل اليه دخانها ، كما يشترط لصحة الجمعة فيه أن يكون مبنيا ، وأن يكون بناؤه على الأقل مساويا للبناء المعتاد لأهل البلد .

وهذا التفكير يلقى الضوء على هذه الخطة ، ويمكن أن نرى فيه التفسير لهذا النظام المعمارى ، ومدى أهمية المسجد الجامع فى كل مدينة اسلامية ... ولا يقلل من أهمية هذا الاتجاه أن بعض المذاهب الأخرى لم تشترط المسجد الجامع ، فانها مع ذلك تشترط لصحة صلاة الجمعة ، أن تكون فى المصر أو فى الأبنية المجتمعة أو قريبا منها . ولا شك أن الأمثل والأفضل ، مع هذا ، أن تكون فى المسجد الجامع .

ونخلص من هذه الاعتبارات والظواهر كلها بأن الأزهر أنشىء ، أول ما أنشىء ، ليكون مسجدا جامعا . ولم يكن أساس التفكير فى انشائه أن يكون معهدا لدراسة المذهب الشيعى كما اشتهر وشاع وذاع ... ذلك لأن الدراسة فيه لم تبدأ الا بعد انشائه بثلاثة أعوام ونصف العام تقريبا ، وأنها بدأت بداية متواضعة لا تدل على أن هذه المؤسسة أنشئت لتكون مدرسة ... فقد كان عدد الفقهاء الذين يحضرون الدروس فيه لا يبلغ أربعين ، بل كان على التحديد سبعة وثلاثين ، ثم ان هؤلاء مع هذا لم يكونوا يتلقون الدروس كل أيام الأسبوع ، بل كان درسهم يبدأ بعد صلاة الجمعة الى صلاة العصر من كل أسبوع .

فاذا أضفنا الى هذا كله أن الحاكم بأمر الله أنشأ جامعة أخرى عام ٣٩٥ للهجرة (١٠٠٥ م) وأنفق عليها وأغدق بسخاء ، وعين للاشراف عليها داعى الدعاة ، لينظم دراسة المذهب الفاطمى فيها ، ويوجه نشاطها السرى ... واذا وضعنا فى اعتبارنا وتقديرنا أن هذه الجامعة التى عرفت باسم « دار الحكمة » قد ظفرت من العناية والاهتمام بما لم يظفر به الأزهر وطلابه وعلماؤه وقتذاك ، وأنها زودت بمكتبة لم تعرف مصر — بعد مكتبة الاسكندرية — أضخم منها ، كما يذكر المؤرخون ، وأنه رحل اليها وتخرج فيها كثير من علماء الشيعة ، ومنهم الحسن بن الصباح مؤسس طائفة الاسماعيلية ، وناصرى خسرو الرحالة الفارسى المشهور ... كان من المجازفة الحكم بأن الأزهر أنشىء أول ما أنشىء ليكون معهدا شيعيا ، وبأن الفكرة الأولى فى انشائه هى تنظيم الدعوة لمذهب هذه الدولة .

صحيح أن الأزهر كان موضع العناية والحفاوة من الخلفاء الفاطميين كما سنرى ، وأنه لم يدرس فيه بادىء الأمر غير الفقه الشيعى ، بل لقد حظرت دراسة غيره من الفقه السنى ، حتى لقد جلد رجل عام ٣٨١ للهجرة لمجرد أنه وجد معه كتاب « الموطأ » للامام مالك ... الا أن هذا كله لا يعنى أنه أسس ليكون من أول أمره مدرسة ، وان صار فيما بعد أعظم من مدرسة .

جامع القاهرة

لقد تم بناء القاهرة فى منتصف عام ٣٦٠ للهجرة . وبعد ذلك بعام تم بناء مسجدها الجامع ، وافتتح للصلاة فى اليوم السابع من شهر رمضان عام ٣٦١ للهجرة (٩٧٢ م) . وكانت القاهرة حينذاك تتكون من قصرين ألحقت بهما عدة قصور : أحدهما يعرف بالقصر الشرقى

الفاطمى الكبير ، والثانى فى الجهة المقابلة له ويعرف بالقصر الصغير ، وبينهما ميدان واسع يتصل به جامع القاهرة ويطل عليه .

وقد أقيم فى هذا الميدان بعد ذلك المشهد الحسينى . ثم كانت الخطط المخصصة للقبائل وأشياع الدولة تقع خلف هذه الأبنية فى الأماكن التى تعرف الآن بالباطنية ، والحسينية ، وباب الشعرية ، والموسكى حتى شارع الخليج ، والسكة الجديدة والغورية ، وحارة الروم وما يتصل بها ، ودرب سعادة حتى باب الخلق (ميدان أحمد ماهر) ، ثم يحيط بهذه المدينة وملحقاتها سور جعل منها قلعة منيعة وحصنا حصينا ، فلا يمكن الدخول اليها والخروج منها الا من أبواب ضخمة : باب زويلة (بوابة المتولى) من الجنوب ، وباب الفتوح وباب النصر من الشمال ، وباب البرقية والباب المحروق من الشرق ، وباب سعادة من الغرب .

وكان اسم هذا المسجد « جامع القاهرة » ، ثم عرفت القصور الفاطمية باسم القصور الزاهرة ، تيمنا بلقب فاطمة الزهراء ، فأطلق عليه هو الآخر اسم الأزهر تبعا لذلك ، أو تيمنا بأن أيامه ستكون مضيئة زاهرة كما قيل . وقد اندرس كثير من آثار تلك القصور ، وانطمست معالمها ، وبقى الأزهر كما كان ، وأضخم مما كان ، يطوى الليالى والأيام ، ويفنى القرون والعصور حتى قال فيه شوقى :

يا معهدا أفنى القرون جداره
وطوى الليالى ركنه والأعصرا

ومشى على يبس المشارق نوره
وأضاء أبيض لجها والأحمرا

وأتى الزمان عليه يحمى سنة
ويذود عن نسك ويمنع مشعرا

ثم يقول :

ما ضرنى أن ليس أفقك مطلعى
وعلى كواكبه تعلمت السرى

عناية الخلفاء

لقد كان هذا المسجد موضع عناية الخلفاء الفاطميين واهتمامهم . فكانت تلقى فيه الخطب الرسمية الثلاث فى جمع رمضان ، ثم بعد انشاء الجامع الحاكمى كانت تلقى فيه الخطبة الثانية ، ثم تلقى الثالثة فى جامع عمرو . ويصف المؤرخون موكب الخليفة ، فى طريقه الى الصلاة فيه وعودته منها ، وصفا يستشف منه مدى البذخ والرخاء والثراء الذى كانت تتمتع به هذه الدولة ، فليرجع اليه من شاء فى خطط المقريزى .

وكان الأزهر المركز الرئيسى أو الأساسى للمحتسب ، وعمله هو الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ويعاونه فى ذلك نواب ينبثون فى أنحاء البلاد ، فيتلقون أوامره ويعملون بتوجيهه ، ويرجعون اليه فيما يعضل أو يشكل عليهم من أمور .

ثم كان الاحتفال بالمولد النبوى يقام فيه ، فكان القاضى يركب فى الثانى عشر من شهر ربيع الأول ومعه الشهود الى الجامع الأزهر ، ومعهم — كما جاء فى صبح الأعشى — أرباب تفرقة صوانى الحلوى التى أعدت بالقصر لتفرق فى أرباب الرسوم : كقاضى القضاة ، وداعى الدعاة ، وقراء الحضرة ، والخطباء ، وغيرهم . ثم يأخذون مجلسهم فى الجامع ، ويمكثون هناك مقدار قراءة الختمة ، وبعد ذلك يعودون فى موكبهم الى القصر ، وينتظرون تحت المنظرة التى يجلس الخليفة فيها — وكانت تجاه الأزهر — ثم تفتح احدى طاقات المنظرة ، ويبدو فيها وجه الخليفة . ثم يخرج أحد الأستاذين المحنكين

يده ، ويشير بكمه بأن الخليفة يرد عليكم السلام ، فيقرأ القراء الفاتحة ، ويخطب الخطباء بترتيب معلوم .. فاذا انتهى الحفل أخرج الأستاذ يده مشيرا برد السلام كما تقدم ، ثم تغلق الطاقة ، وينصرف الناس .

يوم عاشوراء

وكان ليوم عاشوراء كذلك احتفال رهيب يشترك الأزهر بنصيب كبير فيه . فاذا كان يوم العاشر من المحرم ركب قاضى القضاة والشهود الى الجامع الأزهر ، وهم يرتدون ثياب الحداد ، وساروا فى جمع من الأمراء والوجهاء والعلماء والقراء ، حتى ينتهى بهم السير داخل الأزهر .

ثم يأتى الوزير فيجلس فى مكان الصدارة والى جانبيه قاضى القضاة وداعى الدعاة ، ثم ترتفع أصوات القراء بتلاوة القرآن . وبعد ذلك ينهض الشعراء لالقاء قصائدهم فى رثاء الحسين والحسن ، رضى الله عنهما ، وآل البيت ، ويسمع خلال ذلك البكاء والعويل .

ثم ينتهى الحفل ، فيتوجه الوزير الى داره ، ويذهب القوم الى القصر الفاطمى ، حيث تكون أروقته قد فرشت بالحصر ، فيجدون صاحب الباب ينتظرهم ، ثم يجلس القاضى والداعى الى جانبه ، ويجلس الناس على اختلاف منازلهم ومراتبهم ، وتتكرر الصورة التى عرفناها فى الأزهر ، فيقرأ القراء وينشد الشعراء ، ثم يمد سماط الحزن وقت الظهر ... وليس فيه سوى العدس والألبان والأجبان الساذجة والأعسال النحل ، والخبز الأسمر ، ويدخل من شاء لتناول الطعام . فاذا انتهى القوم الصرفوا الى دورهم ، ويعم الحزن والنواح القاهرة فى ذلك اليوم ، وتعطل الأسواق ، ويعتكف الناس حتى العصر ، ثم تفتح الأسواق ، وتسترد القاهرة شيئا من نشاطها ومظهرها العادى[1] .

ليالى الوقود

وكانت ليالى الوقود — وهى ليلة أول رجب ، وليلة نصفه ، وليلة أول شعبان ، وليلة نصفه — من أبهج ليالى القاهرة فى عهد الفاطميين . فكان الأزهر يبدو فيها أبدع ما يكون زينة ومظهرا ، اذ تتألق الشموع والمشاعل فى جوانبه وعلى حافات جدرانه ، وتوقد فيه التنانير ، فيظهر كأنه شعلة من نور . وبعد صلاة المغرب تبدأ المواكب سيرها اليه من كل صوب وحدب ، ثم تلتقى مع الموكب الرسمى فى الميدان الذى كان يفصل بين القصرين وما ألحق بهما من قصور .

وهناك ينتظر الجميع أمام باب « الزمرد » ريثما يطل عليهم الخليفة من احدى طاقات المنظرة الخلافية . فاذا رأوا طلعته ، وتلقوا تحيته ، تحركوا خلف الموكب الرسمى بتقدمه القاضى محاطا بالقراء والمؤذنين . وتمضى هذه الجموع ، تحف بها المشاعل والشموع ، حتى تنتهى الى الأزهر . وهناك ينعقد فى صحنه مجلس مؤلف من القضاة والعلماء والوجهاء برياسة قاضى القضاة ، ويجلس بين يديه القراء والمنشدون والناحة حتى منتصف الليل . وفى خلال ذلك أو بعده توزع الحلوى والأطعمة على الحاضرين ، وتعبق رائحة البخور فى جو المجلس وأنحاء الأزهر ... فان الخليفة يبعث فى هذه المناسبة بسلال كثيرة مملوءة بهذه الألوان من الحلوى والطعام . ثم ينفض الاجتماع ، وتتكرر هذه الصورة تقريبا فى كل ليلة من ليالى الوقود[2] .

---

(١) « الازهر فى الف عام » تأليف الاستاذ محمد عبد المنعم خفاجى ، نقلا عن المقريزى .

(٢) خطط المقريزى والنجوم الزاهرة بتصرف .

مجلس الحكمة

ويذكر التاريخ كذلك أن الأزهر كان يعقد فيه مجلس من مجالس الحكمة التى أنشأها الفاطميون لدراسة الدعوة الفاطمية . فكان يعقد فيه مجلس للنساء ، كما كان يعقد فى القصر الفاطمى مجلس للرجال . وكان داعى الدعاة يشرف بنفسه على هذه المجالس ، أو يكل الى نوابه ونقبائه الاشراف عليها . وقد أحيطت الدراسة فى هذه المجالس بكثير من التحفظ والاحتياط ، ثم تحولت الى خلايا سرية تتكون من الخاصة ... ومعنى هـذا أن الدعوة الفاطمية كانت تلقى لعامة الناس مبادىء وأصولا عامة ، ثم يستخلص الدعاة الخاصة ، ويرتفعون بهم درجة بعد درجة ومرتبة بعد مرتبة حتى يصلوا بهم الى مراتبها وأسرارها العليـا ... كما تذكر كتب التاريخ والأدب مثل « الخطط » وصبح الأعشى وغيرهما .

ومعنى هذا أيضا أن انشاء دار الحكمة وتسميتها بهذا الاسم ، كان نهاية التصميم والتنظيم لانشاء جامعة تضم مجالس الحكمة ، وتتمحض لدراسة الدعوة الشيعية والمذهب الفاطمى دراسة تخصص وعمق ، وهذا يرجح ما ذهبنا اليه من أن الأزهر لم يكن الغرض الأول من انشائه قيام جامعة شيعية ، وانما كان قيام مسجد جامع يتمتع بكل ما كان يتمتع به المسجد الجامع من ميزات رسمية ... وما كان أكثرها فى عهود المجد الاسلامى .

على أن المذهب الشيعى من قبل ومن بعد هو مذهب اسلامى له فلسفته ، وله فقهه ، وله كثير من الأتباع والأشياع يجتمعون عليه ويعملون به . وقد بذلت ، ولا تزال تبذل ، المحاولات للتقريب بين المذاهب الاسلامية المختلفة ، وجمع المسلمين على كلمة سـواء . وكان آخر هـذه المحاولات والمساعى ما قامت به وزارة الأوقاف فى الجمهورية العربية المتحدة من طبع كتاب « المختصر النافع » فى الفقه الشيعى ، وتوزيعه بالمجان على مختلف الأفراد والبيئات والهيئات العلمية . ومنذ عدة أعوام أنشئت « دار التقريب » لهذا الغرض ، وأصدرت ولا تزال تصدر مجلة لخدمة هذه الغاية ، ولا شك أن جهودها فى هذا السبيل ستثمر خيرا كثيرا اذا سلمت النيـات ، وصدقت العـزائم ، وتوافر الاخلاص .

مسجد ومعهد

بدأت الدراسة فى هذا المسجد بداية متواضعة كما قدمنا ... فكانت أول عهـدها به وعهده بها حلقـات يعقدها أبو الحسن على بن النعمان القيروانى ، ويدرس فيها كتاب «الاقتصار» لوالده أبى حنيفة النعمان بن محمد القيروانى . وكانت هذه الحلقات تعقد فى أوقات غير منتظمة . ثم تولى من بعده بنو النعمان دراسة الفقه الفاطمى والقضاء فى مصر حتى نهـاية القرن الرابع للهجرة ، فكان يدرس مع هذا الكتاب كتب أخرى فى فقه الشيعة للنعمان القـيروانى أيضا : مثل كتاب « دعـائم الاسلام » ، وكتاب « اختلاف الأصول » ، وكتاب « الأخبار » ، وكتاب « اختلاف الفقهاء » .

أما الدراسة المنتظمة فقد بدأها — على ما يذكر المؤرخون — الوزير أبو الفرج يعقوب بن كلس . فقد عين بأمر الخليفة سبعة وثلاثين فقيها يحضرون مجلسه ودرسه عقب صلاة الجمعة من كل أسبوع حتى أذان العصر . وقد وسع عليهم من ماله ، وأقام لهم مسكنا بجوار الأزهر يصـح أن نعتبره أول رواق أنشىء لطلبة العلم فيه ، فقـد أنشئت حول الأزهر بعـد ذلك عدة أروقة لاقامة الطـلاب ، وحبست عليها أوقاف كثيرة ، حتى بلغ عددها تسعة وعشرين رواقا ، كما يذكر كتاب « الأزهر » لفضيلة المرحوم الأستاذ الشيخ محمود أبو العيون .

الجامع ... والجامعة

ولم يقف النشاط العلمى فى هذا المسجد أو المعهد عند الحد الذى ذكرناه... بل اطرد تقدمه ، وتنوعت موضوعاته ، وكثرت فنونه وعلومه ، حتى أصبح الأزهر جامعة بمعنى الكلمة ، بل أصبح قبلة العلماء المتبحرين ، والفلاسفة الممتازين ... فكان من علمائه رجال القانون الشرعى أمثال القاضى على بن ميمون المتوفى عام ٣٧٤ للهجرة (٩٨٤ م) ، وأخيه القاضى محمد المتوفى فى عام ٣٨٩ للهجرة (٩٩٨ م) وكان منهم المؤرخون أمثال الحسن بن زولاق المتوفى فى عام ٣٧٨ للهجرة (٩٨٨ م) ، والفلكيون أمثال المسبحى المتوفى فى عام ٤٣٠ للهجرة (١٠٣٨ م) ، والنحويون أمثال الحوفى المتوفى فى العام ذاته ، وأبى العباس أحمد بن هاشم المصرى المتوفى فى عام ٤٤٥ للهجرة ، وابن بابشاذ المتوفى فى عام ٤٦٩ للهجرة

ويرى فضيلة المرحوم الدكتور محمد عبد الله دراز فى أسماء هؤلاء العلماء ، وغيرهم ممن لم نذكر أسماءهم — وما أكثرهم — الدليل الذى لايدع مجالا للشك على أن الأزهر ، فى هذا العصر، أصبح جامعة متنوعة الدراسات ثم يقول فى مقال طلبته وزارة الخارجية المصرية لينشر فى جريدة « الموند » الباريسية فى عدد خاص بمصر لمناسبة انعقاد الدورة السادسة لجمعية الأمم المتحدة فى ديسمبر من عام ١٩٥١ ويناير من عام ١٩٥٢ : « وكلنا نعلم مبلغ اهتمام الفاطميين بالعلوم الرياضية والطبية والفلكية والجغرافية ... مما يرجح فى نظرنا أن هذه العلوم كانت موضوع دراسة فى الأزهر أيضا » . وقد نشرت ترجمة هذا المقال باللغة العربية فى مجلة الأزهر عام ١٣٧١ للهجرة .

ويذكر الأستاذ محمد عبد المنعم خفاجى فى كتابه « الأزهر فى ألف عام » بعد أن نقل عن المقريزى

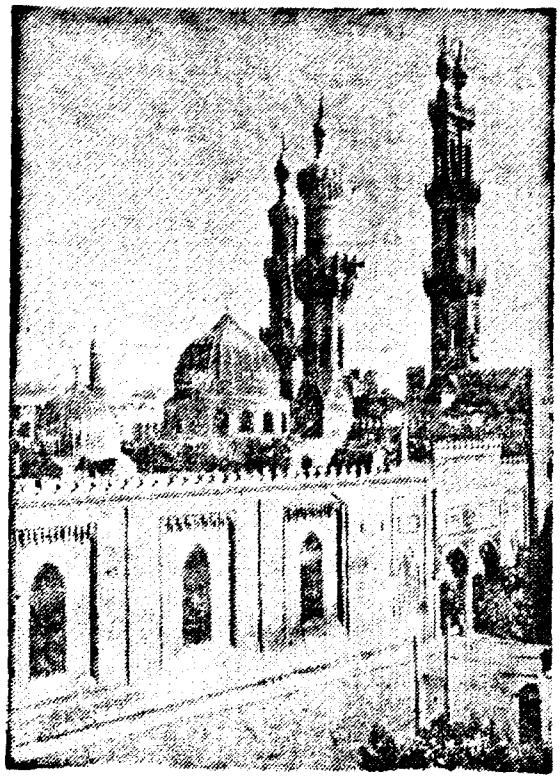

منظر خارجى للجامع الازهر

أن ممن كانوا يلقون محاضرات بالأزهر المؤيد الشيرازى : « ان للشيرازى محاضرات فى الأزهر ناظر فيها أبا العلاء المعرى ، وله مؤلفات أخرى عدا سيرته وديوانه ومحاضراته ، منها كتاب « الابتداء والانتهاء » ، وكتاب « المسألة والجواب » ، وكتاب « نهج العبادة » ، و « شرح المعاد » ، و « المسائل السبعون » ، و « نهج الهداية للمهتدين » ، و « أساس التأويل » بالفارسية ، و « السبح السبع » ، و « الايضاح والتبصير فى فضل يوم القدير » و « تأويل الأرواح » ، و« المجالس المستنصرية » .

وقد كان الشيرازى شاعرا مع ذلك ، وأسند اليه منصب داعى الدعاة ومما يذكر أنه حين قدم الى مصر احتجب عنه الخليفة المستنصر لأمر ما ، فكتب اليه الشيرازى يقول :

أقســـم لو أنـك توجتنى
بتـــاج كسرى ملك المشرق
وأنلتنى كـل أمور الـورى
من قد مضى منهم ومن قد بقى
وقلت أن لا نلتقى ســـاعة
أجبت يامولاى أن نلتـــقى
لأن ابعـــادك لى ســـاعة
شـيب فودى مع المفـــرق

وقد رد عليه المستنصر بخط يده يقول :

ياحجة مشـــهورة فى الورى
وطـود علم أعجـــز المرتقى
ما غلقت دونـك أبوابنـــا
الا لأمـــر مؤلم مقـــلق
ولا حجبنـــاك ملالا فثـق
بودنا وارجـع الى الأليـق
خفنا على قلبـك من سـمعه
فصـــدنا صـــد أب مشفق
شيعتنا قد عدموا رشـــدهم
فى الغـرب ياصاح وفى المشرق
فانشر لهـم ما شئت من علمنا
وكن لهم كالوالد المشـــفق
ان كنت فى دعوتنا آخـــرا
فقـد تجاوزت مدى السـبق
مثلك لا يوجـــد فيمن مضى
من سائر النـاس ، ولا من بقى

أول وقفية

ومن مظاهـر العناية الفاطمية بالأزهـر ، هذه الوثيقة بأول وقفية عرفت فى تاريخ هـذا المسجد أو المعهد أو الجامعة . وهى وان كانت تشتمل على مسميات لا وجود لها الآن : كالتنانير والسواقى والبقر والعلف وما الى ذلك ... الا أنها ذات قيمة تاريخية كبرى من عدة وجوه تتصل بتاريخ الأزهر وتاريخ القاهرة معا . وهذا هو نص الاشهاد الشرعى بها نذكره دون تحوير أو تغيير ، كما وجدناه فى عدة مراجع :

« هذا كتاب أشهد قاضى القضاة ، مالك بن سعيد ابن مالك الفارقى ، على جميع ما نسب اليه مما ذكر ووصف فيه ، من حضر من الشهود فى مجلس حكمه وقضـائه بفسطاط مصر ، فى شـهر رمضان سنة أربعمائة ... أشهدهم — وهو يومئذ قاضى عبد الله ووليه المنصور أبى على الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين ابن الامام العزيز بالله صلوات الله عليهما ، على القاهـرة المعزية ومصر والاسكندرية والحرمين حرسهما الله ، وأجناد الشـام والرقة والرحبـة ، ونواحى المغـرب وسائر أعمالهن ، وما فتحه الله ويفتحه لأمير المؤمنين من بلاد الشرق والغـرب ، بمحضر رجل متكلم — أنه صحت عنده معـرفة المواضع الكاملة ، والحصص الشائعة التى يذكر جميع ذلك ويحدد هذا الكتاب ، وأنها كانت من أملاك الحاكم الى أن حبسها على الجامع الأزهر بالقاهرة المحروسة ، والجامع براشدة ، والجامع بالمقس اللذين أمر بانشائهما وتأسيس بنائهما ، وعلى دار الحكمة بالقاهرة المحروسة التى وقفها والكتب التى فيها قبل هذا الكتاب ... منها ما يخص الجامع الأزهر ، والجامع براشدة ، ودار الحكمة بالقاهرة المحروسة — مشاعا جميع ذلك غير مقسـوم — ومنها ما يخص الجامع بالمقس على شرائط يجرى ذكرها ...

« فمن ذلك ما تصدق به على الجامع الأزهـر بالقاهرة المحروسة والجامع براشدة ، ودار الحكمة بالقاهرة المحروسة : جميع الدار المعـروفة بدار الضرب ، وجميع القيسارية المعروفة بقيسارية

الصــوف ، وجميع الدار المعروفة بدار الخــرق الجديدة ... الذى كله بفسطاط مصر . ومن ذلك ما تصدق به على جامع المقس جميع أربعة الحوانيت والمنــازل التى علوها والمخزنين ، الذى كان كله بفسطاط مصر بالراية فى جانب الغــرب من الدار المعروفة كانت بدار الخــرق ... وهاتان الداران المعروفتان بدار الخرق فى الموضع المعروف بحمام الفار ...

« ومن ذلك : جميع الحصص الشائعة من أربعة الحوانيت المتلاصقة التى بفسطاط مصر بالراية أيضا ، بالموضع المعروف بحمام الفار ، وتعرف هذه الحوانيت بحصص القيس بحدود ذلك كله وأرضه وبنائه وسفله وعلوه وغرفه ومرتفعاته وحــوانيته وساحاته ، وطرقه وممراته ومجارى مياهه ، وكل حق هو له داخل فيه وخارج عنه . وجعل ذلك كله صدقة موقوفة محرمة محبسة بتة ، لا يجوز بيعها ولا هبتها ولا تمليكها ، باقية على شروطها جارية على سبلها المعروفة فى هذا الكتاب ... لا يوهنها تقادم السنين ، ولا تغير بحدوث حــدث ، ولا يستثنى فيها ولا يتــأول ، ولا يستفتى بتجــدد تحبيسها مدى الأوقات . وتستمر شروطهــا على اختــــلاف الحــــالات حتى يرث الله الأرض والسماوات ... على أن يؤجر ذلك فى كل عصر من ينتهى اليه ولايتها ، ويرجع اليه أمرها بعد مراقبة الله ، واجتلاب ما يوفر منفعتها من اشهارها عند ذوى الرغبة فى اجارة أمثــالها ، فيبتدأ من ذلك بعمارة ذلك على حسب المصلحة وبقاء العين ومرمته من غير اجحاف بما حبس ذلك عليه ، وما فضل كان مقسوما على ستين سهما ...

ما يخص الأزهر

« من ذلك للجامع الأزهر بالقاهرة المحروسة ، المذكور فى هذا الاشهاد ، الخمس والثمن ونصف السدس ونصف التسع ، يصرف ذلك فيمــا فيه عمارته ومصلحته ، وهو من العين المعزى الوازن ألف دينار واحدة وسبعة وستون دينارا ونصف دينــار وثمن دينار . ومن ذلك : للخطيب بهذا الجــامع ، أربعة وثمانون دينارا . ومن ذلك : لثمن ألف ذراع حصر عبدانية تكون عــدة له . بحيث لا ينقطع من حصره عند الحاجة الى ذلك . ومن ذلك : لثمــن ثلاثة عشر ألف ذراع حصر مظفورة ، لكسوة هذا الجامع فى كل سنة عند الحاجة اليها ، مائة دينار واحدة وثمانية دنانير . ومن ذلك : لثمن ثلاثة قناصر زجاج وفراخهــا ، اثنا عشر دينارا ونصف وربع دينار . ومن ذلك : لثمن عود هنــدى للبخور فى شهر رمضان وأيام الجمــع ، مع ثمن الكافــور والمسك وأجــرة الصانع ، خمسة عشر دينارا . ومن ذلك : لنصف قنطار شمع بالفلفلى ، سبعة دنانير . ومن ذلك : لكنس هذا الجامع ، ونقــل التراب ، وخيــاطة الحصر وثمن الخيط ، وأجــرة الخياطة ، خمسة دنانير . ومن ذلك : لثمن مشاقة لسرج القناديل ، عن خمسة وعشرين رطلا بالرطل الفلفلى ، دينار واحد . ومن ذلك : لثمن فحم للبخور من قنطار واحد بالفلفلى ، نصف دينار . ومن ذلك : لثمن أردبين ملحا للقناديل ، ربع دينــار . ومن ذلك : ما قدر لمؤونة الناس والسلاسل والتنانير والقباب التى فوق سطح الجامع ، أربعة وعشرون دينارا . ومن ذلك : لثمن سلب ليف ، وأربعــة أحبــل وست دلاء أدم ، نصف دينار . ومن ذلك : لثمن قنطارين خــرقا لمسح القناديل ، نصف دينــار . ومن ذلك : لثمن عشر قفاف للخدمة وعشرة أرطال قنب لتعليق القنــــاديل ، ولثمن مائتى مكنسة لكنس هــذا الجامع ، دينار واحد وربع دينار . ومن ذلك : لثمن أزيار فخار تنصب على المصنع ،

ويصب فيها الماء ، مع أجرة حملها ، ثلاثة دنانير ومن ذلك لثمن وقود هذا الجامع — راتب السنة ألف رطل ومائتا رطل — مع أجرة الحمل ، سبعة وثلاثون دينارا ونصف ومن ذلك : لأرزاق المصلين — يعنى الأئمة وهم ثلاثة ، وأربعة قومة ، وخمسة عشر مؤذنا — خمسمائة دينار وستة وخمسون دينارا ونصف ، منها للمصلين ، ولكل رجل منهم ، ديناران وثلثا دينار فى كل من شهور السنة والمؤذنون والقومة ، ولكل رجل منهم ، ديناران فى كل شهر ومن ذلك . للمشرف على هذا الجامع فى كل سنة ، أربعة وعشرون دينارا . ومن ذلك : لكنس المصنع بهذا الجامع ، ونقل ما يخرج منه من الطين والوسخ ، دينار واحد ومن ذلك لمرمة ما يحتاج اليه فى هذا الجامع ، فى سطحه وأترابه وحياطته ، وغير ذلك مما قدم ، لكل سنة ستون دينارا . ومن ذلك . لثمن مائة وثمانين حمل تبن ونصف حمل ، جارية لعلف رأسى بقر للمصنع الذى لهذا الجامع ، ثمانية دنانير ونصف وثلث دينار ومن ذلك للتبن لمخزن يوضع فيه بالقاهرة ، أربعة دنانير ومن ذلك . لثمن فدانين قرط ، لتربيع رأسى البقر المذكورين فى السنة ، سبعة دنانير ومن ذلك لأجرة متولى العلف ، وأجرة السقاء والحبال والقوادس ، وما يجرى مجرى ذلك ، خمسة عشر دينارا ونصف ومن ذلك لأجرة قيم الميضأة — ان عملت بهذا الجامع — اثنا عشر دينارا » .

عمارة المسجد

وهكذا نجد عمارة هذا المسجد قد حظيت فى هذا العصر بما ننم عنه هذه الوثيقة ... بل انه لم يتخل عن الاهتمام بعمارته الخلفاء طيلة هذا العهد فقد جدد فيه العزيز بالله ابو منصور نزار بن المعز لدين الله ، ثم جاء بعده الحاكم بأمر الله فجدده وزوده بمجموعه من الثنانير الفضية ، ووقف عليه هذه الوقفيه التى ذكرناها ... ثم جاء المستنصر فجدد فيه كذلك ، كما جدده الحافظ لدين الله ، وأنشأ فيه مقصورة لطيفة تجاور الباب الغربى فى مقدمه ، بداخل الرواقات ، وقد عرفت باسم مقصورة فاطمة ، لأن فاطمة الزهراء — كما قيل — رؤيت فيها

ونقف فى الحديث عن عمارة الأزهر عند هذا الحد لنستأنفه بعد ذلك عند الحديث عنه فى غير هذا العهد ... بل نكتفى بهذا القدر من الحديث عن الأزهر فى عهد الفاطميين ، لأن هذا القدر — على قلته يعطينا صورة واضحة عن مكانته الاجتماعية والعلمية والأدبية فى هذا العصر ... وان لم يظهر له تأثير فى توجيه الحوادث ، وتصريف السياسة ، كما ظهر بعد ذلك مما سنراه فى قليل من التفصيل

العهد الأيوبى

كان المذهب الشافعى هو المذهب السائد الشائع فى مصر قبل عهد الفاطميين ومن قبل ذلك كانت السيادة للمذهب المالكى فيها ، كما يذكر السيوطى فى حسن المحاضرة وقد حاول القاضى اسماعيل بن سميع الكندى نشر مذهب أبى حنيفة ، بعد أن ولاه العباسيون قضاء مصر عام ١٤٦ للهجرة ، فلم يوفق الى ذلك ... بل كرهه المصريون لذلك . أما مذهب أحمد بن حنبل رضى الله عنه ، فلم يظفر من المصريين الا بعدد قليل لم يسمع السيوطى بخبرهم الا فى القرن السابع للهجرة وما تلاه

وقد جاء الفاطميون الى مصر ، وهم ينكرون كل هذه المذاهب ، ويعملون على ابطالها وصرف الناس عنها ... لهذا كان طبيعيا — وقد قامت

الدولة الأيوبية على أنقاض الدولة الفاطمية — أن تعمل على محو المذهب الفاطمى ، واحلال المذهب السنى محله ... بل لقد آسرف الأيوبيون فى ذلك ، وعملوا على اخفاء كل أثر للشيعة فى مصر . ومن ثم تلقوا بالترحيب فتوى قاضى القضاة الشافعى بأنه لاتجوز اقامة الجمعة فى بلد واحد فى مكانين ، وأن اقامتها فى الأزهر باطلة لأن الجامع الحاكمى أوسع منه ، وبذلك تعطلت صلاة الجمعة فيه نحو مائة عام ، من عام ٥٦٧ الى عام ٦٦٥ للهجرة .

وفقد الأزهر مظهره الرسمى فى الدولة الجديدة ، ولم يعد يستمتع بما كان يخلع عليه من مباهج فى ليالى الوقود ، والمولد النبوى ، وما الى ذلك من المناسبات التى كانت تحتفل بها الدولة الفاطمية ، كيوم عاشوراء ... بل بدأت الحركة العلمية فيه تصاب بالركود والخمول ، لأن الدولة الجديدة أنشأت حوله مدارس مختلفة لتنافسه فى رسالته . فبنى صلاح الدين مدرسة للشافعية بجوار مسجد عمرو ، ومدرسة أخرى للمالكية عرفت فيما بعد باسم المدرسة القمحية ، ومدرسة ثالثة للفقهاء الحنفية كان يطلق عليها اسم « المدرسة السيوفية » ، وبنى كذلك مدرستين أخريين لفقهاء المذهب الشافعى خاصة : احداهما بجوار الامام الشافعى ، والأخرى بجوار المشهد الحسينى . وقد أحصى المقريزى فى « الخطط » المدارس التى بنيت فى القاهرة وحدها بثمانى عشرة مدرسة .

وقد تبع ذلك انشاء مدارس أخرى فى القاهرة والفسطاط كالمدرسة الكاملية أو « دار الحديث » التى أنشأها الملك الكامل عام ٦٢١ ، وتمت عمارتها عام ٦٢٢ للهجرة ... وقد تولى مشيختها أبو الخطاب عمر بن دحية ، ثم أخوه أبوعمر عثمان ابن دحية . وقد ذكر السيوطى فى « حسن المحاضرة » أن القسطلانى وابن دقيق العيد كانا من مشايخها . وكذلك بنى الملك الصالح بعد ذلك « المدرسة الصالحية » فى عام ٦٣٩ ، وجعلها أربع مدارس للمذاهب الأربعة ، ثم المدرسة الفاضلية التى بناها القاضى الفاضل سنة ٥٨٠ هـ ، وذكر أن مكتبتها كانت تحتوى على مائة ألف كتاب مجلد .

وهكذا وجد الأزهر فى هذه المدارس قوى تحيط به ، وتمتص قوته بما تجتذب اليها من قلوب طلابه وعلمائه ، فشمله ركود وخمول ، ولكنه كان منها كما يقول الشاعر :

كالبحر يمطره السحاب وما له
فضل عليه لأنه من مائة

فان كثيرا من العلماء الذين خرجتهم هذه المدارس تتلمذوا على أساتذة الأزهر ، ونهلوا من حلقاته العلمية فى العهد الفاطمى ... بل ان الشعراء الذين لمعت أسماؤهم فى هذا العهد — كابن مطروح ، وابن النبيه ، وابن الساعاتى ، وابن سناء الملك ، وابن التعاويذى ، وسراج الدين الوراق — كانوا ثمرات لثقافة الأزهر اللغوية والأدبية .

وقد أورد الأستاذ محمد عبد المنعم خفاجى فى كتابه « الأزهر فى ألف عام » أسماء العلماء الأعلام الذين نبغوا فى هذا العهد — نقلا عن « حسن المحاضرة » للسيوطى — نذكر منهم : الحسن الفارسى ، الفقيه الحنفى ، العالم باللغة والطب والهيئة المتوفى عام ٥٩٨ هـ ، وابن الحاجب النحوى المشهور (٥٦٦ — ٦٤٦ هـ) ، والشاطبى (٥٣٨ — ٥٩٠ هـ) ، وابن الفارض الصوفى الزاهد الشاعر المعروف (٥٧٦ — ٦٣٢) ، وعز الدين بن عبد السلام شيخ الاسلام (٥٧٧

— ٦٦٠ هـ) ، وعبد الرحيم القنائى المتوفى عام ٥٩٢ للهجرة ، والسيد أحمد البدوى (٥٩٦ — ٦٧٥ هـ) ، وهذان معروفان بشهرتهما فى الصوفية .

ومن العلماء الذين برزوا فى هذا العهد أيضا : الحافظ المنذرى شيخ الاسلام (٥٨١ — ٦٦٠ هـ) ، والسخاوى المصرى (٥٥٨ — ٦٤٣ هـ) صاحب التفسير المشهور وشرح الشاطبية ، وابن سرايا (٥٧٠ — ٦٥١ هـ) المفسر العالم بالقراءات ، وابن المنير (٦٢٠ — ٦٨٣ هـ) ، وكان اماما فى النحو والأدب والأصول والتفسير . ومنهم كذلك : ابن برى المتوفى عام ٥٨٢ هـ ، وابن معطى المتوفى عام ٦٢٨ هـ ، وكان هذان العالمان امامين فى العربية ، وابن الساعاتى المتوفى عام ٦٠٤ هـ ، وأبو الحسين الجزار الشاعر ، وأبو شامة المتوفى عام ٦٩٥ هـ ، والتلعفرى (٥٩٣ — ٦٧٥ هـ) ، وابن واصل المتوفى عام ٦٩٧ هـ ، والقاضى الفاضل المتوفى عام ٥٩٦ هـ ، والعماد الأصبهانى المتوفى عام ٥٩٧ هـ . وظهر من الحكماء الوزير القفطى (٥٦٨ — ٦٤٦ هـ) ، ومن المؤرخين ابن شداد (٥٣٩ — ٦١٥ هـ) وابن عبد الظاهر (٦٢٠ — ٦٩٢ هـ) .

ولم تكن الدراسة مع هذا منقطعة فى الأزهر ، بل ظلت متصلة فيه ، وان أصيبت — كما قدمنا — بالركود والخمول . فقد توجه اليه ، ودرس فيه ، علماء ممتازون مثل عبد اللطيف البغدادى ، فانه وفد على مصر فى عام ٥٨٩ هـ ، وتولى التدريس فى الأزهر حتى توفى الملك العزيز فى عام ٥٩٥ للهجرة .

ونخلص من هذه القائمة التى نقلناها بأن الحياة العلمية التى ازدهرت حول الأزهر فى هذا العهد ، وفى تلك المدارس الكثيرة التى أنشئت حوله ، لم تكن الا امتدادا لعمله فى تنمية الثقافة العربية والاسلامية ... اذ ليس من السهل على أى باحث أن يرى هذا الحركة تنمو وتشتد ، وتزهر وتثمر ، ثم يصدق مع ذلك أن الأزهر كان يعيش فى ظلام فكرى ، أو جمود عقلى . وكل ما حدث هو توزيع أهله فى أماكن قريبة منه ، وصرف الناس دون الاقبال على هذا البناء الذى اقترن فى أذهان الأيوبيين بذكريات لايحبونها عن الفاطميين . أما الأزهر من حيث هو جامعة علمية عربية اسلامية تقوم على دراسة علوم اللغة والدين ، فقد غاض ماؤه فى هذا البناء ليفيض فى أبنية أخرى ومعاهد أخرى ... ثم تعود اليه مكانته وزعامته بعد ذلك كما سنرى .

العصر الذهبى

انتهى العهد الأيوبى والأزهر على ما وصفنا من خمول ذكره ، واهمال أمره ، وانصراف العلماء عنه الى غيره من المدارس التى كانت تحيط به ، وتموج بالحركة العلمية حوله . وكانت القاهرة حينذاك تجتذب أنظار العلماء من كل صوب ، وتتأهب للقيام بدورها الخطير فى الدفاع عن كيان العرب وحماية الاسلام ... ذلك أن بغداد كانت قد أوهنتها الانقلابات والفتن والاضطرابات ، ووصلت الى درجة من الضعف تنذر بدمارها وانهيار الخلافة الاسلامية فيها . وكان الخطر مع ذلك يزحف اليها من الشرق مع جيوش التتار ، ويتربص بها وبالعالم العربى والاسلامى كله من الغرب مع مطامع الاستعمار ... اذ كانت الحروب الصليبية لا تزال مشبوبة الأوار بين الشرق والغرب ، تسكن برهة لتثور مرة أخرى .

ثم حدث ما كان يتوقعه العرب والمسلمون ، ويخشون وقوعه ، فسقطت بغداد فى أيدى التتار عام ٦٥٦ للهجرة ، وتابع الغزاة زحفهم بعد أن دمروها ، وأحرقوا كتبها العلمية ، وروعوا علماءها

وأدباءها . ولكنهم لم يكادوا يقتربون من حدود الشام ، حتى انحسرت موجتهم ، وانكسرت شوكتهم ، ومنوا بهزيمة ساحقة فى « عين جالوت » و « بيسان » أمام الجيش الاسلامى الذى خف للقائهم من مصر ، وعلى رأسه السلطان قطز وقائده الأمير ركن الدين بيبرس .

ثم صار الأمر الى الظاهر بيبرس بعد قتل قطز ، فرأى أن ينتزع الراية التى سقطت فى بغداد ويرفعها فى القاهرة ، واستدعى أحد العباسيين الذين أفلتوا من قبضة التتار ، فأقامه خليفة فى مصر ، ولقبه بالمستنصر .

وكان أول من بايعه بالخلافة عالم دمشقى عظيم ، قدم الى مصر عام ٦٣٩ هـ فى عهد السلطان نجم الدين أيوب ، فأكبره علماؤها ، وولاه السلطان قضاء مصر والوجه القبلى ، ثم بقى بعد زوال العهد الأيوبى يتمتع بكل مهابة واحترام...ذلك هو شيخ الاسلام عز الدين بن عبد السلام . وسنتحدث عن بعض مواقفه الرائعة لأنها كانت ، بالنسبة لعلماء الأزهر من بعده ، بداية نفوذهم ، وتعزيز مكانتهم ، واحترام كلمتهم ، وقيادتهم للشعب ضد طغيان الحكام .

وأول ما نلاحظه من هذه الأحداث العامة ، ونراه متصلا بموضوع الحديث عن الأزهر ، هو هجرة العلماء الى القاهرة . وثانيا قيام الخلافة الاسلامية فيها بعد بغداد . وثالثا — وهو النتيجة أو كالنتيجة لما تقدم — تجديد بناء الأزهر ، واقامة صلاة الجمعة فيه بعد أن عطلت نحو مائة عام ، واعادة الدراسة اليه ، واقبال الموسرين بالتبرعات عليه .

ففى عهد الظاهر بيبرس — وكان من ملوك الجراكسة — وفى عام ٦٦٥ للهجرة ، امتدت اليه يد العناية والتجديد ، فردت اليه ما كان مغصوبا

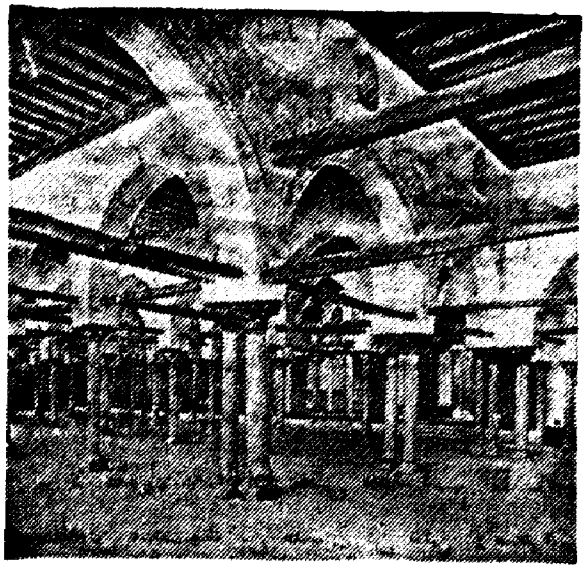

داخل الجامع الازهر

منه ، وعمرت الواهى من أركانه وجدرانه ، وأصلحت سقفه ، وبلطت أرضه وفرشتها ، واستجدت به مقصورة حسنة . فقد كان الأمير عز الدين أيدمر الحلى يقيم فى دار مجاورة له — هى الآن جزء منه — فرأى ضرورة مراعاة حرمة الجوار ، كما قيل ، وتبرع له بكثير من المال ، وأطلق له السلطان كذلك جملة من المال ، فعمره بما ذكرناه ... وشاركه فى عمارة هذا المسجد الأمير بيلبك الخازندار ، فعمل فيه مقصورة كبيرة رتب فيها جماعة من الفقهاء لقراءة الفقه على مذهب الامام الشافعى ، ومحدثا يسمع الحديث النبوى ، ووقف على ذلك الأوقاف الدرار — كما تذكر كتب السيرة — ورتب به سبعة لقراءة القرآن ، ومدرسا .

اعادة افتتاح الازهر

وبعد أن كمل بناؤه وتجديده ، أخذ الأمير عز الدين فتاوى من العلماء بخطوطهم تتضمن جواز الجمعة فيه ، ثم افتتح للصلاة ، فحضرها العلماء والأمراء والكبراء فى هذا اليوم ... وكان يوما مشهودا .

ولم تقف العناية ببناء الأزهر عند هذا الحد فى

عهد السلاطين ، فاننا نجد اسم الأمير سلار يقترن بما دخله من عمـارة فى عام ٧٠٢ للهجرة ... فقد سقط الجامع الأزهر والجامع الحاكمى وجامع عمرو نتيجة زلزال حدث فى ذلك العام ، فتقاسم الأمراء عمارتها ، وكان الأزهر من نصيب الأمير المذكور . وكان هذا الأمير من مماليك الصـالح علاء الدين ابن المنصور قلاوون . ثم اتصل بخدمة الأشرف ، وتوفى عام ٧١٠ للهجرة .

ثم لا يطول به الزمن حتى نجد اسم القـاضى نجم الدين محـمد بن حسين بن على الأسعردى يقترن بعمارة جـديدة أدخلت عليه فى عام ٧٢٥ للهجرة ، ثم تضم الى مبانيه فى عام ٧٤٠ مدرسة جديدة هى مدرسة الأقبغاوية التى تستخدم الآن مكانا للمكتبة الأزهرية . وبعد ذلك بأربعة أعوام ، أى فى عام ٧٤٤ ، أضيفت اليه المدرسة الجوهرية بعد اتمام بنائها .

ورأى الأمير الطواشى سعد الدين بشير الجامدار فى عام ٧٦١ للهجرة ، أن يجـدد كذلك عمارته ، فاستأذن السلطان الملك الناصر حسن بن محمد بن قلاوون فى ذلك ، فنزع ما كان قد استجد فيه من مقاصير ، وأخرج ما كان به من صناديق وخزائن ، لأنه رأى فى هذا كله ما يضيقه ، ثم أصلح جدرانه وسقفه حتى عادت جديدة ، وبلط أرضه وبيضه ، وحظر على الناس المرور فيه ، ورتب فيه مصحفا ، وجعل له قارئا ، ثم أنشأ على بابه القبلى حانوتا لتسبيل المـاء العذب ، وأقام فوقه مدرسة لاقراء أيتـام المسلمين كتـاب الله ، ورتب للفقراء من المجاورين طعاما يطبخ لهـم كل يوم ، كما رتب دروسا للفقهاء من الحنفية ، فكان مدرسهم يلقى دروس الفقه فى المحراب الكبير ... وقد وقف على ذلك أوقافا جليلة ، وبذلك أخذ الفقه الحنفى مكانه الى جانب الفقه الشافعى .

ثم يمتد الزمن قليلا حتى يوفى بالأزهر على عام ٨٠٠ للهجرة ، فتدخل اليه عماره جديدة ... فقد هدمت منارته لقصرها ، وأقيمت منارة أطول مما كانت ، وبلغت النفقه عليها من مال السلطان خمسة عشر ألف درهم . ثم علقت القناديل فيها ليلة الجمعة فى شهر ربيع الآخر من هذا العام ، وأوقدت حتى اشتعل الضوء من أعلاها الى أسفلها ، واجتمع القراء والوعاظ ، وتلوا ختمة شريفة وبقيت هذه المنارة حتى شوال من عام ٨١٨ ، ثم هدمت لميل ظهر فيها ، وعمل بدلها منارة من حجر على باب الجامع البحرى بعد أن هدم هذا الباب ، وأعيد بنـاؤه بالحجر ، وركبت المنارة فوقه ، وأخذ الحجر لها من مدرسة الملك الأشرف خليل التى كانت تجاه قلعة الجبل .

وفى عام ٩٠٠ للهجرة اقترنت عمارته باسم مصطفى بن محمود بن رستم الروبى ، وبلغ ما أنفقه عليها خمسة عشر ألف دينار وأنشأ الملك الأشرف أبو النصر قايتباى ميضأة فيه وفسقية من داخلها ، وسبيلا ومكتبا على بابه ... كما أنشأ رواق الشوام ورواق المغاربة ، وأنشأ المنارة العظيمة التى يجدها الداخـل عن يمينه . وقـد رتب الملك قانصـوه الأشرف ، خال الناصر ، طعاما له فى شهر رمضان . ثم جاء الملك قانصوه الغورى ، فرتب فى شـهر رمضان لمطبخ الأزهـر كل سنة ستمائة وسبعين دينارا ، ومائة قنطار من العسل ، وخمسمائة أردب قمح ، وبنى المنـارة العظيمة ذات الرأسين به عام ٩٠٢ للهجرة .

ونخلص من هـذا وغيره — وهو كثير — بأن الأزهر عادت اليه عناية المسئولين ، وعادت الدراسة فيه على مذهب السنة فى نشاط واقبال . وآية ذلك ما يذكره المقريزى من أن عدد الطلبة فيه بلغ فى أوائل القرن الثامن للهجرة ٧٥٠ طالبا ، فقد قال :

« فى سنة ٨١٨ ولى نظر هـذا الجامع الأمير

سودوب القاضى حاجب الحجاب ، فجرت فى أيام نظره عدة حوادث لم يتفق مثلها . وذلك أنه لم يزل فى هذا الجامع — منذ بنى — عدة من الفقراء يلازمون الاقامة فيه ، وبلغت عدتهم فى هذه الأيام ٧٥٠ رجلا ، ما بين عجم وزيالعة ومغاربة ، ومن أهل ريف مصر ، ولكل طائفة رواق يعرف بهم ، فلا يزال الجامع عامرا بتلاوة القرآن ودراسته وتلقيه ، والاشتغال بأنواع العلوم من الفقه والتفسير والحديث والنحو ومجالس الوعظ وحلق الذكر . وصار أرباب الأموال يقصدون هذا الجامع بأنواع البر من الذهب والفضة اعانة للمجاورين فيه على عبادة الله تعالى ، وكل قليل تحمل اليهم أنواع الأطعمة والخبز والحلويات ، لا سيما فى الموسم ... فأمر هذا الناظر فى جمادى الأولى من هذه السنة باخراج المجاورين من الجامع ، ومنعهم من الاقامة فيه ، واخراج ما كان لهم فيه من صناديق وخزائن » .

نهضة مباركة

ومعنى هذا أن هذا المسجد الجامع أصبح جامعة — كما كان فى عهد الفاطميين — تموج بطوائف مختلفة الجهات والأجناس ، وأنه كان محاطا بعدد كبير من الأروقة ، لكل طائفة رواق منها ، وأنه — الى جانب صفته العلمية — قد أصبح كذلك موئلا لأرباب الطرق الصوفية يقيمون فيه حلق الذكر ومجالس الوعظ ، وأن الاشراف عليه أصبح وظيفة من وظائف الدولة الرسمية تسند الى أمير من الأمراء ، وأنه كان يفاض عليه الخير ، وتحبس عليه الأوقاف من الأثرياء والأمراء والحكام .

والمتتبع لتواريخ العلماء الذين لمعت أسماؤهم فى هذا العهد يجد كل هذه الظواهر التى أشرنا اليها ، فمثلا ابن الفارض الصوفى المشهور كان يقيم بالأزهر ، ووالده أبى أن يقبل وظيفة قاضى القضاة ، وآثر الانقطاع الى عبادة الله بقاعة الخطابة بالجامع الأزهر .

وقد ذكر السيوطى من العلماء الذين تولوا التدريس بالأزهر فى هذا العصر : ابن الدمامينى ، الذى ولد بالاسكندرية ، وتفوق فى النحو والنظم وألم بعلم الفقه وعلوم أخرى ، ثم كان يتصدر لاقراء النحو فى الجامع الأزهر . كما ذكر أن من العلماء الذين نبغوا فى هذا العهد ابن عقيل المتوفى فى عام ٧٦٩ للهجرة ، وابن هشام المتوفى عام ٧٤٩ هـ ، وابن اياس المؤرخ المتوفى عام ٩٣٠ هـ ، وأبا حيان (٦٥٤ — ٧٤٥ هـ) ، وابن منظور صاحب لسان العرب (٦٣٢ — ٧٦١ هـ) ، والرضى النحوى المشهور المتوفى عام ٦٨٤ هـ ، وابن دقيق العيد (٦٢٥ — ٧٠٢ هـ) ، وتقى الدين السبكى (٦٨٣ — ٧٥٦ هـ) ، وشيخ الاسلام البلقينى (٧٢٤ — ٨٠٥ هـ) ، والامام العينى (٧٦٢ — ٨٥٥ هـ) ، وغيرهم .

واذا كان بعض هؤلاء العلماء قد اقترن اسمه بمدرسة أخرى من المدارس التى كانت تقوم الى جانب الأزهر — كالمدرسة الظاهرية القديمة التى بناها بيبرس عام ٦٦١ هـ ، والمدرسة المنصورية التى بناها المنصور قلاوون عام ٦٧٩ هـ ، والمدرسة الناصرية التى بناها الناصر محمد بن قلاوون عام ٧٠٣ ، ومدرسة السلطان حسن التى بناها السلطان حسن بن الناصر محمد بن قلاوون عام ٧٥٨ هـ ، والمدرسة الظاهرية التى تم بناؤها عام ٧٨٨ — واتصلوا بالعلم والتعليم فى هذه المدارس ، فانه لا يمكن عزلهم أو عزل مدارسهم عن الأزهر ... فقد كانوا ينتسبون اليه ، ويختلفون الى حلقات الدروس فيه ، وكانت هذه المدارس

أجنحة للأزهر تقوم معه برسالة واحدة ، وتلتقى معه على خطط ومناهج موحدة .

ويذكر السيوطى ، ممن نبغوا فى القرن التاسع للهجرة ، الفيروزبادى صاحب « القاموس المحيط » المتوفى عام ٨١٧ ، والقلقشندى صاحب كتاب « صبح الأعشى » المتوفى عام ٨٢١ هـ ، والدميرى صاحب كتاب «حياة الحيوان» المتوفى عام ٨٠٨ هـ ، وابن دقماق المتوفى عام ٨٠٩ هـ ، والمقريزى المتوفى عام ٨٤٥ .

وهكذا ظفر الأزهر فى هذا العهد بنهضة مباركة ، رفعت من شأنه ، ووسعت من نطاقه كما يقول فضيلة المرحوم الشيخ محمود أبو العيون فى كتابه « الجامع الأزهر » ... فاتجهت اليه أنظار العالم الاسلامى ، خصوصا بعد سقوط بغداد ، واتلاف كتبها وذخائرها العلمية . وأصبحت مصر المثابة الوحيدة ، والكعبة المنشودة ، يقصدها العلماء والطلاب من جميع الأقطار وقد وصف ذلك العهد على لسان المستشرقين بأنه العصر الذهبى .

العلم والعلماء

وقد عظمت مكانة العلم والعلماء فى هذا العهد الى حد كبير . فكانت كلمتهم مسموعة ، ورأيهم مطاعا ، ومكانتهم فى الشعب يحسب لها كل حساب . ويمكن للقارىء أن يتصور ذلك من موقف الشيخ عز الدين بن عبد السلام حين عزم « قطز » على فرض ضرائب جديدة على المصريين بحجة انفاقها على الجيش الذى سيوجهه الى حرب التتار ، فانه حسب للعلماء كلمتهم ، فجمعهم ليأخذ رأيهم فى هذا الأمر . ولكن الشيخ عز الدين صاح فيه : « لا يجوز أن يؤخذ شىء من الرعية حتى لا يبقى فى بيت المال شىء ، وتبيعون مالكم من الخوائص فى الآلات ، ويقتصر كل منكم على فرسه وسلاحه ، ويتساوون فى ذلك هم والعامة . وأما أخذ أموال العامة ، مع بقاء ما فى أيدى الجندى من الأموال والآلات الفاخرة ، فلا »[1] .

ولهذا الشيخ العظيم مواقف أخرى رائعة مع الحكام ، وكان أولها أنه لم يقبل ، حين قدم من الشام فى عهد السلطان نجم الدين أيوب ، أن يلى قضاء مصر والوجه القبلى الا على أساس أن تكون كلمة الشرع هى الفاصلة بين الحاكمين والمحكومين . ثم لم يكد يتولى القضاء حتى وجد السلطان يكثر من شراء الترك وتأميرهم على البلاد ليكونوا عونه وعيونه ، ولما استشرى شر هؤلاء وظلمهم ، أفتى بأنهم أرقاء اشتراهم السلطان بمال الدولة ، وأن حكم الرق مستصحب عليهم ، فلابد من بيعهم وصرف ثمنهم فى وجوه الخير ومصلحة الأمة !

وكان من هؤلاء نائب السلطنة ، وكان هؤلاء كلهم أصحاب حكم وسلطان ، ولم يتحل الشيخ عن فتواه على الرغم مما كان من ثورتهم وتهديدهم ، وعلى الرغم مما كان من رجاء السلطان اليه أن يرجع عن هذه الفتوى . ولم تنحل هذه المشكلة الا باذعان السلطان ، فقد عقد مجلسا كبيرا من رجال الدولة أحضر فيه هؤلاء الأمراء من الأتراك جميعا ، وأخذ الشيخ ينادى عليهم بالبيع واحدا واحدا ، ويغالى فى أثمانهم لأنهم أمراء ، وقد غالى أكثر ما غالى فى ثمن نائب السلطنة ... وهكذا حتى دفع السلطان ثمن هؤلاء جميعا للشيخ ، فوزعه فى وجوه الخير ومصالح المسلمين ، ثم عتق الأمراء وعاد اليهم حق حرية التصرف ، وحق البيع والشراء ، بعد أن سلبهم

(١) « حسن المحاضرة » للسيوطى .

الشعب كل هذه الحقوق عملا بفتوى الشيخ عز الدين بن عبد السلام .

هذا الموقف وماإليه لا يمكن أن نتصوره لمجرد أن هذا العالم العظيم قوى الشخصية ، متين الدين ، لا تأخذه فى كلمة الحق لومة لائم ، ولا يثنيه عنها ارهاب أو وعيد أو تهديد ... وانما يتصور على حقيقته اذا لاحظنا مع هذا حرص الشعب على تنفيذ أوامر الدين وحماية علمائه وأظهر دليل على ذلك ما نجده حين خرج ، رحمه الله ، من مصر غاضبا الى مقره الأول بالشام ، فان خبر ذلك لم يكد يذاع حتى خرجت القاهرة كلها وراءه لترده اليها مكرما معظما ، على الرغم من ارادة السلطان ، بل وباسترضاء السلطان اياه . وسنجد أمثال هذه المواقف لعلماء الأزهر حين نتحدث عن العهد العثمانى ، وما تلاه من عصور الظلم التى امتحنت فيها مصر بألوان الشر مع استعمار الفرنسيين والانجليز ، واسناد الحكام من غير أبنائها الذين كانوا أداة طيعة فى أيدى الاستعمار .

فى العهد العثمانى

ظل الأزهر على ما وصفنا من نشاط وازدهار ونباهة ذكر ، حتى خضعت مصر للحكم العثمانى عام ٩٢٣ للهجرة ، وانتقل اهتمام العالم الاسلامى الى حيث انتقلت الخلافة الاسلامية فى تركيا ، فقد كان هذا الغزو عاصفة اجتاحت فيما اجتاحت سمعة مصر العلمية ، وجردتها من حللها وحلاها الأدبية والفنية والثقافية ، فنقلت ذخائرها من الكتب والآثار الى القسطنطينية ، وقبض على الأعلام من أئمة العلم ، وفادة الفكر ، وزعماء البلاد ، ورحلوا الى تركيا .

لهذا — ولكثير غير هذا — أصاب الأزهر ما أصاب مصر كلها من الفتح العثمانى : فجف ماؤه ، وذوت نضرته ، وغشيه الظلام ، ولكنه بقى حريصا على ما انتهى اليه من تراث الدين وعلوم اللغة ، لا ينقص منه ولا يزيد فيه ... بل كان همه أن يجمد عليه ، ويكافح دونه حتى ينجلى ليل الغاصبين المستبدين ، واللغة العربية — كما كانت — سليمة ، والدين الاسلامى — كما كان — مصون .

ولعل هذا هو التعليل السليم لما كانت تتسم به الدراسة بالأزهر فى ذلك العهد ، فقد عمد العلماء الى مؤلفات السلف الصالح فشرحوها ، ثم عمدوا الى الشروح فشرحوها ، وسموا شرح الشرح حاشية ، ثم عمدوا الى الحواشى فشرحوها ، وسموا شرح الحاشية تقريرا ، فكان الكتاب فى علم من العلوم يتكون من كتاب صغير مختصر موجز سمى « المتن » ، وحول هذا المتن تقوم الشرح ، ثم شرح هذا الشرح ، ثم شرح هذا الشرح لهذا الشرح على هذا المتن .

وطبيعى بعد هذا أن نرى العناية فى هذه الكتب منصرفة الى الألفاظ ومناقشتها ، ومتابعة كلمات المؤلفين بالنقد والتصويب ، والمقارنة والموازنة ، والاعتراض والجواب عنه . وطبيعى مع هذا أن نختفى وراء هذه الضجة ، والتعقيد فى أساليب المؤلفين ، المعانى العلمية الموضوعية ، وأن ينصرف ذهن القارىء الى العبارات والألفاظ دون المعانى والأغراض .

وقد اتجهت عناية العلماء كذلك الى افتراض الفروض الوهمية ، والاحتمالات العقلية التى لم تجر العادة بوقوعها ، ووضع أحكام لهذه الفروض والاحتمالات التى لا تتصل بالحياة فى واقعها المحس ، أو حاجتها الضرورية .

ويلاحظ مع هذا أن العناية كانت شبه مقصورة على علوم الدين واللغة ، فتعطلت أو كادت تتعطل

دراسة العلوم الرياضية والعقلية ، حتى وقع فى روع الكثيرين أن الاشتغال بها حرام . وظل هذا الوهم شائعا الى أن صدرت فتوى من شيخ الأزهر الشيخ الانبابى والشيخ محمد محمد البنا مفتى مصر بجواز تعلمها ، وعدم حرمة تدريسها .

ومعنى هذا أن هذه المواد لم تجد الاهتمام اللائق بها نحو أربعة قرون ، فان الانبابى كان شيخا للأزهر فى عام ١٢٩٩ للهجرة .

ولكن هذا لا يعنى كذلك أن دراسة هذه المواد انقطعت نهائيا من الأزهر ، فقد كان من العلماء ، فى عهد ركوده وجموده ، من يعرف كثيرا من العلوم العقلية والطبية وغيرها ، زيادة على العلوم الدينية والعربية ، كما يقول الشيخ أبو العيون ، وقد ذكر منهم على سبيل المثال الشيخ عبد المنعم الدمنهورى شيخ الأزهر المتوفى عام ١١٩٢ ، وقال انه جاء فى سند اجازته ما ملخصه : أنه تلقى فى الأزهر العلوم الآتية ، وله تآليف فى كثير منها ، وهى : الحساب ، الميقات والجبر ، المنحرفات ، أسباب الأمراض ، علاماتها ، علم الاسطرلاب والزيج والهندسة والهيئة ، علم الأرتماطيقى ، علم المزاول ، علم الأعمال الرصدية ، علم المواليد الثلاثة ، وهى الحيوان والنبات والمعادن ، علم استنباط المياه ، علاج البواسير ، علم التشريح ، علاج لسع العقرب ، تاريخ العرب والعجم .

وقد طلبت الحكومة فى عهد الخديو اسماعيل عام ١٢٨٢ للهجرة (١٨٦٤ م) من مشيخة الأزهر بيانا بالمواد التى كانت تدرس بالأزهر فى ذلك العهد ، فكتبت المشيخة وثيقة بها جاء فيها أن المواد هى : الفقه ، الأصول ، التفسير ، الحديث ، التوحيد ، النحو ، الصرف ، المعانى ، البيان ، البديع ، متن اللغة ، العروض والقافية ، الحكمة الفلسفية ، التصوف ، المنطق ، الحساب ، الجبر والمقابلة ، الفلك والهيئة .

وزادت المشيخة على ذلك أن الأزهر يقرأ فيه — فضلا عن هذه المواد المتداولة — بعض مواد أخرى كالهندسة والتاريخ والموسيقى وغيرها لمن له اقتدار على دراستها ، بيد أنه لا يشتغل بها الآن سوى القليل .

معدن العلوم والمعارف

ومن المناسب هنا أن نذكر حوارا دار بين الشيخ عبد الله الشبراوى ، شيخ الأزهر ، مع أحمد باشا كور حين كان واليا على مصر عام ١١٦١ للهجرة حول العلوم الرياضية ، وعدم العناية بدراستها فى الأزهر فى ذلك العهد ، فان فيه ما يشف عن السر فى الاعراض عنها وقتذاك ، وعدم الاهتمام بها .

والمرجع الأصلى فى هذه القصة هو الجبرتى ، فانه يقول عن هذا الوالى : انه كان من أرباب الفضائل ، وله رغبة فى العلوم الرياضية فلما استقر بقلعة مصر ، قابله صدور العلماء — ومنهم الشيخ عبد الله الشبراوى — فتكلم معهم فى الرياضيات ، فقالوا : « لا نعرف هذه العلوم » ...

وكان للشبراوى وظيفة الخطابة بجامع السراية ، فكان يطلع يوم الجمعة ، ويدخل عند الباشا ، فقال له الباشا يوما : « المسموع عندنا بالديار الرومية أن مصر منبع الفضائل والعلوم ، وكنت فى غاية الشوق الى المجىء ، فلما جئتها وجدتها كما قيل « تسمع بالمعيدى خير من أن تراه » . فقال له الشيخ : « يامولاى هى كما سمعتم ، معدن العلوم والمعارف » .

فقال : « وأين هى ، وأنتم أعظم علمائها ، وقد سألتكم عن بعض العلوم فلم تجيبونى ، وغاية تحصيلكم الفقه والوسائل ، ونبذتم المقاصد ؟ » .

فقال الشيخ : « نحن لسنا أعظم علمائها ، وانما نحن المتصدرون لقضاء حوائجهم ، وأغلب أهل الأزهر لا يشتغلون بالرياضيات الا الحاجة الموصلة الى علم المواريث ، كعلم الحساب والغبار » ، فقال له : « وعلم الوقت كذلك من العلوم الشرعية ، بل من شروط صحة العبادة : كمعرفة دخول الوقت ، واستقبال القبلة ، ووقت الصوم وغير ذلك » ...

فقال الشيخ : « نعم ، لكنه من فروض الكفاية ، اذا قام به البعض سقط عن الباقين ... وهذه العلوم تحتاج الى آلات وصناعات ، وأمور ذوقية : كرقة الطبع ، وحسن الوضع ، والخط والرسم ، والتشكيل ، والأمور العطاردية . وأهل الأزهر غالبهم فقراء ، وأخلاط مجتمعة من القرى والآفاق ، فيندر فيهم القابلية لذلك » . فقال : « وأين البعض ؟ » . قال الشيخ : « موجودون فى بيوتهم يسعى اليهم » .

ثم أخبره عن الشيخ الجبرتى (والد المؤرخ) ، فقال : « وكيف الطريق الى حضوره ؟ » فقال : « تكتبون اليه ارسالية مع بعض خواصكم ، فلا يسعه الامتناع » ، ففعل . فلبى دعوته ، فسر به ، ولازم المطالعة عليه مدة ولايته . ولما طالع « ربع الدستور » ، طالع بعده « وسيلة الطلاب » ، وهو مؤلف دقيق للعلامة المارديني ، فكان الباشا يختلى بنفسه ، ويستخرج منه بالطرق الحسابية ثم بالتجييب ، فيجده مطابقا ، فسر بذلك ، وخلع على الشيخ فروة من ملبوسه السمور فباعها بثمانمائة دينار .

هذه القصة .. والوثيقة

هذه القصة التى رواها الجبرتى تلتقى مع تلك الوثيقة التى كتبتها مشيخة الأزهر عام ١٢٨٢ للهجرة ، فى أن مواد العلوم الرياضية لم تنقرض من الأزهر حتى فى عهد الركود والجمود ، وانما كان يعنى بها القليل دون الكثير . وكلتاهما تكشف عن مدى حرص الأزهر طوال تلك الحقب على علوم الدين واللغة ، وجموده عليها جمود الحريص على مفاخره ومآثره ... فقد كان ينظر بعين ملؤها الريبة والحذر الى كل جديد ، ويرى فيه خطرا على الدين يحاربه بكل ما أوتى من قوة .

فى عهد محمد على

وقد امتد به هذا الزمن عدة قرون وأجيال ، وكانت نظرته الى ما قام به محمد على من اصلاحات هى نظرته الى الولاة والحكام الأتراك قبله ، فلم يستجب له ، ولم يطمئن اليه ، بل بقى على جموده وركوده ، وحرصه على ما ورث من مخلفات وثقافات . فلم يجد محمد على حيلة يدخل بها عليه ، أو يدخل بها فيه ما كان يراه من اصلاح وتجديد ، فاختار بعض الأفراد من طلبته ليقيم على كواهلهم ما كان يرجوه من نهضة علمية جديدة .

وكان هؤلاء دعائم المدرسة الطبية ، ومدرسة الألسن والادارة . ثم كان من أفراده كذلك أعضاء فى البعوث التى أرسلها الى أوربا ، مثل رفاعة بك الطهطاوى شيخ المترجمين وامام المؤلفين فى عصره ، وابراهيم بك النبراوى أحد النوابغ الذين برزوا فى البعثة الطبية ، وأحمد حسن الرشيدى بك ، وكثير من رجال الحربية والبحرية والهندسة الذين قامت على كواهلهم نهضة مصر فى عهد محمد على .

وظل الأزهر مع ذلك كله على طريقته وسنته التى جمد عليها ، لا يقتنع بغيرها ، ولا يقبل أن يفرض عليه غيرها حتى صدر أول قانون بتنظيم الدراسة به فى عهد اسماعيل عام ١٢٨٨ للهجرة (١٨٧٢ م) .

ولم يكن الغرض من هذا القانون تغيير المواد التى تدرس فى الأزهر ، أو ادخال مواد جديدة عليها ، وانما كان الغرض الأساسى منه وضع نظام

يكفل حماية الأزهر من العناصر التى لا تمت الى العلم بسبب ، ويكفل تخـريج علماء على أساس امتحان صحيح تبرز فيه ملكاتهم ، وقدرتهم على الجدل والمناقشة . فقـد كان يشاهد فى الأزهر تلاميذ بلغوا من العمر ستين عاما وأكثر ، وعلماء لا يعرفون من العلم ما يستحقون به أن يكونوا من العلماء . فرأى الشيخ محمد العباسى شيخ الأزهر وجوب العمل على وقاية العلم وأهله من هـذا البلاء [1] .

وقد حدد هذا القانون نيل العالمية بالامتحان أمام لجنة من العلمـاء يختارهم شيخ الأزهر ، على أن يقسم العلماء ثلاث درجات : أولى ، وثانية ، وثالثة وحدد علوم الامتحان بأحد عشر علما هى : الفقه ، الأصول ، التوحيد ، الحديث ، التفسير ، النحو ، الصرف ، المعانى ، البيان ، البديع ، المنطق .

وهذه العلوم كما نرى هى العـلوم التى كانت تدرس فى الأزهر من قبل .

سبب آخر

وهناك سبب آخر يراه المرحوم الدكتور محمد عبد الله دراز سر المقاومة التى عارض بها الأزهريون محمد على فيما كان يحاوله من ادخال اصلاح على مناهج الدراسة فى الأزهر ، واضافة مواد العلوم الحديثة الى المواد التى جمد عليها ، وظل هـذا السبب سر المقاومة التى واجه بها الأزهريون من بعد هذه الفكرة ، حتى آمنوا بها بعد ذلك فى كثير من التحفظ والحرص الشـديد ... هذا السبب أو السر هو طابع الالزام والقوة . وفى ذلك يقول رحمه الله : « ان سر المقاومة الأولى لم يكن هو الغرابة التامة لهذه العلوم ، ولا مجرد ورود أسمائها فى المنهاج ، ولكن طابع الالزام بجميع هذه المواد لجميع الطلاب هو الذى نفـر جمهورهم منها فى بادىء الرأى ، ثم استسلموا لها بالتدريج وكأننا بهـا وقـد نالت فى آخـرة الأمـر رضـاهم واستحسانهم » .

وهذا السبب لا يتعـارض مع ما ذكرناه ، بل يضاف اليـه ، ويساعده ، ويشد أزره فى اذكاء روح المقاومة ، والتصلب فيها على النحـو الذى عرفه الجميع عن الأزهريين وقتذاك .

جموده سر خلوده

وقد قلت فى كتابى «مشاعل على الطريق» : قد يؤخذ على الأزهر هذا الجمود الذى اتسمت به حياته العقلية فى تلك الفترة من تاريخ مصر ، ولكن جموده كان سر خلوده ، فقد كان ينظر بعين ملؤها الريبة والاستنكار لكل ماتحمله أوربا الى الشرق . وكان عمل أوربا ودولها فى تلك الفترة هو محاولة الغـزو والسطو ، وتقويض كل مقومات القومية العربية والروح الاسلامى فى الشرق ، ومن ثم جمد الأزهـر على ما ورث من تراث ، ووقف موقف الحريص على ذخائره ونفائسه ، ولو انماع لضاع وضاعت معه لغتنا وقوميتنا . وبحسب القراء أن يذكروا دنلوب فى مصر وسياسة التعليم فيها أيام دنلوب ، ولغة التعليم فى عهد دنلوب ... ليذكروا أن الأزهر فى جموده وحرصه على تراثهم الاسلامى والعربى كان يدخر للنهضة الحرة فى عهـد هذه الثورة العوامل التى دفعتها الى أن تعلن فى أول دستور أعلنته باسم الشعب أن مصر جزء من الأمة العربية ، وأن دينها الاسلام ، وأن لغتها هى العربية الفصحى .

هذه هى الحالة العلمية التى سادت الأزهر عدة قرون وأجيال ، وظلت طابعه الغالب حتى قيض الله للعالم الاسلامى حكيما ثوريا فيلسوفا ، هو جمال الدين الأفغانى ، واماما مصلحا غيورا هو الشيخ

(١) الأستاذ مصطفى حبيب ، محاضرة له ضمن كتاب « الأزهر فى المؤتمر الثقافى العربى » عام ١٩٥٠ م .

محمد عبده . فقد كان الأول ثورة مستنيرة تلقى بذور الاصلاح الدينى والسياسى فى كل بلد تحل به ، وكان الثانى تلميذ الأول وحامل لواء ثورته ومبادىء اصلاحه من بعده . وكان لهما فى اصلاح الأزهر جهود موفقة آتت ولا تزال تؤتى ثمراتها .

قائمة بأسماء العلماء

وقد اشتهر من علماء الأزهـر كثير من العلماء الذين تولوا التدريس فيه خلال تلك القرون ، وألفوا وصنفوا فى مختلف المواد التى ذكرناها ، وكان لهم فى مجـال التعليم باع طويل ، وأثر عميق . ولا يتسـع المقام هنـا لسرد أسمائهم ومؤلفاتهم ، ولكننا نكتفى بالاشارة الى ما ذكر فى كتاب « الكواكب السائرة فى أعيـان المائة العاشرة » ، وهو مخطوط بدار الكتب ، وما ذكر فى « عجائب الآثار » للجبرتى فى الجزء الأول ، من تراجم وافية لهؤلاء ، ومنهم : نور الدين على البجيرى الشـافعى المتوفى عام ٩٤٤ هـ ، والعلامة شهاب الدين بن عبد الحق السنباطى المتوفى عام ٩٥٠ هـ ، وعبد الرحمن المناوى المتوفى عام ٩٥٠ ، وشمس الدين الشـيشنى القاهرى الشـافعى ، والامام شمس الدين أبو عبد الله العلقمى المتوفى عام ٩٦٢ ، والامام شمس الدين الصفدى المقدسى الشافعى المتوفى حوالى عام ٩٩٠ ، وعبـد الباقى ابن يوسف الزرقانى المالكى المتوفى عام ١٠٩٩ هـ ، والعـلامة شاهين بن منصور بن عامر الأرمناوى المتوفى عام ١١٠١ ، والعلامة شمس الدين محمد ابن محمد ، الشـهير بالشرنبابلى ، المتوفى عام ١١٠٢ ، والامام العلامة ابراهيم بن محمد شهاب الدين البرماوى المتـوفى عام ١١٠٦ ، والشـيخ حسن بن على بن محمـد الجبرتى — جـد والد الجبرتى المؤرخ — وقد توفى عام ١١١٦ ، والعلامة

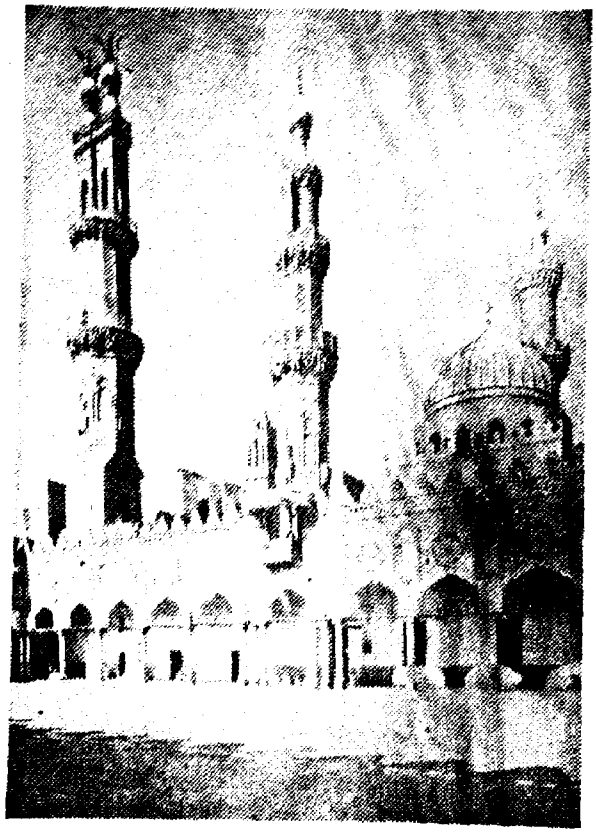

الجامع الازهر

عبـد الحى بن عبـد الحق الشرنبلالى المتوفى عام ١١١٧ للهجرة .

هذه بعض أسماء العلماء الذين تولوا التدريس بالأزهر فى أوائل العصر العثمانى وأواسطه .

ثم نطالع بعد هؤلاء من علماء القرن الثانى عشر للهجرة ، أسماء الدردير والعدوى والشرقاوى والشبينى ، والفقيـه الشـيخ الحماقى الحنفى ، والمحدث المقـرى شمس الدين محمد بن قاسم البقرى ، والمحدث منصور بن عبد الرازق الطوخى الشافعى ، والفقيه الصالح الشيخ أحمد بن أحمد السنباوى ، والشاعر الكاتب محمد بن رضوان السيوطى الشهير بابن الصلاحى ، والفقيه المحدث شيخ الاسلام الشيخ أحمد بن الحسن الخـالدى الشافعى الأزهرى الشهير بالجوهرى ، والشيخ عبد الرءوف بن محمد البشبيشى ، وشيخ مشايخ

الاسلام الشيخ على العدوى المالكى ، والمفتى الفقيه الشيخ ابراهيم الشرقاوى ، والشيخ على الشاورى المالكى ، والشيخ مصطفى الصاوى ، والشيخ محمد الخالدى المالكى ، والشيخ مصطفى الدمنهورى ، والشيخ عبد الرحمن الأجهورى ، والشيخ محمد بن على الصبان ، والشيخ أحمد العروسى ، والشيخ شهاب الدين السمنودى المحلى ، والشيخ أحمد السماليحى الشافعى ، والشيخ عبد الرحمن النحراوى الأجهورى ... الى آخر ما سرده الجبرتى فى تاريخه مما لا يتسع له المجال .

ولهؤلاء العلماء ، مع ما كانوا يقومون به من التعليم والتدريس بالأزهر ، مؤلفات لاتزال تدرس حتى الآن ، ولا يزال الانتفاع بها موصولا فى الأزهر .

الزعامة الشعبية

وعلى الرغم من جمود الحركة الفكرية فى الأزهر خلال تلك القرون ، ودوران البحث فيه حول النصوص والعبارات ، فقد كان له صوت مسموع ، ورأى مطاع فى كل ما تتعرض له البلاد من أحداث ... بل لقد انتهت اليه قيادة الشعب ، وأصبح بيده أمر توجيهه ، على الرغم من أن الخلافة الاسلامية انتقلت الى تركيا ، وانتقل معها النفوذ الدينى الذى كان يستخدمه الخلفاء العثمانيون فى بسط سلطانهم على العالم الاسلامى والشرق العربى .

وهناك ظواهر كثيرة تدل على أن الأزهر كان من المهابة بحيث حمل الغزاة على أن يحسبوا لخطر مركزه حسابه . ويذكر الأستاذ محمد عبد الله عنان أنهم كانوا يبتعدون عن كل مساس به ، ويحلونه مكانا خاصا ، ويحاولون استغلال نفوذ علمائه كلما حدث اضطراب أو ثورة داخلية ... كما يذكر ابن اياس أن السلطان سليم شاه العثمانى دخل الجامع الأزهر يوم الجمعة عام ٩٢٣ هـ ، فصلى به الجمعة ، وتصدق هناك بمبلغ كبير ، وأن السلطان الأعظم عبد العزيز خان زار كذلك الأزهر ، وأنفق فيه الكثير .

وهناك الى ذلك ظواهر أخرى كثيرة تدل على مبلغ اهتمام الخلفاء والولاة والأمراء بالأزهر فى ذلك العهد ، وعلى مبلغ ماكان يتمتع به علماؤه من نفوذ وسلطان ، منها ما أدخل عليه من عمارات كان أهمها عمارة الأمير عبد الرحمن كتخدا المتوفى فى عام ١١٩٠ للهجرة (وسنتحدث عنها فيما بعد لأهميتها) ، ومنها الأوقاف الكثيرة التى حبست عليه . أما نفوذ علمائه ، وسعة سلطانهم ، وتصدرهم لقيادة الشعب ، فحسبنا أن نشير الى عدة حوادث وقعت فى هذا العهد تشبه مواقفهم فيها موقف شيخ الاسلام عز الدين بن عبد السلام مع المماليك .

ابن عبد الحق مع داود باشا

ذكر الشيخ أحمد بن سعد الدين العثمانى العمرى ، من علماء أوائل القرن الحادى عشر للهجرة ، فى كتابه الشعرى « ذخيرة الاعلام بتواريخ الخلفاء العلماء وأمراء مصر الحكام ، وقضاة قضائها فى الأحكام » أن الشيخ شهاب الدين أحمد بن عبد الحق السنباطى قال عن داود باشا الذى صارت اليه ولاية مصر عام ٩٤٥ للهجرة ، وهو بموكبه فى شهر شعبان عام ٩٥٠ : « انه رقيق ، لا يجوز له أن يتولى الأحكام ، وان أحكامه باطلة ما لم يحصل على عتقه » .

فاغتاظ الباشا ، وهم أن يضربه بسيفه ، فتمرد عليه الجند ونهروه ، وانحازوا الى الشيخ ابن عبد الحق . فأرسل الباشا نبأ هذه الحادثة الى

السلطان ، فأنعم عليه بالعتق ، وطلب اليه أن يبلغ الشكر الى الشيخ ، فذهب اليه الباشا ، واسترضاه وقبل رجله ، وحاول أن يقدم اليه مالا وهدية ، فلم يقبل الشيخ منه شيئا من ذلك . ولكن الباشا منذ ذلك الحين أصبح لايرد للشيخ رأيا ، ولا يرفض له شفاعة . وقد جاء فى القصيدة التى حكى فيها المؤلف هذه الواقعة قوله :

لما صغى الباشا للكلام
هم بضرب الشيخ بالحسام
قال له الجند فدع جذب الحسام
فان هذا شيخ الاسلام الامام

وقد أورد هذه الحادثة الأستاذ محمد عبد المنعم خفاجى فى كتابه « الأزهر فى ألف عام » . وذكر أن هذا الكتاب مخطوط بدار الكتب رقم ١٠٤ تاريخ .

الدردير مع مراد بك

وللشيخ الدردير مع المماليك مواقف كان فيها الزعيم الدينى ، والقائد الشعبى ، نذكر منها حادثة الحسينية المشهورة ... فان حسين بك شفت ركب بجنده الى الحسينية ، وهجم على دار أحمد سالم الجزار رئيس دراويش الشيخ البيومى ونهبه ، ونهب فيما نهبه حلى النساء والفرش . فثار أهل الحسينية ، وحضروا الى الجامع الأزهر ومعهم طبول ، وانضم اليهم كثيرون من العامة ، وبأيديهم نبابيت ومساوق ، وذهبوا الى الشيخ الدردير ، فساعدهم وقال : أنا معكم . ثم خرجوا من نواحى الجامع ، وأقفلوا أبوابه ، وصعد منهم طائفة على المنارات ، يصيحون ويدقون بالطبول ، وانتشروا بالأسواق فى حالة منكرة ، وأغلقوا الحواليت ، وقال لهم الشيخ الدردير : « فى غد نجمع أهالى الأطراف والحارات ، وبولاق ، ومصر القديمة ، ونركب معهم ، وننهب بيوتهم كما ينهبون بيوتنا ، ونموت شهداء أو ينصرنا الله عليهم » .

فلما كان بعد المغرب ، حضر سليم آغا ومحمد كتخدا الجلفى كتخدا ابراهيم بك ، وجلسوا فى الغورية ، ثم ذهبوا الى الشيخ الدردير ، وتكلموا معه ، وخافوا من تضاعف الحال ، وقالوا : اكتبوا لنا قائمة بالمنهوبات ، ونأتى بها من محل ما تكون . وقرأوا الفاتحة على ذلك وانصرفوا . وركب الشيخ الى ابراهيم بك ، وأرسل الى حسين بك وأحضره ، وكلمه فى ذلك فقال : « كلنا نهابون أنت تنهب ، ومراد بك ينهب ، وأنا أنهب » ، ثم انفض المجلس ، وبردت القضية ، كما جاء فى الخطط التوفيقية لعلى باشا مبارك نقلا عن الجبرتى .

الشرقاوى مع الألفى

وفى عام ١٢٠٩ شكا أهل قرية من قرى بلبيس الى الشيخ عبد الله الشرقاوى ، من ظلم محمد بك الألفى ورجاله ، فأبلغ الشيخ شكواهم الى مراد بك وابراهيم بك ، وطلب منهما كف أذى محمد بك الألفى عن الفلاحين ، فلم يفعلا شيئا . فعقد الشيخ الشرقاوى اجتماعا فى الأزهر حضره العلماء . وبعد التشاور فى الأمر استقر رأيهم على مقاومة هؤلاء الأمراء بالقوة ، وقرروا اغلاق أبواب الأزهر ، وأمروا الناس باغلاق الأسواق والحوانيت استعدادا للقتال .

ثم توجه الشيخ فى اليوم التالى الى منزل الشيخ السادات ، ومعه العلماء والجماهير من خلفهم . ورأى ابراهيم بك من قصره — وكان قريبا من بيت السادات — هذه الجماهير المحتشدة ، وسمع أن العلماء مجتمعون عند السادات ، فأسرع وأرسل أيوب بك الدفتردار ليسأل عن غايتهم ورغبتهم ، فقالوا له : « نريد العدل ، ورفع الظلم

والجور ، واقامة الشرع ، وابطال الحوادث والمكوسات التى ابتدعتموها وأحدثتموها » .

ولما رد عليهم بأنه لايمكن اجابة كل هذا ، وقال : « انا ان فعلنا ذلك ضاقت علينا المعايش والنفقات » ، قالوا له : « ليس هذا بعذر عند الله ولا عند الناس . وما الباعث على الاكثار من النفقات ، وشراء المماليك ... والأمير يكون أميرا بالاعطاء لا بالأخذ ؟ » ، فقال لهم : « حتى أبلغ » ثم انصرف ولم يعد اليهم .

الثورة

وأيقن العلماء أنه لابد من الثورة ، فصمموا عليها ، وعزموا على أن يخوضوا مع هؤلاء الأمراء معركة يستشهدون فيها أو يردون بها الى الشعب حقوقه المغتصبة . ثم أعلموا أهل القاهرة بما انعقد عليه عزمهم ، فخفت جموع الشعب من كل صوب وحدب الى الجامع الأزهر ، وباتوا مع العلماء فى داخله ومن حوله .

ورأى ابراهيم بك أن الأمر جد ، وأن الخطر كاد يحدق به ويطبق عليه ، فبعث الى العلماء يعتذر لهم ، ويتنصل من تبعة ما حدث ، ويلقيها على مراد بك . ثم أرسل الى مراد ينذره ويحذره من هذه الثورة التى أوشكت أن تشتعل .

ورأى كذلك والى مصر استفحال الخطر ، فتوجه الى منزل ابراهيم بك فى اليوم الثالث ، واجتمع مع أمراء المماليك ، ثم اتخذوا قرارا بضرورة الاسراع فى حل المشكلة قبل أن تشتعل الثورة ، ثم أرسلوا الى العلماء يستدعونهم . فحضر الشيخ السادات والسيد عمر مكرم والشيخ الشرقاوى ، والشيخ البكرى ، والشيخ الأمير . ودار الحديث حول حقوق الشعب ، فلم يستطع ابراهيم بك ومراد بك والأمراء الا أن يذعنوا لآراء العلماء ، وهى « رفع المظالم ما عدا ديوان بولاق ، وأن يكفوا أتباعهم عن مد أيديهم الى أموال الناس ، ويسيروا فى الناس سيرة حسنة » .

وثيقة دستورية

وقد سجل القاضى الشرعى هذه القرارات فى محضر أو حجة ، ثم وقع عليها انوالى ، وختم عليها ابراهيم بك ، وأرسلها الى مراد بك فختم عليها كذلك ... وبذلك انحلت المشكلة ، وانجلت الأزمة ، وعاد العلماء من هذا الاجتماع بين مواكب الشعب وهتاف الأهلين « حسب ما رسمه سادتنا العلماء بأن جميع المظالم والحوادث والمكوس بطالة من مملكة الديار المصرية » .

وقد كانت هذه الوثيقة التى انتزعها الشعب من الحكام بأيدى علمائه ، هى النواة الأولى للنظام الدستورى ... بل كانت هذه الحجة فى رأى أكثر المؤرخين من الفرنجة بمثابة وثيقة سبقت بها مصر غيرها فى اعلان حقوق الانسان .

هذه المواقف — وهى قليل من كثير — ترسم لنا صورة واضحة الملامح لما كان يتمتع به الأزهر وعلماؤه فى ذلك العهد من نفوذ الكلمة وقوة السلطان وثقة الشعب . وقد ترجم هذه المعانى أمير الشعر أحمد شوقى بقوله فى قصيدته عن الأزهر :

واذكره بعد المسجدين معظما
لمساجد الله الثلاثة مكبرا

واخشع مليا واقض حق أئمة
طلعوا به زهرا وماجوا أبحرا

كانوا أجل من الملوك جلالة
وأعز سلطانا وأفخم مظهرا

زمن المخاوف كان فيه جنابهم
حرم الأمان ، وكان ظلهم الذرا

على العهد والميثاق

وقد بقى الأزهر بعد ذلك على العهد والميثاق الذى أخذه على الحكام ، وأخذ نفسه بضرورة القيام على العناية به والمحافظة عليه ... حتى نكبت مصر بالحملة الفرنسية ، وتم للفرنسيين الاستيلاء على القلعة ، فكان المركز الرئيسى للثورة . وقد أرسل نابليون الى مشايخ الأزهر رسالة فلم يجيبوه عليها ، حتى مل من المطاولة . فضرب الأزهر بالمدافع ، وتتابع ضربه بها من القلعة وتلال البرقية ، حتى تزعزعت الأركان ، وهدمت جدران الدور ... فركب العلماء اليه ليكف عسكره عن الرمى ، فعاتبهم ، وقبل عذرهم ، ثم قاموا من عنده ينادون بالأمان فى المسالك والطرقات .

شهداء ..

ولكن هذه الفترة من الأمان لم تطل ، اذ ثارت فتنة بين أهل الحسينية والعطوف من جانب ، وبين الافرنج من جانب آخر ، وظل الترامى بالبارود بين الطائفتين حتى نفد من الأولى ، فظل الفرنج يتابعون الرمى ، ثم دخلوا المدينة فى الليل ، ومروا بالأزقة والشوارع ، وهدموا المتاريس التى كانت مقامة فيها ، ثم دخلوا الجامع الأزهر على خيولهم ، وانتشروا فى جميع أنحائه ، وربطوا خيولهم بقبلته ، وعاثوا فى أروقته ، وكسروا قناديله وسهاراته ، وحطموا خزائن كتب الطلبة ، ونهبوا أمتعتهم ، وبعثروا الكتب والمصاحف على الأرض ، وداسوها بأرجلهم ونعالهم ، وبالوا عليها ، وتغوطوا ، وجردوا كل من وجدوه فيه ، وأخرجوه منه .

وفى الصباح وقفوا مصطفين أمام بابه ، فكان كل من يحضر لأداة الصلاة يراهم فيكر راجعا . وقد امتدت أيديهم بالنهب الى بعض المنازل القريبة منه ، وبقى الأمر كذلك — كما يقول الجبرتى — يومين قتل فيهما خلائق لا تحصى ، ونهبت أموال لا تستقصى . فركب المشايخ بأجمعهم ، وذهبوا الى بيت سر عسكر الفرنساوية ، وطلبوا منه الأمان . فوعدهم مع التسويف ، وطلب منهم بيانا بمن تسبب فى اثارة الفتنة من المعممين ، فغالطوه . فقال لهم على لسان الترجمان : « نحن نعرفهم بالواحد » . فرجوه فى اخراج العسكر من الجامع الأزهر ، فأجابهم لذلك ، وأمر بخروجهم ، وأسكن منهم نحو السبعين فى الخطة .

وقد قبض على الشيخ سليمان الجوسقى ، والشيخ أحمد الشرقاوى ، والشيخ عبد الله الشبراوى ، والشيخ يوسف المصيلحى ، والشيخ اسماعيل البراوى ، وحبسوا فى بيت الشيخ البكرى . وركب الشيخ السادات وبعض المشايخ الى بيت سر عسكر ليشفعوا فى الافراج عن المسجونين ، فطلب اليهم التريث وعدم الاستعجال .

وبعد أيام توجه جماعة من الجنود الفرنسيين الى بيت البكرى فى منتصف الليل ، وطلبوا المشايخ المحبوسين لمقابلة سر عسكر ، والتحدث معهم ، فذهبوا بهم الى بيت قائمقام بدرب الجماميز ، وهناك جردوهم من ثيابهم ، وساقوهم عرايا الى القلعة ، فسجنوهم بها حتى الصباح ، ثم أخرجوهم وقتلوهم بالبنادق ، وألقوا بجثثهم خلف القلعة .

قادة الشعب

والاستطراد فى الحديث عن موقف الأزهر من الفرنسيين قد يخرج بنا عن موضوع بحثنا ، فحسبنا أن نشير مجرد اشارة الى أسماء المشايخ : مصطفى الصاوى ، ومحمد الجوهرى ، والسادات ،

وعمر مكرم ، وعبد الله الشرقاوى ... فقد كان هؤلاء قادة الشعب فى مقاومة المحتل ، وقد وقع عليهم من اضطهاد الفرنسيين ما تتحدث عنه كتب التاريخ فى بسط واسهاب .

ومهما يكن من شىء ، فقد كان الأزهر مركز ثورة القاهرة ضد الفرنسيين ... بل كان علماؤه هم النواب الحقيقيين المتحدثين باسم الشعب . أما الأمراء من المماليك فقد ذابوا ، وذابت أسماؤهم فى خلال تلك المحنة . ولم يعد يظهر لهم أثر ، أو يذكر لهم خبر بعد هزيمتهم أمام الفرنسيين فى انبابة . فقد فر مراد بك الى الصعيد مع فلول جنده ، وأحرق ابراهيم بك ما كان معه من السفن المحملة على ضفة النيل عند بولاق ، ثم فر ومن معه من المماليك والباشا التركى الى الشرقية ، ثم الى سوريا ... وبقى الأزهر وعلماؤه ، وبقيت القاهرة وروحها الباسلة تقاوم الغزاة ، وتنحين الفرص للانقضاض عليهم واشعال نار الثورات فى جميع أنحاء البلاد ضد هؤلاء الغزاة الأجانب .

وقد اشتهر من هذه الثورات ثورتان كبيرتان قامت بهما القاهرة : الأولى فى جمادى الأولى عام ١٢١٣ للهجرة (١٧٩٨ م) بقيادة الشيخ السادات . والثانية فى شوال عام ١٢١٤ للهجرة (١٨٠٠ م) بقيادة السيد عمر مكرم نقيب الأشراف .

ويذكر المؤرخون أنه بعد ثورة القاهرة الأولى وجه نابليون نظره الى الأزهر ، لأنه كان يعلم أنه المعسكر العام للثورة . فقبض على زعماء الحركة ، وأصدر أمره الى الجنرال بون ، قومندان القاهرة ، بأن يأخذهم ليلا ، ويعدمهم على شاطىء النيل بين مصر القديمة وبولاق ، ثم يلقى بجثثهم فى النهر ، وبهذه الطريقة لم يستطع المؤرخون تسجيل أسماء كثيرين من المجاهدين الذين أعدموا ، ولا تدوين تاريخهم .

تعذيب

وقد تمكن الفرنسيون بعد الثورة الثانية التى نظمها السيد عمر مكرم ، من القبض على الشيخ السادات وسجنه فى غرفة قذرة بالقلعة ، حيث كان ينام على التراب ، ويتوسد الحجر ، ويضرب بين كل حين وآخر ضربا مبرحا . ثم فرضوا عليه غرامة قدرها ثمانمائة ألف فرنك ، وسمح له بالخروج الى داره مخفورا بالجنود ليؤدى هذه الغرامة . ثم أعيد الى السجن حيث صار يضرب فى الصباح خمس عشرة عصا ، وفى المساء مثلها ... ثم جد الفرنسيون فى البحث عن زوجته وابنه حتى قبضوا على تابعه محمد السندوبى وعذبوه ليرشدهم الى مكانهما ، حتى اعترف ودلهم عليهما ، فقبضوا عليهما ، وسجنوا زوجة السادات معه لتراه وهو يضرب أمامها كل يوم ثم شفع كبار العلماء لنقلها من السجن ، فأصدر الجنرال كليبر أمرا بنقلها الى منزل الشيخ الفيومى .

وصودرت أملاك الشيخ السادات ومرتباته ، وأوقاف أسلافه ، وبقى معتقلا حتى أفرج عنه فى عهد مينو عام ١٨٠٠ للميلاد ، على ألا يجتمع بالناس ، ولا يركب دون اذن من القيادة الفرنسية . ثم اعتقل للمرة الرابعة فى مارس من عام ١٨٠١ م وتوفى ابنه أثناء اعتقاله ، فاذن له بتشييع جنازته وهو مخفور بالجنود ، ثم أعيد الى السجن .

ويذكر المؤرخون أن نابليون قال فى مذكراته : « ان تعذيب الشيخ السادات كان من أهم الأسباب التى أدت الى مصرع الجنرال كليبر فى ١٤ من يونيه سنة ١٨٠٠ » . ومعروف أن الذى قتله طالب أزهرى يدعى سليمان الحلبى .

أما السيد عمر مكرم فقد استطاع أن يغادر القاهرة قبل أن يقع فى قبضة الفرنسيين ، فتركها وترك أملاكه فيها تنهب وتصادر ، ولم يعد اليها الا بعد جلاء الفرنسيين عنها فى عام ١٨٠١ للميلاد .

الشفق الدامى

ان تاريخ الأزهر فى هذه الفترة مخضب بدماء الأحرار من رجاله ، وهو بهذه الصبغه يمثل فى تاريخ مصر حمرة الشفق الرائع الجميل فى سمائها الصافية ... وما كان للأزهر أن يفرط فى ذرة من حقوق بلده ، أو يبخل بأنهار الدماء تجرى من عروق أبنائه ، وهو يرى الغازى الأجنبى يطأ بأقدامه الدنسة أرض العروبة الطاهرة .

لقد كان من الجائز أن يسكت — وهو لم يسكت — عن المماليك والسلاطين ، لأنهم كانوا جنودا فى جيش الخلافة الاسلامية ، يرفعون رايتها ، ويذودون عن حماها ... ولأن القومية بمعناها الضيق المحلى لم تكن قد أخذت سبيلها الى الأذهان . أما وقد وقعت الواقعة ، وحلت الكارثة ، وأصبح حكام البلاد أعداء دينها ، وأعداء عروبتها ... فلا مجال للتردد فى المقاومة ، وبذل النفس والنفيس فى الدفاع عن البلاد ، وتحرير أرضها من الغزاة المستبدين وهذا ما كان من الأزهر وعلمائه ، ومن مصر كلها حول الأزهر وخلف علمائه .

مصدر السلطات

وجلا الفرنسيون عن مصر ، وعاد المماليك و « الباشا » تتابعون خطتهم القديمه فى حكم البلاد تحت ظلال الخلافه الاسلاميه وعاد السيد عمر مكرم الى القاهرة ليقوم مع الشيخ سند الله الشرقاوى بتوجيه الشعب ومراقبة الحكام ولكن فساد المماليك عاد أسوأ مما كان ... فقد كانوا يغيرون على القرى ، ويجمعون الضرائب ، ويستولون عليها لانفاقها فى ملاذهم وشهواتهم . وكان الولاة من الضعف وسوء التدبير بحيث لم يستطيعوا ارضاء الشعب أو ارضاء المماليك ، أو دفع مرتبات الجند ، فقتل منهم اثنان ، وسجن منهم ثلاثة فى القلعة ، ثم طردوا من مصر . وكان آخرهم أحمد خورشيد باشا .

وانتهز محمد على — وكان أحد قواد الفرقة الألبانية — فرصة التذمر الذى ساد طبقات الشعب ، فأخذ يتقرب الى زعيمه السيد عمر مكرم ، ويزوره فى الليل سرا ، ويستميله بشتى الوعود ، ويعده بأن يسير — اذا آل اليه أمر الحكم — حسب أوامر الشرع ، ويمنع وقوع المظالم ، وألا يبرم أمرا دون أن يستشير فيه العلماء ... فاذا خالف شرطا من هذه الشروط فلهم أن يعزلوه ، ويخرجوه من الحكم

اجتماع عام

وما زال محمد على يتودد الى السيد عمر مكرم ، ويقسم له الأيمان على صدق نيته ، واخلاصه ، وعزمه على العمل لما فيه خير البلاد والعباد ، حتى قبل السيد عمر مساعدته ، وأخذ على عاتقه اقناع العلماء برأيه ... ثم أذاع نداء دعا فيه الشعب الى الاجتماع أمام المحكمة ، فى بيت القاضى ، فأسرع الناس أفرادا وجماعات الى مكان الاجتماع ، وأقبل المزارعون من الضواحى فى مظاهرات صاخبة اكتظت بها الطرق والمسالك المؤدية الى المحكمة ، وهم يهتفون : « يارب يامتجلى ، أهلك العثمانلى » !

ثم أقبل السيد عمر مكرم ، فاقترح عزل الوالى ، وتوليه محمد على مكانه . وكتب العلماء عريضة بالمظالم بعثوا بها الى الوالى ... ثم طلبوا اليه أن ينزل على ارادة الشعب ، ويتخلى عن الحكم فكبر عليه أن يذعن لارادتهم ، وقال : « انى معين بأمر السلطان ، فلا أنزل بارادة الفلاحين » .

وكان هذا الرد هو الشرارة التى أشعلت نار الغيظ فى صدور العلماء ، فأجمعوا الرأى على

محاصرة القلعة ، وارغام الوالى على التنازل عن الحكم .

حصار القلعة

ولم يمض قليل من الوقت حتى كانت القلعة كالجزيرة بين طوفان من طوائف الشعب ... فما أسرع ما تكونت الفرق لتقيم المتاريس ، وتحفر الخنادق ، وتحرس مداخل المدينة . وما أسرع ما تسلح الشعب بالأسلحة البيضاء والهراوات .

وكان الزعيم السيد عمر مكرم لا يفتأ يتنقل بين الصفوف ليثير همم الثائرين ، ويذكى روح المقاومة والتضحية ، ويشجع الجميع على احكام الحصار والاستعداد لساعة الزحف والقتال . فانقطعت الموارد عن الوالى ، وأسر حجاج الخضرى قافلة من الابل كانت محملة بالذخائر والمون فى طريقها الى القلعة . ثم قدمها الى القائد الذى رشحه الشعب للولاية .

ولم يجد الوالى بدا من التسليم ، والتخلى عن الحكم ... فقام شيخ الاسلام الشيخ عبد الله الشرقاوى والسيد عمر مكرم الى محمد على ، ونصباه واليا على مصر . وتنادى الناس بذلك فى تلك الليلة ... ثم وصل مرسوم الدولة فى ١١ من ربيع الآخر عام ١٢٢٠ للهجرة (٩ من يوليه سنة ١٨٠٥ م) بتعيين محمد على واليا على مصر ، حيث رضى بذلك العلماء والرعية ، كما يذكر الجبرتى .

ونخلص من هذا العرض السريع الموجز الذى قصد به مجرد تسجيل الظواهر العامة ، بأن الأزهر فى هذه الحقبة من التاريخ كانت قد انتهت اليه مقادة الشعب ، وأصبح اليه زمام أمره ... بل كان نابليون يدرك هذه الحقيقة جيدا عند أول دخوله القاهرة . ولهذا جمع العلماء ، وطلب اليهم اختيار عشرة مشايخ لتأليف ديوان منهم ، فوقع اختيارهم على المشايخ : عبد الله الشرقاوى ، وخليل البكرى ، ومصطفى الصاوى ، وسليمان الفيومى ، ومحمد المهدى الكبير ، وموسى السرسى ، ومصطفى الدمنهورى ، وأحمد العريشى ، ويوسف الشبراخيتى ، ومحمد الدواخلى . ثم اختار هؤلاء الشيخ الشرقاوى رئيسا لهم . واحتفل نابليون بافتتاح الديوان ، وأكرم أعضاءه ، وأمر المصورين بأخذ صورة كل منهم على حدة .

وقد اعتبر بعض المؤرخين هذا الديوان فاتحة السلطة النيابية الانتخابية فى مصر ... ولكن هذا الاعتبار ينهار عندما يتصور القارىء أن صاحب فكرته هو نابليون ، وان كانت هذه الفكرة تطبيقا لأمر كان واقعا بالفعل ، أو اعترافا بهذا الأمر الذى كان واقعا بالفعل .

جزاء سنمار

ولما انتهى الأمر الى محمد على لم يحافظ على الشروط والوعود والعهود التى قطعها على نفسه أمام العلماء ، بل أخذ يعمل على التنصل منها .

وكان أول ما بدر منه من تنكر للشعب رفضه لمعونة السيد عمر مكرم الحربية حين عرض عليه أن يشترك معه فى قتال الانجليز بعض الفرق التى نظمها وسلحها بالأسلحة الخفيفة ، فقد قال له محمد على : « عليكم بالمال وبمعدات الحرب . وعلى أنا وحدى مقاتلة المغيرين » . وهكذا حين صار اليه الأمر قلب للزعيم ظهر المجنّ ، وأخذ يقصيه عن الاشتراك فى المسائل العليا للدولة .

وكان يغتصب من مال الأوقاف ما يحتاج اليه ، فاجتمع السيد عمر مكرم بمشايخ الأزهر ، واحتجوا على هذا المسلك احتجاجا مرا . فأجابهم بقوله : « أنا وحدى الذى ينتفع بالضريبة ، وأما أنتم فتبهظون كاهل الأمة بأثقل

الأعباء ... انكم تعقدون الاجتماعات فى المساجد ، وتتكلمون عنى بلهجة تكاد تكون لهجة الآمر ، وهذه نزعة باطلة لا يمكن قبولهـا بغير الازدراء والاستخفاف ، واننى على استعداد لأن أرمى عنق كل من يستظل بلواء المعـارضة فى وجـه سياستى » .

محتال يجب عزله

وأسرع السيد عمر مكرم فجمع العلماء ، وقال لهم : « ان هـذا الحاكم محتـال ، واذا تمكن فسيصعب ازالته ، فلنعـزله من الآن » ، ولكن الخبر سرعان ما وصل الى محمـد على ، فبادر بنفى عمر مكرم الى دمياط . ولما علم السيد عمر بذلك تلقى الأمر بشجاعة ، وقال : « ان النفى غاية ما أتمناه ، غير اننى أريد أن أعيش فى بلد لا يدين بحكم محمد على » .

نفى عمر مكرم

وفى ١٣ من أغسطس عام ١٨٠٩ م ، كانت الجمـوع مكتظة على سـاحل النيل فى بولاق لتودع الزعيم وهو يبحر فى مركبه الى دمياط ، وبذلك ، وبعد ذلك ، اختفت الزعامة الشعبية ، وبدأ ظل الأزهر يتقلص من الميـدان ، حتى خلا الجو لهذا الحاكم الذى رفعه الشعب الى منصة الحـكم ، فاستبد به دونه ، وجعـل من مصر مزرعة لبنيه وأحفاده من بعده ، يعطى من يشاء ، ويمنع منها من يشاء .

نهاية الشيخ الشرقاوى

أما الشيخ الشرقاوى فيذكر الأستاذ محمود الخفيف ، فى مقال نشر بالعدد العاشر من مجلة الأزهر عام ١٣٧١ للهجرة ، أن محمد على باشا جمع العلمـاء والأعيـان ذات يوم ليعينوه على ما تطلبـه اصلاحاته من المـال ، ثم تكلم أحـد مستشاريه فقال : « ان حصص كثير من المشايخ مرفوع ما عليها من المغارم ، ويرجع تنميم الغرامة على حصص الشركاء» . فاحتد الشيخ الشرقاوى ، وقال له : « أنت رجل سوء » ، وثار عليـه باقى المشـايخ ـ كمـا يقول الجبرتى ـ وزاد فيهم الصياح ، فقام الباشا من المجلس ، وتركهم وذهب بعيدا عنهم .

وفى يوم الخميس الثانى من شهر شوال عام ١٢٢٧ مات الشيخ عبد الله الشرقاوى ، وصلى عليه بالأزهر فى جمع كثير .

ويظهر لى أن محمـد على أراد أن يستخدم نفوذ العلمـاء فى جمع ما يشتهى من المـال ، ثم رأى أن يسـكتهم عن المعارضـة بدعوى أن حصص كثير منهم مرفوع ما عليها من المغارم ... ولكن الشيخ الشرقاوى رأى فى توجيـه هـذا الكلام الى العلماء اهانة لهم ، واحتيالا على زيادة الضرائب والمغـارم على الشـعب باسمهم ، فثار لذلك ، وتبعه العلماء فى ثورته حتى غادر محمد على المجلس ، وذهب بعيدا عنهم .

تحت الرماد

ومضى محمـد على فى اسـتبداده وانفـراده بالحكم بعد أن خلا له الجو ، ولم يقف فى ارهاق الشعب عند حد زيادة الضرائب والمغارم ... بل ألغى ملكية الأراضى ، وجعل من مصر كلها مزرعة له ولأولاده وأفـراد أسرته ، بحجة أن الأرض للحاكم ، ومنح الملتزمين أو أصحاب الأراضى التى نزعت ملكيتها راتبا سنويا يعينهم على زراعتها ، وعين نفسه ناظرا على أراضى الأوقاف بعد أن عزل العلمـاء والمشـايخ عن نظارتها ... وهكذا ظل نفـوذه يمتد ، وسـلطانه يطغى تحت تقلص ظل الأزهر ، وقبع علماؤه فيه ، وفقد الشعب زعماءه وقادته الذين كانوا يملون ارادته على الحكام .

وطالت فترة الركود والجمود فى الأزهر ، وتغيرت معالم الحياة من حوله ، وهو على حاله لا يتغير ولكن النهضة التى شهدتها البلاد فى مختلف مرافق الحياة كانت تقوم على دعائم من أبنائه الذين اصطفاهم محمد على ، وأوفدهم الى أوربا كما أشرنا الى ذلك من قبل

ثم كانت نهاية محمد على باعلان خضوعه لسلطان تركيا ، وانسحاب جيشه من سوريا وبلاد العرب ، والاستعانة بانجلترا وحلفائها ، الذين حطموه وحطموا أسطوله ، على تعديل فرمان توليته ، بحيث تكون وراثة عرشه لأكبر أفراد الأسرة سنا ، وتكون الجزية التى يدفعها للسلطان بمقدار ٨٠٠٠٠ كيس أو ٤٠٠٠٠٠ جنيه سنويا ، وأن يكون للباشا حق منح الرتب العسكرية لغاية رتبة قائمقام ... وهكذا ظل يتضاءل ويتحاذل حتى فنع بتثبيت عرشه وعرش اسرته فى أرض مصر بمعونة الدول الأجنبية وكان هذا جل أمانيه .

وميض النار

ثم حكم مصر بعده ابراهيم ، ثم عباس الأول ، ثم سعيد ، ثم اسماعيل ... فكان حكمهم كحكمه فى طابعه الانفرادى والاستبدادى ، ولم يكن للشعب معهم كلمة محترمه ، أو رأى مطاع . وكان الأزهر ، خلال تلك الحقب المظلمة ، على ماذكرنا من جمود وركود ولكنه كان — وكان الشعب معه — ينطوى على جمر كامن ينتظر من ينفخ فيه ليشعل ضرامه ، ويوقد عرامه .

وقد كان أول نافخ فيه هو جمال الدين الأفغانى ... فقد وفد الى مصر عام ١٨٧١م ، فنفث فيها روح حماسته وفلسفته ، وأوقد فيها مشاعل الاصلاح من أمثال الامام محمد عبده وكان يلقى دروسه بالأزهر فى أول الأمر ، ثم ضاق بجمود مشايخه ، فأخذ يلقيها بمنزله على من كان يلتف حوله من طلبة الأزهر المستنيرين ، ومن الموظفين وغيرهم وكان يجمع بين الفلسفة الدينية والعلوم السياسية الحديثة ... فاذا حل ببلد اسلامى لم يقتصر على دروس الدين والفلسفة ، بل يمزج دروسه بالدعوة الى المبادىء الدستورية لمحاربة الجهل والاستبداد والتدخل الأجنبى ، كما يقول محمد بك رفعت فى كتابه « تاريخ مصر السياسى » .

الثورة العرابية

ثم اشتعلت الثوره العرابيه لأسباب كثيرة ليس هذا مجال بسطها ، وانما نكتفى بذكر أهمها ، وهو التدخل الأجنبى ، وافتئاته على حقوق البلاد ، ورفض الخديو توفيق لمشروع الدستور الذى قدمته وزارة شريف ، وتذمر الجيش المصرى من تفوق العنصر الجركسى والتركى فيه ، وقصر الترقى والألقاب على الضباط من غير المصريين .

اشتعلت الثوره بعد أن اكتملت مقدماتها وأدواتها ، فكان للأزهر فيها دور لايمكن اهماله أو اغفاله .

يمين الثورة

ففى ٢٥ من مايو عام ١٨٨٢ م ، قدمت كل من انجلترا وفرنسا مذكرة تطلبان فيها ابعاد عرابى باشا ، وارسال كل من على باشا فهمى ، وعبد العال باشا حلمى الى أية جهة داخل القطر المصرى ، واستقالة وزارة البارودى فرفض مجلس الوزراء مطالب الدولتين ، واجتمع أحمد عرابى باشا ، ومحمود سامى باشا البارودى وكبار الضباط فى قشلاق عابدين ، واتفقوا على أن يكونوا يدا واحدة فى الدفاع عن البلاد . وأرسلوا الى الشيخ

محمد عبده ليضع لهم صيغة يمين الثورة فوضعها لهم ، وتلاها عليهم ، فرددوها فى صوت واحد .

دسيسة الخديو

ثم استقالت وزارة البارودى يوم ٢٦ من مايو عام ١٨٨٢ ، فأراد الخديو أن يبث روح الفرقة بين صفوف الزعماء ، ودعا الى عقد اجتماع فى اليوم التالى حضره من العلماء الشيخ محمد الانبابى شيخ الجامع الأزهر ، والشيخ محمد عليش ، والشيخ حسن العدوى ، والشيخ أبو العلا الخلفاوى . وحضره كذلك شريف باشا ، وكبار من النواب والضباط ، ثم عرض عليهم تشكيل وزارة برياسته وقبول المذكرة الانجليزية الفرنسية ، فرد عليه طلبة باشا عصمت بقوله : « ان هذه اللائحة يستحيل علينا تنفيذها ، ولا حق للدولتين فى طلب تنفيذها ، فهى تتعلق بمسائل من اختصاص الباب العالى أن ينظر فيها ، ويستحيل علينا قبول أحد رئيسا للجهادية خلاف رئيسنا أحمد باشا عرابى » ، وتبعه الشيخ عليش والعلماء فأعلنوا الموافقة على رأيه ، ثم غادروا مجلس الخديو دون استئذان .

مارق يجب عزله

ثم ضربت الاسكندرية فى ١١ من يوليه عام ١٨٨٢ ، وأصدر الخديو أمرا بعزل أحمد عرابى فى ٢٠ من يوليه . فاجتمع المؤتمر الوطنى فى ٢٢ من يوليه ليقرر موقف الأمة من الخديو ، بعد أن أعلن بتصرفاته انضمامه الى الانجليز ، ووقف الشيخ محمد عبده فتلا على أعضاء المؤتمر ما يثبت ادانة الخديو ، ومنشورات عرابى التى تدعو الى الدفاع عن الوطن ، ثم تليت فتوى شرعية أصدرها العلماء بمروق الخديو عن الدين لانحيازه الى الجيش المحارب لبلاده . فأصدر المؤتمر قراره التاريخى بعزل الخديو ، ووقف أوامره ، وتكليف عرابى باشا بالدفاع عن البلاد ، وتكليف المجلس العرفى بتبليغ هذه القرارات للسلطان ، ووقع الحاضرون على قرار المؤتمر الوطنى .

وكان من العلماء الذين وقعوا عليه : شيخ الأزهر الشيخ محمد الانبابى ، والشيخ حسن العدوى ، والشيخ عبد الله الدرسناوى مفتى الحنفية ، والشيخ محمد عليش مفتى المالكية ، والشيخ يوسف الحنبلى مفتى الحنابلة ، والشيخ عبدالهادى الابيارى ، والشيخ محمد الأشمونى ، والشيخ خليل العزازى ، والشيخ مسعود النابلسى ، والشيخ محمد العلماوى ، والشيخ زين المرصفى ، والشيخ حسين المرصفى ، والشيخ سليم عمر القلعاوى ، والشيخ عثمان مدوخ ، والشيخ عبد الرحمن السويسى . ووقعه من رجال القضاء الشرعى : الشيخ أبو العلا الخلفاوى ، والشيخ عبد القادر الرافعى ، والشيخ عبد القادر الدليشانى ، والشيخ أحمد الخشاب .

التعبئة

ولم يدخر العلماء جهدا فى تعبئة الوعى القومى ، فأخذوا يدعون الى التطوع فى الجيش وامداده بكل ما يحتاج اليه من مؤن وعتاد وتبرعات . وكان السيد عبد الله النديم حركة لا تهدأ ، وشعلة لا يخبو لها أوار ، حتى لقب خطيب الثورة ... كما كان الشيخ محمد عبده والشيخ حسن العدوى من أنشط الذين عملوا على انجاح هذه الثورة بكل ما يستطيعون .

محاكمة العلماء

ولما انتهت الثورة بما قدر لها من الفشل واحتلال الانجليز للبلاد ، قبض على زعمائها وقادتها لمحاكمتهم ، فكان لعلماء الأزهر نصيب كبير من هذه الأحكام ... اذ حكم على الشيخ عبد الرحمن

عليش بالنفى الى الاستانة خمس سنوات ، وعلى الشيخ عبد القادر قاضى مديرية القليوبية بالنفى الى بيروت أربع سنوات ، وعلى الشيخ محمد الهجرسى بالنفى الى مكة أربع سنوات ، وعلى الشيخ أحمد عبد الجواد القاياتى بالنفى الى بيروت أربع سنوات ، وعلى الشيخ محمد عبد الجواد القاياتى كذلك ، وعلى الشيخ يوسف شرابه بالنفى الى غزة أربع سنوات ، وعلى الشيخ محمد عبده بالنفى الى بيروت أربع سنوات . هذا مع تجريدهم من الرتب والامتيازات والمناصب وعلامات الشرف.

احكام اخرى

وصدر على العلماء الآتية أسماؤهم أحكام بتجريدهم من الرتب والامتيازات والمناصب وعلامات الشرف ، وهم : الشيخ حسن العدوى وابنه الشيخ أحمد العدوى ، الشيخ أحمد المنصورى ، الشيخ محمد السمالوطى ، الشيخ أحمد البصرى ، الشيخ محمد أبو العلا الخلفاوى العضو الأول بالمحكمة الشرعية ، الشيخ عبد الوهاب عبد المنعم قاضى اسنا سابقا ، الشيخ محمد أبو عائشة قاضى بور سعيد سابقا ، الشيخ على الجمال نقيب الأشراف بدمياط ، الشيخ أحمد عبد الغنى ، الشيخ محمد عسكر ، الشيخ أحمد مروان ، الشيخ محمد جبر قاضى المنصورة سابقا ، الشيخ عبد البر الرملى قاضى العريش سابقا ، الشيخ أحمد صلى نائب محكمة المنصورة سابقا ، الشيخ محمد غزال قاضى مركز البحيرة .

وقد ذكر هذا الأستاذ أحمد عز الدين عبد الله خلف الله المدرس بالأزهر فى بحثه « الأزهر والثورة العرابية » ، وقد اعتمد فيه على كتاب الثورة العرابية للمؤرخ الكبير عبد الرحمن الرافعى . ويبدو من ملاحظة وظائف هؤلاء العلماء وأماكنهم أن عمل الأزهر فى هذه الثورة كان من السعة بحيث شمل القطر من أقصاه الى أقصاه .

خارج عن الدين والوطن

وقد ختم الأستاذ أحمد عز الدين عبد الله خلف الله هذا البحث الذى نشر فى مجلة الأزهر بموقف عالم شجاع : رأينا أن نعرضه لما له من دلالة كبرى فى هذا الموضوع .

فقد استدعى الشيخ حسن العدوى من السجن لمحاكمته يوم الثلاثاء ١٤ من المحرم عام ١٣٠٠ هـ (٥ من ديسمبر ١٨٨٢ م) ، ثم سئل : هل ختم على عزل الخديو واسناد أمر الدفاع عن البلاد الى عرابى باشا برغبته ورضاه أم لسبب آخر ؟

فأجاب رحمه الله بقوله : ختمت تابعا للعلماء الذين ختموا قبلى ... مثل شيخ الاسلام ، ومفتى الجامع الأزهر ، وشيخ الجامع وغيرهم . وكان ختمى برغبتى ورضاى للمدافعة الواجبة شرعا وسياسة ، وما كان لأحد أن يمتنع عن الختم .

ثم سئل : علم المجلس أنك أفتيت بعزل الجناب الخديو ، فهل هذا حقيقة أم لا ؟

فأجاب لم تصدر منى فتوى فى ذلك ، ولم أسأل فى هذه المادة ... ومع ذلك فاذا جئتمونى الآن بمنشور فيه هذه الفتوى فانى أوقعه . وما فى وسعكم وأنتم مسلمون أن تنكروا أن الخديو توفيق مستحق للعزل ، لأنه خرج عن الدين والوطن !!

ظلام الياس

انتهت الثورة العرابية كما أشرنا بالاحتلال البريطانى ، ومحاكمة الزعماء والعلماء ونفيهم خارج البلاد . وعاد الأزهر الى مجاله الضيق ، ونطاقه المحدود من الدراسة التقليدية التى ألفها وتعصب لها عدة قرون . وساد البلاد كلها ظلام

اليأس ، والشعور بمرارة الخيبة والفشل الذى باءت به الثورة العرابية . وامتدت يد الانجليز الى كل شىء فى البلاد ، وصار اليهم كل أمر فيها ... الا ثلاث مؤسسات ، كانوا يحذرون الاقتراب منها بصورة ظاهرة ، خوفا من هياج الرأى العام ، وهى : الأزهر ، والمحاكم الشرعية ، وديوان الأوقاف .

وقد حدث فى عام ١٨٩٩ م أن فكر مستشار الحقانية الانجليزى فى الغاء المحاكم الشرعيه ، وضمها الى المحاكم الأهلية ، ولكن الانجليز ، كما يقول الأستاذ أحمد أمين فى كتابه زعماء الاصلاح : « حسبوا حسابا لهياج الرأى العام ، فأرادوا أن يفعلوا ذلك تدريجا ، وذلك بتعيين مستشارين من محكمة الاستئناف عضوين فى المحكمة الشرعية العليا ، فلم يرض بذلك جمال الدين أفندى قاضى مصر التركى ، ولا الشيخ حسونة النواوى شيخ الأزهر ومفتى الديار المصرية . وعرض المشروع على مجلس شورى القوانين فرفضه ، ووقف الشيخ حسونة موقفا صلبا انتهى بتركه المنصبين ، ووقف المشروع » .

وقد كان هذا الاعتبار الذى تتمتع به هذه المؤسسات الثلاث مما يشعر الامام المصلح الشيخ محمد عبده بالحرج فى تنفيذ ما كان يراه من اصلاح ، اذ كان الخديو عباس يناهضه ويعارضه ، وبخاصة بعد أن رفض هو وحسن باشا عاصم رغبته فى أرض كان يريد استبدالها من الأوقاف الا اذا دفع للوقف عشرين ألف جنيه فرقا بين الصفقتين . وكان من جانب آخر يرى فى الاستعانة بالانجليز لتنفيذ مشروعاته الاصلاحية ، تمكينا لهم من مؤسسات هى آخر ما بقى فى مصر من مناطق حرة ، ومرافق اسلامية خالصة .

ولما صدر القانون رقم ١٠ سنة ١٩١١ بتكوين هيئة كبار العلماء هاجمه المرحوم الشيخ عبد العزيز جاويش ، لأنه كان يخشى أن يتسلل النفوذ الأجنبى الى هذه الهيئة فيوجهها عن طريق الحكومة الى خدمة أغراض لا تتفق مع صالح الأمة ورسالة الأزهر .

ثم قامت الحرب العالمية الأولى ، فكانت تركيا مع ألمانيا ضد انجلترا وحلفائها . ووقع ما كان يتوقعه الشيخ عبد العزيز جاويش من استخدام هذه الهيئة طائعة أو مكرهة فى توجيه الرأى العام ضد تركيا وحليفتها ، فصدر منها بيان يشتمل على آية « يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل اذا اهتديتم » . ولعل موقف تركيا من مصر ، وشعور المصريين بما كان من ظلم الأتراك فيها ، مما كان يسوغ اصدار مثل هذا البيان فى نظر الذين أصدروه ... ولكن شعور الأزهر بخاصة والمسلمين بعامة لم يكن فى هذا الاتجاه فيما يغلب على الظن .

وعلى أى حال فقد كان هذا الاتجاه ظاهرة بارزة فى الثورة العربية التى قادها الشريف حسين ضد تركيا ، فى الحركات التى انبعثت باسم القومية العربية فى سوريا ولبنان ، وفى اتجاه آمال كثرين من المصريين الى أن تكون « مصر للمصريين » .

لقد كان الرأى العام العربى الاسلامى فى بلبلة واضطراب ، ولم تكن الذكريات المريرة التى يعرفها العرب عن حكم الأتراك بحيث تثير حماسهم للدفاع عن دولة الخلافة ، أو تفتح قلوبهم لكلام يقال فى الدفاع عنها . ومن ثم يجب أن تلاحظ هذه الاعتبارات كلها فى الحكم على هذا البيان الذى أصدرته هيئة كبار العلماء ، وذكرت فيه المسلمين بقول الله تعالى : « يا أيها

الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل اذا اهتديتم » ... بل هنـاك الى ذاك اعتبارات أخـرى لابد من ملاحظتها عند الحكم على هذا الموقف . فقد كانت تركيا تحارب تبعا لألمـانيا ، ولم تكن أصيلة فى هذه الحرب ، وكانت الخلافة فيهـا — فوق أنها لم تقم على أساس شرعى — قد ضاق بها أهلها فى بلادها ، فكيف بغيرهم من العرب والمسلمين فى غير بلادها ؟

وقـد أشار الى ذلك الأستاذ المرحوم أحمـد أمين فى حديثه عن عبد الرحمن الكواكبى فقال : « وبلغ الضيق فى الشرق منتهاه فى عهد السلطان عبد الحميد ولكن شدة الضغط تولد الانفجار ، والقسـوة تفتق الحيلة ، وتوالى الاضطهاد يولد البغضاء ... فكثرت فى هـذا العهـد الجمعيات السرية ، تعمل لتحرير البلاد العثمانية من الظلم ، وتعمـل لوضع نظـام دىمقـراطى لا يكون فيه السلطان الحاكم بأمره . وفر كثير من العثمانيين الى أوربة يدرسون نظام الحكم الأوربى ، وما وصلت اليه أوربة من البحـوث الاجتمـاعية ، وأخـذوا يكتبون ذلك فى جـرائدهم ومجلاتهم التى يحررونها خارج الحدود العثمانية ، ومنها تتسرب الى البلاد نفسها . وأخذت مصر ، بعد انفصالها عن حكم العثمانيين ، تؤوى الأحرار ، وتؤيد الفول فى نقـد نظام الحكم . وظهرت فى الجرائد والمجـلات مقـالات بالعربية فى تشريح أحوال الجمـاعات وأصول الحكومات ، وترجم الى العربيـة « أصـول النواميس والشرائع » لمنتسكو ، وبدأت موجات البحث الاجتماعى فى أوربة تصل الى الشرق من طريق الترجمة وطريق المثقفين » .

هذا الى أن موقف علمـاء الأزهر من الخديو توفيق ، ومجاهرتهم بضرورة عـزله ، وموقفهم من محمـد على فى تعيينه وفى معارضته والتفكير فى عـزله بعد تعيينه كمـا قدمنا ، وموقفهم من المماليك والوالى التركى على رأسهم ... لم يكن يعتمـد على هوى الخليفـة ، أو يحسب حسابا لسخطه ورضاه ، وانما كان استجابة لمـا يرون فيه موافقة للدين ، ومحافظة على مصلحة الشعب .

على أى حال ، ومهما تكن هـذه الاعتبارات ، ومهما يكن حظ هذا البيـان من الحكمة وسداد الرأى ، أو من الخطأ وسوء التقدير ... فقد كان يتلاقى — من حيث يشعرون أو لا يشعرون — مع اتجاه القوة الحاكمة فى البلاد وقتذاك . وقد تكررت هذه المحاولة مرة أخرى فى الحرب العالمية الثانية ، فرفض الأستاذ الأكبر المرحوم الشـيخ محمـد مصطفى المراغى أن يصـدر بيانا بدعوة الشعوب العربية والاسلامية الى مناصرة الحلفاء ، مـع ما كانت ترتبط به مصر مـع انجلـترا من الالتزامات التى تضمنتها معـاهدة سنة ١٩٣٦ ... بل وقف على منبر مسجد الرفاعى فى يوم مشهود ، وقال كلمته المأثورة : « ان هذه الحرب لا ناقـة لنا فيها ولا جمل » .

معـارك داخلية

ويلاحظ المتتبع لتاريخ الأزهر فى الفترة التى أعقبت الثـورة العرابيـة عام ١٨٨٢ حتى قامت ثورة عام ١٩١٩ ، أنه كان يموج بحركة داخليـة ومعارك محلية . فقد تعاقب على مشيخته فى هذه الفترة شيوخ الأزهر الآتية أسماؤهم :

الشيخ شمس الدين محمد الانبابى ، والشيخ حسونه النواوى ، والشيخ عبـد الرحمن القطب الحنفى النواوى ، والشـيخ سـليم البشرى ، والشيخ على البيلاوى ، والشيخ حسونه النواوى (مرة ثانية) ، والشيخ سليم البشرى (مرة ثانية أيضا) ، والشيخ محمـد أبو الفضل الجيزاوى .

وكان تعيين هؤلاء واستقالتهم فى فترات قصيرة بأمر الخديو أو بايعاز منه ، أو باحراج يحملهم على التخلى عن المنصب .

وكان الخديو يعمد الى اثارة بعض الأزهريين على شيوخهم واستخدام بعض كبار شيوخهم ضد بعض . ومن أمثلة ذلك ماذكره الشيخ عبد الكريم سلمان فى كتاب « أعمال مجلس ادارة الأزهر » من « أنه فى أوائل المحرم من عام ١٣١٢ قامت قيامة أهل الفضل من العلماء على المرحوم الشيخ محمد الانبابى شيخ الجامع الأزهر اذا ذاك ، فرفعوا العرائض الى الجناب العالى مفعمة بأن شيخهم عاجز عن ادارة شئونهم ، وأنه خص أهل مذهبه الشافعية بخيرات الأزهر ، وأنه قصر عليهم كساوى التشريف على غير انصاف بين أهل مذهبه وبين بقية أهل المذاهب ... وما زالوا كذلك حتى أوقف الجناب العالى صدور الأوامر العالية بالانعام على من اختارهم الشيخ ، وخصهم بتلك الكساوى التشريفية » .

ثم يذكر الشيخ سلمان أن الخديو « أوعز الى مأمور رسمى عظيم بأن يحسن للشيخ الأنبابى الاستقالة من منصبه ، فتردد الشيخ طويلا ، ثم انصاع بعد الى تلك النصائح التى اعتبرها أمرا ، وقدم استقالته » .

حادثة رواق الشوام

ثم عين بعده الشيخ حسونه النواوى ، فصادفته صعاب كثيرة ، منها حادثة الثورة التى وقعت فى رواق الشوام .

فقد مرض أحد الطلبة فيه بالطاعون . ولما اتصل الأمر بالمسئولين عملوا على عزله ونقله الى المستشفى ، فأبى اخوانه تسليمه ، لأنهم تخوفوا أن يكون مصيره مصير زميل آخر أخرج ولم يعد . ثم اشتدت الملاحاة بين الأطباء والطلبة ، وأبلغ الأطباء أنهم أهينوا ، فحضر المحافظ الى الجامع الأزهر ، ومعه وكيل الحكمدار وكثيرون من الجنود ، فاعتدى الطلاب على المحافظ ، وقذفوه ومن كان معه بالحجارة ، فأصيب وكيل الحكمدار وجرح ، وكان باب الرواق مغلقا ، فطلب قوة عسكرية جديدة ، وضرب الحصار على الجامع .

ثم أمر الحكمدار العساكر بكسر الباب ، واطلاق الرصاص على الطلبة داخل الأزهر . وأطاع الجنود فخلعوا أحد أبوابه ، وأخذ الحكمدار يطلق النار ، فتبعه الجنود ، وتفرق الطلبة فى أنحاء المسجد ، ثم دخل الضباط والجنود ، وأخذوا يقبضون على كل من يجدونه دون تمييز بين طالب وعالم . فقبضوا على ٨٢ من الشوام ، و٢٣ من المصريين وفيهم بعض المدرسين . وأصيب بالرصاص خمسة مات بعضهم فى الحال ، وبعضهم بعد ذلك .

ويقول الشيخ عبد الكريم سلمان فى تعليقه على هذا الحادث : « انه قد أخذ على الشيخ حسونة تقهقره عن الذهاب الى المتهيجين منهم فى الرواق قبل اشتداد الثورة فيهم ، وموافقة الحكومة على ما طلبته منه ، وهو كتابة خطاب الى الداخلية يبين فيه خطأ الشوام ، وأنهم كانوا فى غاية من التعصب ، وعدم الانقياد للأوامر الرسمية ، يبرر بذلك اطلاق الرصاص عليهم ، واقفال الرواق عاما كاملا ، ومحاكمة الكثير منهم أمام المحاكم الأهلية ، ومعاقبتهم بشديد العقوبات ... فكان من هذا وذاك أن وقع الشيخ حسونة فى ألسنة الطلبة والعلماء والعامة والغوغاء ، فسلقوه فى مجالسهم » .

ثم يذكر أن مواقفه الأخرى العظيمة « جعلته يعود الى مكانته بين العامة والخاصة » ، ومن

هذه المواقف موقفه من محاولة الانجليز تعيين مستشارين من محكمة الاستئناف فى المحكمة العليا الشرعية ، وقد سبقت الاشارة اليه .

ثم عين بعده الشيخ عبد الرحمن القطب ، فلم يطل به العمر فى المنصب سوى شهر واحد . وعين بعده الشيخ سليم البشرى ، فكان همه الكبير ارضاء الخديو ، ثم أقيل فى نهاية أمره بعد ما كان بينه وبين كبار العلماء أمثال الشيخ بخيت المطيعى من خلاف حول تعيين الشيخ المنصورى شيخا لرواق الصعايدة ، وناظرا على أوقافه ، وبعد أن تغير الخديو عليه ، وأظهر اهماله وعدم الاهتمام به فى أكثر من مناسبة .

وبصفة عامة كان الأزهر مشغولا بما كان عليه أهله من سوء الحال ، وما كان عليه كبار علمائه من خلاف أخذ الخديو يذكيه ويستغله ... ثم كان هناك الى ذلك ، التفكير فى اصلاح البرامج وخطط الدراسة ، والشئون المالية للأزهر مما يشغل بال الأزهريين ... بل كان الاصلاح الداخلى بصفة عامة هو شغل المصلحين بعد فشل الثورة ، واستيلاء اليأس على النفوس .

ظلام اليأس والبؤس

ولكى يتصور القارىء حياة الفقر وسوء العيش التى كانت تسود الأزهر حينذاك ، أنقل له ما كتبه الشيخ عبد الكريم سلمان عن حال الأزهر ومرتبات الشيوخ ، ليدرك العناية الالهية التى أبقت الأزهر مع ما كان يعانيه ويقاسيه من ضروب الفقر والحرمان ... فان مجرد بقائه مع هذا يعد معجزة من المعجزات :

« تنقسم مرتبات الأزهر الى قسمين : سنوية ، وهو ما يسمونه « بدل الكساوى » ، وشهرية ومصرفهما معا العلماء المدرسون ، وأولاد من يموت من العلماء . وقد كان الأمر فيهما بنوعيهما موكولا الى شيخ الجامع الأزهر ، يعطى من يشاء ، ويمنع من يشاء . وكانت المرتبات السنوية (بدل الكساوى) تتجزأ أجزاء صغيرة ، بحيث يمكن لشيخ الجامع أن يعطى منها نحو مائة قرش فى العام أو أقل . وكانت المرتبات الشهرية تمنح لأناس دون آخرين ... فكان لبعضهم منها نحو ستة عشر قرشا فى الشهر ، ولكثير منهم الحرمان بالمرة ، وللقليل منهم ما فوق ستمائة قرش شهريا ...

« واذا انحل لموت أحد العلماء شىء من هذين القسمين ، رأيت بيت شيخ الجامع غاصا بالمتزلفين ، مزدحما بالراجين ، مملوءا بالشاكين البائسين ، ورأيت مباشر الأزهر — وهو كاتب بسيط — تتماوج بين يديه الفرجيات ذاهبات آيبات ... كل يرجوه ، وهو يعد أو يصد ، أو يؤمل أو يقنط . وربما انتهى الأمر بين الجرى والعدو بين البغالة والفجالة لتجزئة ذلك المنحل ، وضم أجزائه الى مرتبات بعض الأكابر ، وحرمان الخالين منها بالمرة . فيتربص الراجون والشاكون ينتظرون موت واحد منهم ، لعله ينالهم من مرتبه شىء يسير ...

« وانى لأعلم أن مجلس الادارة جاء وفى العلماء من ليس له مرتب أصلا — وهم كثيرون — وفيهم من له ستة عشر قرشا فى الشهر لا غير ، وفيهم من يمنى نفسه ، وفيهم من يئس ورضى بالخبز القليل ... أعرف واحدا منهم مات رحمه الله ، وقد عرضت عليه — لفقره وعلمى بحاله — بعض الشىء من مالى كل شهر ، فأبى علىّ ذلك ، وطلب منى أن أرجو شيخ الجامع حينئذ فى أن يعطيه شيئا ، ولو من مرتبات صدقات الأوقاف ... ففعلت ، ورضى بما توسطت له به عند الشيخ وهو نزر قليل ! » .

ومع هذا لم يمت الأزهـر ، ولم تغره المطامع بالتحلل من موقفه ، والتخلى عن جموده وعناده واصراره على أسلوبه التقليدى فى الدراسة التى ألفها وعرفها وقام عليها .

بل ان كبار علمائه ، على ما كان من بعضهم من مداهنة الخديو وملاينته ، والنظر اليه على أنه ولى الأمر والنعم ... لم نجـد منهم أى موقف يخل بشممهم وكبريائهم مع الانجليز أعداء البلاد وقد سعى « كرومر » ــ وهو الحاكم الأعلى ــ ليتعرف بشـيخه ، فقيل انه معتكف فى حجرته بالجامع ، لا يخرج منها ، ولا يغادر باب الأزهر لزيارة أحد مهما تكن مركزه عظيما .

يقول الأستاذ محمد عبد المنعم خفاجى فى كتابه الذى ذكرناه :

« وذهب اللورد لزيارة الأسـد فى عرينـه ، أو الناسك فى صومعته . وكان حينذاك فى ابان بطشه وقـوته ، يهـابه الكل ، ويسارعون لتلبية أمره . وقـد ظن أنه سيجد من شيخ الاسـلام تابعا ونصيرا ...

«ودخل الأزهر ، وسار بين أعمدته وعلى بلاطه ، فامتلأ رهبة وروعة ، وراعه الصمت السـائد ، والطلبة الذين يتحركون فى صمت وخشوع كأنهم الأشباح السارية . واستقبله وفد من المشايخ فى عمـائم كبيرة ، وأكمام واسـعة طويلة ، يطئى الحركة ، يسـيرون فى تؤدة ووقار ، ولا يحنون رءوسهم الا ساعة الركوع والسجود ...

« وسار بينهم يخترق الحجرات والأبهاء ، وهو يتجرد فى كل خطوة من ثياب جبروته وكبريائه ... حتى اذا وصل الى باب صغير أدى به السير اليه ، كان العميد البريطانى العظيم قد أصبح فردا يشعر بالضعف والخشوع ...

« وفتح الباب ، وتنحى الموجودون ... ودخل اللورد ، ومعه أحد ياوران السراى ، فرأى نفسه فى حجرة مجـردة من الأثاث والفـراش ، عارية الأرض ، مكشوفة البلاط ، ساكنة ، يكتنفها شىء من الظلام ، الا من شعاع ينفذ من نافذة نصف مغلقة وفى واجهة تلك الحجرة دكة عالية ، عليها قطعة من بساط ، وقد تربع فوقها شيخ الاسـلام والمسلمين ، فى ثياب بسيطة ، وفى يده مسبحة يعد خرزاتها ، ويتمتم بالتسبيح عليهـا ، وهو مطرق برأسه ، مستغرق فى نجواه ...

« وأدار اللورد نظره حوله ، فلم يجد مقعدا ، وتقدم خطوتين فلم يرفع الشيخ رأسه ، ولم يبادره بالتحية ، ولبث يتمتم نجـواه ، وهو فى سكون وجمود ...

« ووقف اللورد فى وسط الحجرة أمام الشيخ فترة طويلة خانته فيها أعصابه ، وارتبكت حـواسه ، وشعر بأنه يتضـاءل أمام ذلك الشـيخ النحيف الجسد ، السابح فى ذكره ، حتى لم يعـد يشعر بنفسه ...

« وبعد أن مرت فترة طويلة رفع الشيخ رأسه دون أن يتحرك من مكانه ، ونظر الى اللورد نظرة هادئة عميقة ، وقال بصوت لطيف : أهلا وسهلا .

« ثم مد اليه يده كما يمدها الملك الى أحد رعاياه ، وتقدم اللورد فتناول هذه اليد ولثمها بشفتيه ... واسترد الشيخ يده ، ثم قال له : « فى أمان الله ... فى أمان الله » ...

« وخرج اللورد يتعثر ، وقد أدرك أن فى مصر من هو أعظم منه شأنا ، وأقوى شخصية » .

كالمستجير من الرمضاء بالنار

وقد حدثت مع هذا عدة حوادث أو مواقف فى الأزهر ظهر فيها أثر الانجليز ، ولكنها كانت حوادث

فردية . وكان تدخل الانجليز فيها من وراء ستار ، وكان موقف الأزهـر فيها من الخديو والمعتمد البريطانى هو ذلك الموقف الذى يصفه الشـاعر بقوله :

والمستجير بعمرو عنـد كربته
كالمستجير من الرمضاء بالنار

من ذلك حادثة زاوية العميان ... وندع الشيخ عبد الكريم سلمان يصفها بقوله :

« ان شيخ تلك الزاوية التى هى رواق من أروقة الأزهر — وشيخها يوليه شيخه أو مجلس ادارته — كان قد رفع دعوى على ديوان الأوقاف أمام المحاكم الأهلية يطالبه فيها بما تأخر للعميان من استحقاقهم فى وقف المرحوم عبد الرحمن بك كتخداى . وكان الوكيل عنه فى رفع هذه الدعوى أحد مشهورى المحـامين الكبار ، وانتهى الأمر فيهـا بأن حكم للعميان على الديوان بمبلغ ٣٦٠٠ جنيه ، استحقوها فى السنين التى قبل رفع الدعوى ، وبأن يعاملوا فى المستقبل ، فيما يستحقونه من تلك الأوقاف ، على الوجه الذى حكم لهم بمقتضاه ...

«وطال الجدال بعد الحكم الانتهائى بين الديوان والمحامى فى أمر التنفيذ ، فلم يتفقا على شىء فيه . فاضطر المحامى الى استعمال الطرق القهرية ،وذهب المحضر الى الديوان ، وفتح خزائنه بالقوة القاهرة، ونفـذ الحكم فى ١٦ من أغسطس سنة ١٨٩٧ ، الموافق ربيع الأول سنة ١٣١٥ . واستلم المحامى المبلغ بوصف أنه وكيل عن شيخ العميان ، وذهب به الى بيته فرحا جذلا . وظن الطامعون أنهم قد ربحوا ، وأن الأمر قد وقف عند هذا الحد . ولم يكن ليخطر على بال المحامى أن وراءه من يراقب عليه ، ويحـافظ على ما قبضه على ذمة أولئك العميان .

« لما وصل خبر هذا التنفيذ القهرى الى المعية السنية ، وهى تعلم أن ديوان الأوقاف بمنزلة قلم من أقلامها هالها الأمر ، وفهمت أن الأزهر — وهو غرس نعمتها (! !) — قد سيطر عليها ، وأهان الديوان التابع لها بفتح خزائنه قهرا ، وأخذ ما فيها قوة واقتدارا ... ثم حتمت أنه لم يكن من حق الأزهر أن يعمل ما عمل . واذا فرض ووقع منه ما وقع ، فالواجب عليه أن يرد فورا ما أخذ ، واذا تأخر عن هذا الواجب كان مخطئا ، ومستوجبا لقطع الفيض (! !) عنه على الدوام ...

« ولما وصل نبأ هذا التنفيذ الى الأزهر — وهو يعلم قوة المحامى ، وقدرته على عمل أى أمر يريده مع هؤلاء العميان الضعاف — تدبر فيما يأخذه من الاحتياط لحفظ هذا المبلغ ، وعـدم ضياع شىء منه . وكانت قاعدة الفكرة أن المحكوم لهم من أفقر الفقـراء ، واذا نال الواحـد منهم جنيهـا أو جنيهين طار فرحا وسرورا ، لأنه لم يتعود أن يمس الجنيه بيـده ، فيأخـذ ما يعطاه ، وان لم يبلغ معشـار حقه ، ويمضى صـك الاستلام . فاستدعى مجلس الادارة شيخ هذه الزاوية ، وكتب اليه كتـابا فى ٢٨ من ربيـع الأول سنة ١٣١٥ ، الموافق أغسطس سنة ١٨٩٧ ، مضمونه أنه حكم على الأوقاف من محكمة الاستئناف بمبلغ ٣٦٠٠ جنيه ، وأن يسلم لشيخها . وقد تنفذ هذا الحكم ، واستلم المحامى المبلغ بصفته وكيلا ، وكلفه باستلام هـذا المبلغ من الوكيل ، واحضـاره الى خزينـة المشيخة ، حتى ينظر فى طريقة توزيعه ، لأن المشيخة هى التى لها السلطة العامة فى ذلك ...

« فأخذ شيخ الزاوية هذا الكتاب ، وسلمه الى المحامى ، فلم يمتثل ، وعارض أشد المعارضة فى خروج المبلغ من خزانته . فظهر لمجلس الادارة أنه لا يريد بالعميان خيرا ، فكلف شيخ الزاوية بأن

ينذر المحامى انذاراً رسميا ، فأنذره بتاريخ ٩ من سبتمبر سنة ١٨٩٧ بأن يحضر المبلغ الذى قبضه فى ذمة العميان الى خزانة الأزهر ليودع فيها حتى يضع مجلس الادارة قاعدة لصرفه على مستحقيه ، وان لم يفعل فى ظرف كذا ساعة ، عد مخالفا لمادة كذا من القانون ، لأنه وكيل فى قبض المبلغ ، وواجب عليه أن يؤديه عند الطلب لموكله ... فلم يكن من المحامى الا أنه اتفق مع بعض الأجانب (!!) على بيع بعض حصص العميان اليه ، وأنذر ذلك الأجنبى شيخ الزاوية وشيخ الأزهر والمحامى بتاريخ ١١ سبتمبر سنة ١٨٩٧ ...

« كل هذا والأزهر خالى الذهن مما فهمته المعية السنية فيه . ولم يكن من همه الا المحافظة على المبلغ من الضياع ، ولم يحفل بالانذار الذى أرسله الأجنبى باتفاقه مع المحامى . فان مطلوب لأزهر قد حصل ، وهو حفظ المبلغ جميعه بدون ن يضيع منه درهم ولا دينار ...

« بعد هذا ذهب المحامى الى بعض أهل الحل العقد فى الحكومة ، وأفهمهم أن الأزهر يريد سترجاع المبلغ لا ليعطيه الى مستحقيه المساكين ، كن ليعيده الى خزينة الأوقاف استرضاء للمعية سنية ، فوقر هذا القول فى أذهانهم ، لأنهم ماكانوا قلوا الا أن الأزهر سيكون آلة فى يد المعية تعمل ما تشاء (! !) . وجاهر المحامى بهذا القول ، ستعمل حرية فوق المعتاد ... حتى انه لما دعته ة الى الاسكندرية للاتفاق معه ، عاد يشيع ميص استرضائه ، وتمنعه عن الاجابة ، ونشر وة التى دعى بها فى الجرائد ليظهر أنه غير مبال المعية ، وليؤكد فى ذهن رجال الحكومة س به من قبل ، وهو أن الأزهر يبتغى مواساة برد المبلغ المحكوم به الى الأوقاف ...

الكارثة

« وقع الأزهر بعد هذا فى حيص بيص ... فالمعية فهمت أنه أهان الأوقاف ، ولم يراع حق النعم المغدقة عليه من وليها . والحكومة فهمت فيه أنه يريد رد مبلغ الفقراء الى الأوقاف وحرمانهم منه ، والمحامى ينادى على رءوس الملأ بأن الأزهر عامل على معونة الديوان ضد العميان ، حتى انه أثار فى رءوسهم الحمية ، فذهبوا الى سراى قصر الدوبارة يقود بعضهم بعضا ، يتكففون ويتعثرون ليسترحموا اللورد كرومر فى حفظ الحقوق . ولهم المعذرة ، فان المحامى أوهمهم بتلك المجاهرة ، وبتلك الحرية (! !) أنه يمكنه أن يفعل ما يريده ، وثبت فى أذهانهم أن الأزهر لا يريد بهم خيرا ... فالتبس الحق بالباطل على الكل ، وكاد الباطل يعلو على الحق فيزهقه ، ولكن الحق لا يعدم النصير ، والباطل لايلبث أن يجبن أمامه فى زمن قصير ... » .

ويمضى الشيخ عبد الكريم سلمان — وكان مع الشيخ محمد عبده عضوين فى مجلس ادارة الأزهر — فيذكر ما كان بعد ذلك من اطلاع رئيس الديوان على الحقيقة ، ومقابلة الخديو ، ثم الاتصال برئيس النظار لكشف أمر المحامى وما قصده من التشهير بالأزهر ومجلس ادارته ، ثم قال « وانتهى الأمر بأن المبلغ يوزع حالا بتمامه على المحكوم لهم ، وأن تذهب تلك الانذارات الصادرة من أولئك الأجانب هباء منثورا . وألزم المحامى باسترجاعها ، والاتفاق معهم فى شأنها ، وقضى بأن يكون التوزيع على ما يقدمه الأزهر من الكشوف ببيان أسماء المستحقين ، وبيان نصيب كل واحد منهم ، وأن يكون موزع هذه النقود هو حضرة عثمان بك مرتضى مدير الأقلام العربية فى الحقانية ...

« فاشتغل الأزهر بتحرير تلك الكشوف من دفاتره ، وقدمها الى موزع هذه الأرزاق ، فاستلم كل واحد منهم حقه بتمامه ، ولم ينل المحامى منها حتى ولا ما يسمونه الأتعاب « أجرة المحاماة » . وتحقق العميان أنهم كانوا مخدوعين ، وانطلقت ألسنتهم بالدعاء لمن كان سببا فى هذا الخير العميم » .

بين نارين

هذه الحادثة التى نقلناها عن كتاب « أعمال مجلس ادارة الأزهر » ، وبقلم واحد من الرجال الذين عاصروا حوادث الأزهر فى تلك الفترة — وكان الى ذلك عضوا فى هذا المجلس — تكشف للقارىء موقف الأزهر فى تلك الحقبة المظلمة من تاريخ مصر ... فقد كان بين حكومة محكومة بيد الانجليز ، تسخرها وتسيرها وفق ما تشاء ، وبين سلطة أخرى — هى سلطة المعية — يقوم عليها رجل يبدو فى نظر الأزهريين أنه الوالى الشرعى ، ويمتن عليهم بأنه ولى نعمتهم ، وصاحب الفيض السابغ عليهم . فاذا تطلع فريق من أهله الى استرداد حق لهم فى وقف من الأوقاف التى حبسها الخيرون ، كان ذلك خطأ يستوجب قطع الفيض ، واساءة لا تغتفر !

وقد عرفنا أى فيض كان هذا الذى تمتن به المعية . لقد كان أكثر العلماء لا يأخذون مرتبات ، وقليل منهم يأخذ الواحد منهم ستة عشر قرشا فى الشهر ، وأقل من هذا القليل — وهم الطبقة العليا — يأخذ الواحد منهم ستمائة قرش كل شهر . ثم تحسن حالهم فى هذا العهد ، فجعل الحد الأدنى لمرتب العالم ٧٥ قرشا فى الشهر ، والحد الأعلى ثلاثة جنيهات .

مدرسة القضاء الشرعى

ثم أنشئت مدرسة القضاء الشرعى عام ١٩٠٧ للميلاد ، بعد انشاء مدرسة دار العلوم من قبل فى عام ١٨٧٢ ، فأحس الأزهريون المصير المظلم الذى ينتظر الأزهر . ولعلهم شعروا بأن نية القضاء على جامعتهم قد بيتت بليل منذ أمد بعيد ، وأن هذه السياسة التعليمية الوافدة من الخارج انما هى استجابة لتلك النية الخفية ... فقد أصبحت الحكومة فى غنى عنهم ، لأن لها مدرسة لتخريج معلمى اللغة العربية وما يتصل بها فى مدارسها ، وها هى ذى تنشىء مدرسة لتخريج القضاة سيتقلص بها ظل الأزهر فى المحاكم ، فماذا بقى للأزهر بعد ذلك الا الامامة والخطابة فى المساجد ؟ وقد كانت وقتذاك تقوم بهما من تحسن قراءة الخطابة من ديوان قديم مشكول كديوان ابن نباتة .

الاضراب العام

وتهامس الأزهريون ، أساتذة وطلابا ، بالتذمر من هذه الحال التى آل اليها الأزهر ، وتلاقت أسباب كثيرة على ضرورة الاضراب عن الدروس وتصايح الطلاب بهذه الفكرة ، فانفجرت الثورة ... ووقف الشيخ حسونة الى جوار باب الأزهر يشهد صفوف الأزهريين تخرج متتابعة منه فتساءل : الى أين يا أبنائى ؟ — كما روى المرحوم الشيخ أبو العيون — فأجابوه : الى ديارنا وقرانا ... لقد تركناه ينعى من بناه . فبكى الشيخ بصوت منتحب ، وعاد ليقدم استقالته هو الآخر

واشتد خطر هذه الحركة حتى خشيت الحكومة مغبتها ، فأصدرت أمرا بتأليف لجنة من فتحى زغلول باشا ، وعبد الخالق ثروت باشا واسماعيل صدقى باشا لوضع القانون رقم لسنة ١٩١١ .

وقد عاد الأزهريون بعد ذلك الى الأزهر ، وكثر الاقبال عليه ، ووجدت معاهد أخرى فى عواصم المديريات وبعض المحافظات تابعة له ، متبعة لنظمه ، حتى بلغ عدد الطلاب فيه عام ١٩١٧ عشرين ألفا .

وهكذا نرى أن الأزهر فى الفترة التى انقضت بين الثورة العرابية وثورة عام ١٩١٩ للميلاد ، كان يعانى من كثرة المتاعب والمشكلات الخاصة ما جعل نشاطه محصورا فيها ، أو دائرا حولها . فلما انفجرت ثورة عام ١٩١٩ ، كان طبيعيا أن يكون دوره فيها رئيسيا ، وأن يكون منبره كما كان المنصة التى يرتقيها الأحرار ، ليوقدوا النار فى صدور الثوار .

الثورة ... عام ١٩١٩

ذلك أنه لم يكد يذاع نبأ القبض على سعد زغلول وزملائه حتى أسرع العلماء الى الرواق العباسى ، وعقدوا اجتماعا خطيرا فيه ، ثم انتخبوا من بينهم لجنة لكتابة المنشورات ، وتنظيم الخطابة فى الاجتماعات التى تعقد حول منبر الأزهر . كانت هذه اللجنة تتكون من أصحاب الفضيلة الشايخ : يوسف الدجوى ، ومحمد الأبيارى (وهما مكفوفان) ، ومحمد عبد اللطيف دراز ، وسليمان نوار ، ومحمود الغمراوى ، ومصطفى ساياتى ، وعلى سرور الزنكلونى ، ومحمود العيون .

وبدأ عمل اللجنة فى الحال ، فكتب الشيخ يمان نوار منشورا ثوريا طبع فى مطبعة سرية بحامين . وكان هذا المنشور — فيما يرى بعض من عاصروا هذه الثورة — هو أول عهد مصر بمنشورات ، ثم كان بيت الشيخ عبد اللطيف وفانى بعد ذلك فى الحلمية مثابة لتدبير هذه منشورات ، واحكام المؤامرات ضد الخونة .

واتجهت الحركة أول ما اتجهت الى حصار اليهود فى مناطقهم ، وقتل الأرمن أينما وجدوا ، لأنهم جاهروا بعدائهم للثورة ، ثم قتل ابن أليشع من كبار صاغة اليهود ، ولم يمض يومان على الحصار حتى طلبوا وفدا من الأزهر للاتفاق معهم ، فتوجه اليهم وفد مكون من بعض العلماء وكبار الطلاب ، فكان من العلماء المشايخ : الزنكلونى وأبو العيون والقاياتى ، ومن الطلاب محمد الطنيخى وعبد الحميد عرام ومحمود يوسف ومحمد شافعى البنا ... ثم عاد هؤلاء ومن ورائهم جموع كثيرة من طوائف مختلفة تعلن تضامنها مع الأمة فى ثورتها على الانجليز ... ثم كان القسس يفدون الى الأزهر ويخطبون على منبره ، ومن أشهرهم سرجيوس . وكان العلماء يذهبون الى الكنائس ، ويخطبون فيها ، وأظهر كنيسة أسهمت فى هذا النشاط الوطنى كنيسة حارة الروم ، وكان أول من ذهب اليها من العلماء الشيخ الزنكلونى والشيخ دراز .

ومضت الثورة تشتعل فى البلاد من أقصاها الى أقصاها ، ومضى الأزهر يغذى هذه الثورة بدماء أبنائه وألسنة خطبائه ، حتى عادت اليه مكانته التى كان عليها ابان الحملة الفرنسية ، وأقبل قادة الرأى وزعماء البلاد الى منبره يخطبون فوقه ، ويوجهون الشعب منه .

فكانت مقاطعة « ملنر » فكرة أعلنها الدكتور محجوب ثابت فى الأزهر ، وتلقفها عبد الرحمن بك فهمى فنفذها بدقة فى جميع أنحاء البلاد . وكانت فكرة الحرس الوطنى كذلك ، ثم نفذها الشيخ القاياتى والشيخ دراز ، فألفا فرقا لمنع اشتباك الوطنيين بالأجانب ، وحماية الأجانب من اعتداء الوطنيين .

ثم اعتقل الشيخ أبو العيون ، والشيخ دراز ،

والشيخ القاياتى وكثيرون من العلماء والطلاب ، فلم تنطفىء مع ذلك نار الثورة ... بل ظلت مشتعلة الأوار ، مشبوبة الضرام . وكان مسكن الشيخ محمد نور الحسن السودانى برواق السنارية هو مقر القيادة ، يجتمع فيه الطلبة وغيرهم من العلماء والوطنيين ، لتدبير ما يرون من خطط وتنظيمات .

وانتهت الثورة الى ما انتهت اليه ، ونشأت الأحزاب السياسية بعد انقسام الوفد ... فانتقل النشاط السياسى الى أنديتها ، وعاد السكون يخيم على الأزهر من جديد . ولم يكسب الأزهر من ثمرات هذه الثورة شيئا ، بل ذهب وفد من الأزهريين الى سعد زغلول يطلبون الاصلاح — وكان فيهم الشيخ الطنيخى — فصدمهم بأن اصلاح الأزهر هو أن يعود الى ما كان عليه أيام المعز لدين الله الفاطمى !

ووجد الأزهريون أنهم لم يتقدموا خطوة عما كانوا عليه ، بل كان العالم الذى يتخرج بعد خمسة عشر عاما فى الدراسة والتحصيل ، لا يظفر بوظيفة معلم الزامى فى القرية . فاذا طالبوا بالاصلاح قوبلوا بالجفاء والغلظة ، وارتفعت الصيحات فى الصحف تنادى بأنهم طلاب درجات وعلاوات ، حتى شعروا بأنهم غرباء فى بلادهم ، فثاروا على سعد ، واتهموا فى ثورتهم بأنهم يعملون لحساب القصر ، أو لحساب الأحزاب الأخرى التى تعتمد على القصر . ثم كان موقفهم من حكومة صدقى باشا عام ١٩٣٠ موقف غيرهم ، ولكن حظهم من الاضطهاد كان أكبر ، ففصل منهم سبعون عالما كان على رأسهم الشيخ الزنكلونى والشيخ دراز والشيخ حامد محيسن والشيخ شلتوت .

ثم ثار الأزهريون عام ١٩٣٥ ثورة كبرى انتهت باقصاء الشيخ الظواهرى عن الأزهر ، على الرغم من ارادة الملك فؤاد ، واخراج زكى الابراشى من القصر ، واعادة الشيخ المراغى الى الأزهر ، والعلماء المفصولين للتدريس فيه .

ولما أعلنت الحرب العالمية الثانية ، اعتقل كثيرون من الأزهريين مع غيرهم ، بحجة المحافظة على أمن الدولة وسلامتها . وكان من هؤلاء : توفيق الملط ، وأحمد الزنط ، وعبد الرحيم فوده (كاتب هذا البحث) ، وعبد المنعم المنمر ، وأحمد الحصرى ، وكثيرون غيرهم . لا تعى الذاكرة أسماءهم . وكان هذا الاعتقال بعد حادث ٤ فبراير المشهور .

تاريخ مصر والازهر

يقول الأستاذ محمد شفيق غربال : «ان تاريخ مصر لا يفهم الا بفهم تاريخ الازهر » . ومن يدرك القارىء أن ما قدمت من اشارات وحواد ليس الا معالم لصورة كبيرة لا يتسع هذا المكا لعرضها . وقد امتدت يد الغرض لتشويه تار مصر ، وتاريخ الأزهر من ورائها . وكان ذا لاعتبارات سياسية محلية ، واعتبارات سياس أجنبية . ولكن هذا التشويه لم يحجب الحقيقا وان حجب ضوءها بعض الوقت .

وقد ذكر « كرومر » أنه غير كل شىء فى مص واعترف بعجزه عن تغيير الأزهر . وهذا الاعتر يعنى أنه لم يغير شيئا فى جوهر مصر ، وانما سطحها ، وترك فيها بعض الحشائش والطفيا التى تنبت على السطح ولا تلبث أن تزول . الأزهر كان — ولا يزال — من مصر قلبها الد ولسانها الناطق ، وعلمها الرفيع الخفاق ا تتطلع اليه أنظار مئات الملايين من المسلمي جميع أنحاء العالم الاسلامى .

واذا كان المقام لا يتسع لعرض كل الحو والأحداث ، وأسماء الرجال الذين كانوا

الحوادث والأحداث التى وقعت فى مصر والشرق العربى والعالم الاسلامى ، واقترنت باسم الأزهر أو بأسماء الرجال الذين خرجوا من الأزهر ... فان هذا لا يعنى اهمال هذا الأمر ولفت الأنظار اليه ، والعمل على أساس هذه الحقيقة الناصعة ..

وسنرى فى الحديث عن مشيخة الأزهر وأروقته وحاراته ، وأجناس الطلبة فيه ، أى دور أداه هذا المعهد العتيد لخدمة الاسلام والقومية العربية ، وأى مكانة يحتلها هذا المعهد فى قلوب العرب والمسلمين .

شيوخ الأزهر

شيخ الأزهر هو الامام الأكبر لجميع رجال الدين ، والمشرف الأعلى على السيرة الشخصية الملائمة لشرف العلم والدين بالنسبة الى أهل العلم ، وحملة القرآن الشريف — سواء أكانوا منتمين الى الأزهر ، أم غير منتمين اليه — وهو المنفذ الفعلى العام لجميع القوانين والمراسيم والأوامر واللوائح والقرارات المخصة بالجامع الأزهر [1] .

وهو الذى يمثل الجامع الأزهر فى كل ما يتصل بشئونه قبل الغير من المصالح الحكومية والهيئات الأهلية والأفراد .

ويختار شيخ الجامع الأزهر من بين جماعة كبار العلماء ، أو من تتوافر فيهم الشروط الآتية : أن تكون سنه خمسا وأربعين سنة على الأقل ، وأن يكون معروفا بالورع والتقوى فى ماضيه وحاضره ، وحائزا لشهادة العالمية منذ خمس عشرة سنة على الأقل ، وأن يكون قد اشتغل بالتدريس مدة خمس سنوات على الأقل فى احدى كليات جامع الأزهر ، أو بالقسم العالى المقرر بالقانون رقم ١٠ لسنة ١٩١١ ، أو باحدى الكليات بجامعتى القاهرة والاسكندرية ، أو يكون قد شغل منصب مفتى الديار المصرية ، أو منصب عضو بالمحكمة العليا الشرعية .

ويعين شيخ الأزهر بأمر جمهورى ، ويصير من يعين شيخا للجامع الأزهر من غير جماعة كبار العلماء عضوا فى هذه الجماعة بحكم القانون [1] .

هذا هو منصب شيخ الأزهر على الوضع الذى انتهى اليه فى عام ١٩٤٥ للميلاد .

ناظر الازهر

يقول الأستاذ زكى محمد غيث فى بحثه « شيوخ الجامع الأزهر فى القرن الثانى عشر الهجرى » : « لم يكن للأزهر قديما شيخ يتولى رياسته الدينية ، ويدير شئونه الادارية ... بل كان يتولاه الولاية العامة سلاطين مصر وأمراؤها كباقى المساجد الجامعة بالديار المصرية ، ويباشر شئونه الداخلية مشايخ المذاهب الأربعة ومشايخ الأروقة ، يعاونهم خطيب المسجد ، والمشرف ومعاونوه من العمال والخدم » [2] .

ثم يذكر أنه فى عهد سلطنة الملك الظاهر برقوق ، أول سلاطين المماليك الثانية (البرجية) ، عين للأزهر ناظر عام ٧٨٤ للهجرة (١٣٨٢ م) . وكان (ناظر الأزهر) يختار من كبار موظفى الدولة . وكان هذا الناظر هو الأمير « بهادر الطواشى » كبير المماليك السلطانية . وكان (ناظر الجامع الأزهر) ينوب عن سلطان مصر ، أو حاكمها ، فى الاشراف على شئون الأزهر ، والقيام على تنفيذ الأمراء والأحكام السلطانية ، والسهر على رعاية

(١) مقتبس بتصرف من المادتين ٦ ، ٧ من القانون رقم ٢٦ لسنة ١٩٣٦ باعادة تنظيم الازهر . والمرسوم المعدل للمادة ٧ من هذا القانون الصادر فى ١٩٤٥/١٢/٢٦ .

(٢) مجلة الجمعية « الملكية » للدراسات التاريخية ، مايو ١٩٤٩ . وقد اشى عليه الاستاذ محمد شفيق غربال فى مجلة الازهر .

(١) مقتبس من المادتين ١ و ٥ من القانون رقم ٢٦ لسنة ١٩٣٦ .

مصالح الجامع الأزهر ، ومصـالح أهله من علماء وطلاب .

وقد عرف من « نظار » هذا العهد المملوكى أيضا الأمير « سودوب » القاضى وحاجب الحجـاب ، ولى « نظارة الأزهر » عام ٨١٨ هـ ، (١٤١٥ م) .

ولما استـولى الأتراك العثمانيون على مصر عام ٩٢٣ للهجـرة (١٥١٧ م) ، سـاروا على نهج من سبقهم من سلاطين مصر وأمرائها ، فحـافظوا على الأوضـاع المرعيـة فى الأزهر ، واهتموا برعاية شئونه ، والسهر على مصالح أهله . واقتدى الولاة العثمانيون بسـلاطين آل عثمان ، فعرفوا لهـذا المعهـد العلمى الدينى الاسلامى حقـه من الرعاية والتقدير ، وجـددوا به كل دارس ، وزادوا فى عمارته ، ووسعوا من رقعته .

وأوقف الأمـراء والولاة وكبار رجال الدولة والأعيان كثيرا من الأموال والأمـلاك والعقارات على علمائه وطلبته ... فاتسعت ادارته ، وتشعبت مصالح أهله ، وأصبحت الحاجة ماسة الى وجود شخص يتفرغ للاشراف على شئون هذا المعهد الدينية والادارية معا ، ويكون مسئولا مباشرا أمام الولاة والسلاطين ، وحلقة اتصال بين الحكومة وأقسام الأزهر المختلفة ... فاستحسنت الدولة العلية — قبـل نهاية القرن الحادى عشر للهجرة (السابع عشر للميلاد) — أن يعين للأزهر « شيخ عموم » يدير شئونه ، ويراقب أموره من تعاليم وغيرها ، ويلقب بشيخ الأزهر .

ومنذ العهـد التركى العثمانى والجامع الأزهر يحتفظ بهـذه الوظيفة التى تطورت مظاهرها ، واتسعت اختصـاصاتها بحسب تطورات الزمن ، ومقتضـيات الظروف والأحوال ، حتى آلت الى ما هى عليه الآن .

هذا القدر يكفى لاعطاء صورتين عن منصب شيخ الأزهر الآن ، ومنصبه أول ما أنشىء هذا المنصب ... كما يكفى لتصوير حالة الأزهر قبل ذلك ، من حيث ادارته والاشراف عليه .

شيوخ الازهر

أما شيوخ الأزهر على الترتيب فهم :

الشيخ محمد عبد الله الخرشى المالكى ، الشيخ ابراهيم ابرماوى الشافعى ، الشيخ محمد النشرتى المالكى ، الشـيخ عبد الباقى القلينى المالكى ، الشيخ محمـد شنن المالكى ، الشـيخ ابراهيم ابن موسى الفيومى المالكى ، الشـيخ عبـد الله الشبراوى الشافعى ، الشيخ محمد سالم الحفنى الشافعى ، الشيخ عبد الرءوف السجينى الشافعى الشيخ أحمد بن عبد المنعم بن يوسف الدمنهورى الشيخ أحمد العروسى الشافعى ، الشيخ عبد ا الشرقاوى الشـافعى ، الشيخ محمـد الشنوا الشافعى ، السيد محمد بن الشيخ أحمد العرو الشـافعى ، الشيخ أحمـد بن على بن أحمد الدمهوجى الشافعى ، الشيخ حسن بن محمد العطار ، الشيخ القويسـنى الشافعى ، الشـ أحمد بن الشيخ عبد الجواد الشافعى ، الشـ ابراهيم البيجورى الشافعى ، الشيخ محمد المه العباسى الحنفى ، الشيخ شمس الدين محمد الانبابى الشافعى ، الشـيخ حسـونه النو الحنفى ، الشـيخ عبـد الرحمن القطب الـ النواوى ، الشيخ عبد الرحمن الشربينى الشاف الشيخ حسونه النواوى ، الشيخ سليم البشـ الشيخ محمد أبو الفضل المالكى ، الشيخ ـ مصطفى المراغى الحنفى ، الشيخ محمد الأحـ الظواهرى ، الشيخ محمد مصطفى المراغى ، ا مصطفى عبـد الرازق ، الشـيخ محمد ـ الشناوى ، الشـيخ عبد المجيد سليم ، الشـ ابراهيم حمروش ، الشيخ عبـد المجيد ـ

الشيخ محمد الخضر حسين ، الشيخ عبد الرحمن تاج ، الشيخ محمود شلتوت .

الصراع حول المنصب

وقد اقترن هذا المنصب بصراع دام فى بعض الأحيان ، ولا يزال هذا الصراع يتجدد كلما خلا المنصب . وأول ما نطالعه من ذلك ما ذكره الشيخ « زكى غيث » عن الجبرتى من أنه بعد وفاة الشيخ النشرتى وقعت فتنة دامية بين أتباعه وأتباع الشيخ أحمد النفراوى ... فقد كان أولئك ينصرون الشيخ القلينى ويطلبونه ليدرس مكان شيخهم فى المدرسة الأقبغاوية ، وليكون شيخا للأزهر . وكان هؤلاء الذين يؤيدون النفراوى يريدون له المشيخة ، ويؤثرونه على الشيخ القلينى . ثم اشتد النزاع بين الفريقين حتى أدى الى التصادم واراقة الدماء ، واستخدام الأسلحة النارية بداخل الجامع الأزهر ، فقتل عدد من الأزهريين ، وتعطلت الصلاة بالأزهر فى هذا اليوم .

ثم انتهت الفتنة بتدخل كبار الشيوخ والسادة الأشراف والأمراء . وألزم الشيخ أحمد النفراوى العكوف فى بيته ، وثبت الشيخ عبد الباقى القلينى ، مشيخة الأزهر .

العريشى ... والعروسى

وقد وقع كذلك صراع حول هذا المنصب عندما خلا الشيخ الدمنهورى ، وخلا المنصب بوفاته . ان النزاع بين الأحناف والشافعية ... فانه حين مات السن بالشيخ الدمنهورى ، وأعجزه المرض مباشرة مهام منصبه ، وتوقع الناس وفاته بين وآخر ، تطلع الشيخ عبد الرحمن بن عمر بشى الحنفى الى شغل هذا المنصب بعد وفاة به . فتوسل الى تحقيق غرضه بدعوى أن خ الدمنهورى أنابه عنه ، وأعلن هذه الدعوى أمام شيوخ الأزهر وأمام شيخ البلد ابراهيم بك عندما كان يرافقه ويزور معه الأزهر .

ثم توفى الشيخ الدمنهورى ، وكاد أمر المشيخة يصير الى العريشى بمساعدة من كانوا يناصرونه من العلماء والأمراء ... ولكن السادة الشافعية أبوا ذلك عليه ، ورفعوا الى ابراهيم بك ومراد بك ينكرون على الشيخ العريشى تولى مشيخة الجامع الأزهر ... لأن المشيخة — كما جاء فى ملتمسهم — « من مناصب الشافعية ، وليس للأحناف فيها قديم عهد ... وخصوصا اذا كان متوليها آفاقيا كالشيخ عبد الرحمن العريشى ، وان فى علماء الشافعية من هو أهل لذلك علما وسنا » .

وقد اقترحوا أن يعين الشيخ أحمد العروسى شيخا للأزهر . ولكن الأمراء المماليك أنكروا على الشافعية هذه الحجة ، وقالوا : « أليس الحنفية مسلمين ؟ وان مذهب أبى حنيفة أقدم المذاهب ، والأمراء أحناف ، والقاضى حنفى ، والوزير حنفى ، والسلطان حنفى » .

وغضب الشافعية لرفض ملتمسهم ، فاجتمعوا ، وتوجهوا الى مسجد الامام الشافعى رضى الله عنه ، وقرروا الاعتصام به حتى يجاب مطلبهم .

وتجمع الناس حول المسجد ، وانتهى الخبر الى الأمراء ، فاهتموا للأمر ، وسعى الوسطاء بين الفريقين ... حتى انتهى الموقف باقرار الشيخ العريشى شيخا للحنفية ، والشيخ العروسى شيخا للشافعية ، والشيخ الدردير شيخا للمالكية . أما منصب شيخ الأزهر فلم يبت فيه برأى ، وظل علماء الأزهر وطلابه منقسمين الى حزبين : حزب يناصر الشيخ العريشى ومعه الأمراء وطائفة الشوام والمغاربة ، وحزب يناصر الشيخ العروسى وجماعته ، ويصر على رأيه .

ثم ظل الخلاف يتفاقم ويتعاظم الى أن حدثت بين الطلبة الأتراك والشوام حادثة كانت هى السبب فى حسم الموقف ... فقد اشتجر أولئك وهؤلاء ، وظهر من الشيخ العريشى تعصب لبنى جلدته من الشوام ، فتعصب الأتراك كذلك لاخوانهم ، وتدخلوا لنصرتهم ، وأعلنوا غضبهم واستياءهم من الشيخ العريشى وبنى وطنه ، وتعقبوه ليضربوه ، فاختفى وفر الشوام من رواقهم . وكان ذلك هو السبب فى عزل الشيخ العريشى ، وتثبيت الشيخ العروسى فى منصب مشيخة الجامع الأزهر عام ١١٩٣ للهجرة (١٧٧٩ م) .

الظواهرى ... والمراغى

وقد ظل هذا المنصب مثار التنافس والنزاع بين كبار العلماء ، واستغل الولاة والحكام هذا التنافس فى الايقاع بين رجال الأزهر ، وضرب بعضهم ببعض ... حتى كانت ثورة الأزهريين الكبرى ضد الشيخ الظواهرى عام ١٩٣٥ . فأعفى من منصبه ، وعين مكانه الشيخ المراغى نزولا على الرغبة العامة .

وقد أقيم له حفل تكريم كبير برياسة الشيخ عبد المجيد اللبان عميد كلية أصول الدين ، حضره زعماء البلاد جميعا بسراى معرض الجزيرة فى شهر يوليو من عام ١٩٣٥ . وقد خطب فيه الشيخ الزنكلونى خطابا قويا قال فيه : « اذا تنكب الأزهر الطريق يوما ، فليس ذلك من طبيعة الدين الذى يقوم على حفظه . وانما منشأ هذا التنكب هو القوى التى تتسلط عليه ، وتوجهه الى طريقها . واذن لا تلوموا الأزهر ما دام غير قائم على قدميه بنفسه ، وانما اللوم على من يمتلكون أمره ، ويوجهونه حيث تأبى طبيعته أن تتوجه » . واسترسل الرجل العظيم ، ثم خانته أعصابه ، فبكى وبكى معه بعض الحاضرين فى حفل أقيم للتكريم .

وزير يعين شيخا للأزهر

ولما توفى الشيخ المراغى ، تطلعت الأعين الى هذا المنصب — كما هو الشأن دائما — وثار النزاع حول من يكون شيخا للأزهر . وافترق الأزهريون فريقين أو عدة فرق : فريق يرى تعيين الوزير الشيخ مصطفى عبد الرازق شيخا للأزهر . وفريق كان يتمسك بالقانون ، ويرى أنه يحول دون تعيينه فى هذا المنصب ، لأنه ليس من جماع كبار العلماء . وكان على رأسه المرحوم الشي عبد المجيد سليم والشيخ مأمون الشناوى وكلاهما كان يرشحه بعض الأزهريين لهذا المنص الخطير .

وقد انتهى الأمر بتعديل القانون على نحو يب تعيين من اشتغل بالتدريس فى الكليات الجامعي من العلماء شيخا للأزهر . وعين الشيخ مصط عبد الرازق فى هذا المنصب استجابة لر الكثرة من الأزهريين ... ولكن مدة اقامته في تطل ، فتوفى رحمه الله قبل أن يمضى فى اص الأزهر خطوات . اذ ثارت من حوله الأعاص وسمع بأذنيه الهتافات التى لم يتعود سماء ففاضت روحه فجأة وهو يؤدى الصلاة أمام ا

وهكذا كان هذا المنصب ، ولا يزال ، ، لكثير من المشكلات والمنازعات ، مما كان له بعيد فى سير الدراسة واستقرارها .

طريقة التدريس

كانت طريقة التدريس فى الأزهر هى الطر التى كانت تقوم عليها الدراسة فى غير المساجد قبله — كجامع عمرو وجامع ابن طول فكانت الدروس تعقد به حلقات يتصا

حلقة أستاذها ، وقد يجلس على كرسى ليتمكن من اسماع طلبته اذا كثروا أمامه وكانت الدراسة تقوم على النقاش والحوار بين الطلبة والأستاذ بما يثقف العقل ، وينمى ملكة الفهم . وظلت الدراسة على هذه الحال الى عهد قريب .

ويصف على باشا مبارك هذه الطريقة فى « خططه » فيقول :

« كان فى السابق لكل أهل مذهب من المذاهب الأربعة عمد معينة من عمده ، لا يجلس فى التدريس بها غيرهم ولو وقع لحصل الشقاق والقتال بينهم ...

« ولكل شيخ من أهل المذهب عمود لا يتعداه ، ولا يتعدى أحد عليه ... لكن لا يشدد على ذلك كتشديد تعدى اهل مذهب على مذهب ...

« والمتكلم على ذلك مشايخ المذاهب كشيخ المالكية ، وشيخ الحنفية واذا تفاقم الأمر يرفع الى شيخ الأزهر ...

« ويجلس الشيخ أمام العمود مستقبلا ، الطلبة حلقة حوله ، فاذا كثروا جلس على كرسى ن خشب أو جريد ، وهم أمامه بلا تحلق ...

« وكانت العادة سابقا ألا يجلس على الكرسى نحو شيخ الجامع ، ولا يمكن ذلك من غيره . بطل هذا فجلس كثير من العلماء على كراسى ...

« ولكل طالب مكانه لا يتعداه ، ويقيم من س فيه فاذا جلسوا ابتدأ الشيخ بالبسملة صدلة والصلاة على النبى ثم يقرر لهم الدرس قة ، وهم يقابلون عليه فى الورق ، ويسألونه دا لهم . وبعد ختم الدرس يقومون لتقبيل لو كبارا وليس على الشيخ أن يلاحظ حال ب من الاجتهاد أو التكاسل ، أو حضور ة ... بل هو موكول الى نفسه ، الا أن يكون وليا عليه من نفسه أو وليه . يلتفت الى حفظ المتون قبل زمن الحضور أو معه ، فيحفظ جميع المتون أو بعضها فينجح فى مسعاه لأن من حفظ المتون حاز الفنون ...

« وقبل حضورهم حلقة الدرس ، لابد أن يطالعوه بالدقة متنا وشرحا وتقريرا ، مرة فأكثر ، جماعات وفرادى ...

« وقد يطالع الشيخ عليه مواد أخرى حتى يكون مستحضرا لأطراف المسألة ، وما يرد عليها وما يجاب به ... وكذا كبار الطلبة ...

« وكانت العادة فيه غالبا أن أفضل الطلبة يطالع لباقيهم درس شيخه مطالعة بحث وتفتيش ، حتى يأتوا الى الشيخ وهم متهيئون لما يلقيه » .

« قال فى « خلاصة الأثر » : « وكان الشيخ سالم بن حسن الشبشيرى ، شيخ وقته ، يطالع لجماعة شيخه النور الزيادى درسه على عادة مشايخ الأزهر ...

« وكثير منهم يحصل الكتب التى حضرها ، فيملكها بشراء أو نسخ بيده أو غيره ... خصوصا الرسائل الصغيرة ...

المدرسون

« وكان لا يتصدى للتدريس الا من مارس الفنون المتداولة بالأزهر ، وتلقاها من أفواه المشايخ ، وصار متأهلا للتصدر ، حلالا للمشكلات ومعضلات المسائل ، فلا يحتاج لاستئذان ، الا من جهة الأدب والبركة ...

« وانما يعلم بعض المشايخ والطلبة ، فيحضرون درسه ويتراكمون عليه ، وهو يتأنق فى الابتداء ، ويسلك فيه طريق الاغراب والتوغل . وبعض الحاضرين يتعصب عليه ويتعنت ، والبعض ينتصر له واذا تلعثم فى الاجابة ربما أقاموه ، ومنعوه من التصدر ، واذا عاند ربما ضربوه ...

« ثم تساهلوا فى ذلك حتى صار من يتصدر لا يتعرض له أحد ، حتى كثر المتصدرون . وصار فيهم من لا أهلية فيه .

« ثم لما تولى مشيخة الجامع الشيخ مصطفى العروسى تنبه لذلك ، وهم بمنع غير المستحقين للتصدر ، وعزم على عمل قانون يجرى عليه المشايخ فى تصدرهم ... ففاجأه العزل عن المشيخة فى سنة سبع وثمانين ومائتين وألف . وصار الى الشيخ محمد المهدى الحفنى العباسى الحنفى ، فأراد أن يمشى على الطريقة التى كان عزم عليها الشيخ مصطفى العروسى لما رأى فى ذلك من المصلحة العائدة على العلم بالحفظ وعدم الابتذال ، فاستأذن عزيز مصر الخديو الأعظم فى عمل قانون الامتحان لكل من يريد التدريس من المستجدين » .

الاجازات العلمية

لم يكن للأزهر قبل صدور هذا القانون شهادات معينة ، انما كانت هناك اجازات علمية تمنح للطلاب من أكابر العلماء ، متى كمل استعدادهم ، ونضجت مداركهم ، واصبحوا أهلا للتدريس أو الافتاء . وقد تمنح الاجازة فى مادة معينة أو كتاب خاص متى أتم الطالب دراسة هذه المادة أو حفظ هذا الكتاب بحيث يمكنه تدريسها أو تدريسه .

وقد ذكر القلقشندى فى كتابه « صبح الأعشى » طائفة من هذه الاجازات ، نذكر منها بعض ما جاء فى اجازته هو (القلقشندى) التى أخذها من العلامة سراج الدين أبى حفص عمر ، الشهير بابن الملقن ، وكتبها القاضى تاج الدين بن غنوم .

فقد جاء فيها بعد البسملة والديباجة ما يلى :

« ولما كان فلان — أدام الله تسديده وتوفيقه ، ويسر الى الخيرات طريقه — ممن شب ونشأ فى طلب العلم والفضيلة ، وتخلق بالأخلاق المرضية الجميلة ، وصحب السادة من المشايخ والفقهاء ، والقادة من الأكابر والفضلاء ، واشتغل عليهم بالعلم الشريف اشتغالا يرضى ، والى نيل السعادة ان شاء الله يفضى ... استخار الله تعالى سيدنا وشيخنا وبركتنا ، العبد الفقير الى الله تعالى ، الشيخ الامام العلامة ، الحبر البحر الفهامة ، فريد دهره ، ونسيج وحده ، جمال العلماء ، أوحد الفضلاء ، عمدة الفقهاء والصلحاء : سراج الدين ، مفتى الاسلام والمسلمين ، أبو حفص عمر بن الملقن ... الخ .

« وأذن وأجاز لفلان المسمى فيه ، أدام الله معاليه ، أن يدرس مذهب الامام المجتهد المطلق : العالم الربانى ، أبى عبد الله محمد بن ادريس المطلبى الشافعى ، رضى الله عنه وأرضاه ، وجعل الجنة متقلبه ومثواه ... وأن يقرأ ما شاء الله من الكتب المصنفة فيه ، وأن يفيد ذلك لطالبيه — حيث حل وأقام ، كيف شاء متى شاء ، وأين شاء — وأن يفتى من قصد استفتاءه خطا ولفظا ، على مقتضى مذهبه الشريف المشار اليه ... لعلمه بديانته وأمانته ، ومعرفته ودرايته ، وأهليته لذلك وكفايته ... وكتب فى تاريخ كذا » .

وقد ذكر صيغة اجازة أخذها ابنه من الشيخ شمس الدين محمد بن عبد الدايم ، تتضمن أن أتقن حفظ كتاب « المنهاج » فى الفقه للنووى ، ٨١٣ للهجرة .

القانون الأول

وقد عالج قانون عام ١٢٨٨ هـ (١٨٧٢ م) عيب هذا النظام ، فنظم طريقة الحصول على الشهادة العالمية ، وبين المواد التى يمتحن فيها الطالب الحصول عليها ، ورتبها على ثلاث درجات —

ذكرنا — أولى ، وثانية ، وثالثة ، وجعل منحها بأمر أو براءة من ولى الأمر ... وبذلك وضع أول حجر فى بناء الاصلاح ، ومنع أن يدعى العلم من ليس من أهل العلم . أما مواد الدراسة ، وطريقة تدريسها ، فلم يمسها بتعديل أو تبديل ... بل بقيت كما كانت ، وبقى حرص الأزهريين عليها كما كان . ولعلها انتقلت من سيىء الى أسوأ . وقد وصف الأستاذ أحمد أمين هذه المواد والكتب التى كانت تدرس فى هذه الفترة فقال :

« كل الكتب التى تدرس فى الأزهر من نتاج العصور المتأخرة ، تحدرت من العصور الزاهية ، ولكن عدا الزمان عليها ، فأفقدها روحها ، فصارت شكلا ... النحو كان يراد منه النطق الفصيح والكتابة الصحيحة ، وفهم كتب الأدب فهما صحيحا ، فصار مجرد تفهم لألفاظ المؤلفين فى النحو . وأصول الفقه كان يقصد منها التمرين على الاجتهاد فى التشريع ، فأصبحت ولا اجتهاد ولا تشريع . والبلاغة كان يقصد منها كيف يكتب القول البليغ ، فصار المؤلفون فيها أعاجم لا يحسنون التعبير كالسعد التفتازانى ... حتى أباح لنفسه الشيخ أحمد الرفاعى أن يدرس أكبر كتاب فى البلاغة وهو المطول ، ثم يعترف أنه لا يحسن أن يكتب رسالة ، ولو غير بليغة ، لأن هذا من عمل لاميذ المدارس المدنية ...

« واشتهر من فطاحل هذا العصر : الشيخ أحمد رفاعى ، وأساس شهرته أنه يحسن فهم الكتب ، يستطيع تحليل الجمل واثارة الشبهات حولها ، تى يعقد السهل ، ويغمض الواضح . والشيخ يش ، وهو شيخ من أصل مغربى ، شهرته فى ينه وعصبيته ، ورميه الناس بالكفر لأوهى سبب ميق أفقه ، وشدة غيرته على الدين بالمعنى الذى مه ...

« ولكن كان هناك آخرون هيأتهم الظروف لأن يتصلوا بالدنيا وحركة التعليم المدنية ، فاتسع أفقهم : كالشيخ البسيونى امام المعية ، وكان ظريفا فى شكله وفى ملبسه وفى تأليفه . والشيخ حسن الطويل ، وكان ذكيا حكيما له نظرات فى الحياة صائبة ، يقرأ الفلسفة فيرمى بالزندقة ...

« هذا هو الأزهر الذى رآه محمد عبده يقوم التعليم فيه على الفلسفة اللفظية ، ويعلم طالبه الدقة فى الفهم والقدرة على الجدل ... وهذه محمدة ، ولكن مع الأسف لا تستخدم هذه الدقة ولا الجدل الا فى الألفاظ ، وتجعل صاحبها غارقا فى الاحتمالات بما يراه فى الحواشى والشروح من التأويلات ، فكل شىء يجوز حتى دخول الجمل فى البندقة — على حد تعبير الشيخ محمد عبده نفسه — يتم الطالب الدراسة فيه فيخرج فاهما لبضعة كتب . أما الدنيا وشئونها فانه يجهلها كل الجهل : فلا جغرافية ، ولا تاريخ ، ولا طبيعة ، ولا كيمياء ، ولا رياضة . . »

الاصلاح

كانت نظرة الأزهريين ، كما قدمنا ، الى محمد على وبنيه ، والى كل ما جد فى عهودهم من تغيرات شملت نواحى التعليم فيما شملت ، نظرة ارتياب وشك . وكان موقفهم الجامد على ما ورثوا من مخلفات وثقافات نتيجة معقولة لهذه النظرة الحذرة . ثم كان « دنلوب » بعد الاحتلال البريطانى هو القابض على زمام التعليم فى مصر ، فكان ذلك مما يزيد موقف الأزهريين جمودا وتعقيدا .

ولكن صيحات الاصلاح التى جهر بها الشيخ محمد عبده لم تذهب هباء فى الهواء ، بل تفتحت لها آذان ، ووعتها أذهان ، وتحمس لها مؤيدون ، وان كانوا القليل أو أقل من القليل ... فقد كان جمهرة الأزهريين — وبخاصة كبار علمائهم —

ينظرون الى الشيخ محمد عبده كذلك نظرة شك وارتياب وقبل أن نلومهم على ذلك ينبغى أن نذكر الظروف التى جعلتهم يقفون منه هذا الموقف ... فقد عرف لديهم أنه عاد الى مصر من منفاه بعد أن قبل اللورد كرومر شفاعة أصدقائه ، وضغط على الخديو حتى سمح له بالعودة ، وعرف لديهم أنه بعد عودته من منفاه وضع تقريرا بما يراه من وجوه اصلاح التعليم فى مصر ورفعه الى اللورد كرومر لا الى غيره ، فكان ذلك بمثابة التسليم بأنه القوة الفعالة فى مصر — كما يقول أحمد أمين — ثم عرف لديهم بأنه يسالم الانجليز ويتعاون معهم

وهذه ظروف ، مهما تكن لها من مبررات ، من شأنها أن تهيج شك الأزهريين فيه ومعارضتهم له ، وان كان أوفق منهجا ، وأصدق قيلا ... فقد كان — كما يقول الأستاذ أحمد أمين — يرى أن جلاء الانجليز لا يأتى الا من طريق استنارة الشعب ، وفهمه لحقوقه وواجباته ، وغضبه من الاعتداء على حقوقه ، وهمته فى أداء واجباته ومصر لم تكن تبلغ هذا المبلغ ، ووسيلة اصلاحها التعليم ثم يرى أن مسألة مصر لا تحل بمواجهة مصر لانجلترا ، بل بالحالة الدولية العامة ، والتفات الدول الى أن مصلحتها فى استقلال مصر ... والى أن يحدث ذلك يجب على القادة أن ينيروا الشعب بالتعليم ، ولا يجعلوا كل همهم الاشتغال بالسياسة .

مجلس ادارة

مع هذا كله أثمرت دعوة الاصلاح التى قام بها الشيخ محمد عبده ، وصدر فى يناير من عام ١٨٩٥ قانون بتشكيل مجلس ادارة الأزهر ثم عين فى هذا المجلس اثنان من موظفى الحكومة هما الشيخ محمد عبده ، والشيخ عبد الكريم سلمان ، وثلاثة من أكابر العلماء الأزهريين غير الموظفين : أحدهم شافعى وهو الشيخ حسن المرصفى ، والثانى مالكى وهو الشيخ سليم البشرى ، والثالث حنبلى وهو الشيخ يوسف النابلسى شيخ مذهب الحنابلة اذ ذاك .

ثم كان أول ما بحث فيه المجلس ، هو وضع قانون المرتبات وقد تقرر فيه أن المرتبات السنوية لا يمكن أن ينقص المرتب منها عن اثنى عشر جنيها فى العام ، ولا أن يزيد على ثلاثين جنيها وثلثى جنيه ، وبينهما درجات ترتفع الواحدة عما تحتها ثلاثة جنيهات ، وأن المرتبات الشهرية لا يمكن أن تنقص عن خمسة وسبعين قرشا ، ولا أن تزيد على ثلاثمائة قرش

ثم نظر المجلس فى التدريس والتعليم والامتحان ، فوضع مشروع قانون عام ضمنه خصائص الادارة العمومية ، وما لمجلس الادارة ولشيخ الجامع من الأعمال ، وشروط الانتظام فى طلبة الأزهر ، ومدة طلب العلم ، والمسامحات والعلوم التى تدرس فى الأزهر ، وبيان المقاصد منها والوسائل وجعل الامتحان امتحانين . أحدهما لنيل شهادة الأهلية ، والثانى لنيل شهادة العالمية واضافة علوم أخرى الى العلوم التى كانت تدرس بالأزهر ، وهى تاريخ الاسلام ، وصناعة الانشاء ، ومتن اللغة وآدابها ، وتقويم البلدان ، ومبادىء الهندسة .

ثم رفع المجلس مذكرة ببيان المبالغ المحتاج اليه الى الخديو ، فأصدر أمره الى ديوان الأوقاف بتقريرها فى ميزانية سنة ١٨٩٧ .

وهذا بيان تلك المبالغ التى قررت لتنفيذ القانون مع بيان مصارفها (نقلا عن كتاب « أعمال مجلس ادارة الأزهر ») :

جنيه
٦٠٠ لأربعة وعشرين عالما
٦٠٠ مكافأة للطلبة
٦٠٠ مكافأة لمشايخ الأروقة والحارات وللملاحظين
٦٠٠ لعلوم الحساب وتقويم البلدان والتاريخ الاسلامى
٣٦٠ للخط
١٥٠ مصارف الادارة العمومية للأزهر
٤٦٤ لدار الكتب الأزهرية

٣٣٧٤

ويذكر الشيخ عبد الكريم سلمان أن المبلغ الذى قرر لمكافآت الطلبة ، كان الغرض منه بث روح الغيرة فيهم ، وترغيبهم فى تحصيل العلوم المتداولة فى الأزهر ، وأن يكون تحصيلهم لها على وجه يبقى معه ما حصلوه منها راسخا فى الذهن ، لا أن يكون مقصورا على مجرد فهم العبارات والمناقشات اللفظية ... ولهذا وضع المجلس قرارا بصرف هذا المبلغ على الطلاب قرر فيه أن يعمل لهم امتحان اختيارى فى آخر كل سنة دراسية فى أى علم من العلوم التى تقرأ فى الأزهر ، وحدد أوقات الامتحان وكيفيته ، وأن يكون تحريريا ، وأن توزيع المكافآت على الناجحين يكون بنسبة ما حصلوه ونجحوا فيه ... وذلك فى أول العام الدراسى بمحضر من شيخ الجامع ، وأعضاء مجلس الادارة ، وكل أفاضل العلماء فى الأزهر .

العلوم الحديثة

وقد بعثت هذه المكافآت همم الطلبة ، وحركت نشاطهم الى تعلم العلوم الحديثة . ثم رأى المجلس أن يستطلع قوة المشتغلين بالعلوم الحديثة مع العلوم القديمة ، وحال المقتصرين على القديم . فقرر أنه لا يقبل طلب امتحان المكافأة فى علم من العلوم الحديثة وحده ، بل لابد أن يصحب بثلاثة علوم على الأقل من العلوم المتداولة ، وأن من يريد الامتحان فى العلوم القديمة وحدها فله ذلك دون حجر عليه ، ثم تبين بعد الامتحان أن الذين نجحوا فى العلوم القديمة ، مع اشتغالهم بالعلوم الحديثة ، أكثر من الذين نجحوا مع اقتصارهم على العلوم القديمة ... وقد سجل المجلس ذلك فى تقريره السنوى مدعوما بالأدلة والأرقام .

اسس جديدة

وفى عام ١٩١١ ، بعد ثورة الأزهريين التى أشرنا اليها ، وبعد انشاء مدرسة القضاء الشرعى ، صدر قانون جديد بتنظيم الدراسة فى الأزهر على أسس جديدة . فكان من أهم ما تضمنه تقسيم الدراسة فى الأزهر الى مراحل لكل منها نظام خاص ومواد مخصوصة ، وانشاء هيئة للاشراف على شئون الأزهر برياسة شيخ الجامع الأزهر ، تسمى « مجلس الأزهر الأعلى » ، وانشاء هيئة كبار العلماء ، واضافة مواد التاريخ والجغرافيا والرياضة ومبادىء الطبيعة والكيمياء الى مواد الدراسة القديمة .

وقد جاء فى المادة الأولى من هذا القانون : أن الجامع الأزهر هو المعهد الدينى العلمى الاسلامى الأكبر ، والمعاهد الأخرى هى : معهد مدينة الاسكندرية ، معهد مدينة طنطا ، معهد مدينة دسوق ، معهد مدينة دمياط . وكل معهد يؤسس فى القطر المصرى بارادة سنية . وكذا كل معهد أهلى يتقرر الحاقه بالجامع الأزهر أو بأحد المعاهد الأخرى بالشروط والأوضاع التى تبين فى لائحة يضعها المجلس الأعلى ، ويصدق عليها بارادة سنية .

وقد جاء فى المادة الثالثة : أن مدرسة القضاء الشرعى تكون قسما ملحقا بالجامع الأزهر ،

وتبقى حافظة لنظامها المقرر لها فى قانون ٢٥ فبراير عام ١٩٠٧ . ويحل مجلس الأزهر الأعلى محل ناظر المعارف العمومية فى جميع الاختصاصات التى له الآن بمقتضى القانون المشار اليه .

اقسام للتخصص

وقد رئى بعد ذلك أن الأزهر فى حاجة الى أقسام أخرى يزداد فيها العالم تمكنا فى المواد الأزهرية الأصيلة ، فأنشىء قسم للتخصص فى عام ١٩٢٣ . وكان هذا القسم يتكون من عدة شعب ، منها : شعبة الفقه والأصول لاعداد المتخرجين فيها لتولى وظائف القضاء الشرعى — وكان ذلك تمهيدا لالغاء مدرسة القضاء — ومنها شعبة البلاغة والأدب . ثم توجهت العناية الى التوسع فى دراسة العلوم الحديثة فى المرحلتين الابتدائية والثانوية بالمعاهد الدينية ، فزودت هذه المعاهد بالمعامل اللازمة لهذه الدراسة ، وأنشىء لهذه العلوم تفتيش مستقل مقره ادارة الأزهر .

عزل الأزهر

مع كل هذه المحاولات التى بذلت لانهاض الأزهر ، والتعديلات التى أدخلت على قانونه ، والأقسام التى أنشئت فيه ... بقى الأزهر معزولا عن وظائف الدولة ، كأنما كانت وزارة المعارف فى كل تلك الحقب خاضعة لسياسة لاتستطيع أن تحيد عنها ، وكأنما كانت الحكومات المختلفة مشدودة بخيوط خفية لا تستطيع أن تنفلت منها وتتجه الى الأزهر .

وقد اقترن هذا الاتجاه العام بمظاهر أخرى تؤكد أن عزل الأزهر عن مدارس الدولة ومحاكمها ومختلف الوظائف فيها ، كان غرضا استعماريا يخفيه جمود الأزهر من جهة ، واتجاه سياسة التعليم فى مصر اتجاها يجافى روحها القومية والاسلامية من جهة أخرى ... فقد اشتدت حملات الصحف على الأزهريين ، وصورت كبارهم تصويرا يلقى فى روع قرائها أن الأزهريين متخلفون رجعيون ، لا يصلحون للحياة ولا تصلح بهم الحياة .

وكانت كلما ارتفعت أصوات الأزهريين بمطالب اصلاحية ، ارتفعت بجانبها أصوات أخرى تنفخ فى الأبواق بأنهم طلاب درجات وعلاوات ... مع أنهم لم يكونوا يجدون مجالا للعمل فى غير الأزهر على كثرة متخرجيهم فيه ، وضيق المعاهد الدينية عن أن تتسع لعشر معشار هؤلاء المتخرجين ... ان عددا كبيرا من المتخرجين فى قسم التخصص ، بعد دراسة خمسة عشر عاما ، عينوا فى الأزهر عام ١٩٣٣ بمرتب قدره ٢٧٠ قرشا ، وبعضهم قبل أن يعين مدرسا بالمجان ريثما يتوافر له هذا المرتب ... وكثير منهم عرضوا أنفسهم قبل ذلك ليكونوا مدرسين فى المدارس الالزامية فلم يقبلوا فيها .

هذا الى الصور الكاريكاتيرية ، والتمثيليات الهزلية ، والحكايات التى كان يتندر بها الناس عن الأزهر ورجاله ... مما أشعر الأزهريين بأنهم شبه غرباء فى بلادهم ، وان بقيت لهم فى القرى وفى ضمير الشعب مكانتهم ومنزلتهم .

مذكرة الشيخ المراغى لاصلاح الأزهر

ولما عين فضيلة الشيخ محمد مصطفى المراغى شيخا للأزهر عام ١٩٢٨ ، كتب مذكرة باصلاح الأزهر ضمنها علاج عيوبه ، وعلاج المشكلات التى أقيمت حوله ... فقد كان رحمه الله تلميذا للامام محمد عبده ، فأشرب روحه ، وحمل لواء الاصلاح من بعده . وقد كانت هذه المذكرة ولا تزال ، الدستور لكل اصلاح أدخل على الأزهر أو سيدخل عليه فيما بعد . ولولا العقبات التى وضعت فى طريقه ، والاتجاهات التى حالت

دون تنفيذ خطة اصلاحه ، لكان للأزهر بصفة خاصة ، وللتعليم بصفة عامة ، وجه غير هذا الوجه ، وحال غير هذه الحال .

وقد نشرت هذه المذكرة جريدة الأهرام فى شهر أغسطس من عام ١٩٢٨ ، وجاء فيها ما يلى :

« ان الأمة المصرية — وهى تريد النهوض والمجد ، وتتطلع الى حياة سياسية راقية — يجب أن يكون عليها أن تتذكر دينها ، وتلتفت الى حملة ذلك الدين فتصلح شأنهم ، وترقى تعليمهم ، وتضعهم فى المكانة اللائقة بالمرشدين ، والتى يجب أن يكون عليها حملة الدين . أما اهمال هذه الناحية ، والسعى الى ترقية النواحى الأخرى من حياة الأمة ، فلا أرى أنه يوصل الى الغرض المقصود . فالخلق هو العمود الفقرى للأمم ، لايمكنها أن تنهض بغيره ، وأسهل طريق لتكوينه هو طريق الدين اذا أصلح تعليمه ، وهذب دعاته . وقد كان الأزهر مصدر أشعة نور العلوم الدينية والعربية وغيرها الى البلاد الاسلامية ، وقد أصابه ما أصاب غيره من خمول » .

ثم بين بعد ذلك ضرورة اصلاح الأزهر ، وقال :

« يجب أن يدرس القرآن دراسة جيدة ، وأن تدرس السنة دراسة جيدة ، وأن يفهمها على وفق ما تتطلبه اللغة العربية ففهها وآدابها من المعانى ، وعلى وفق قواعد العلم الصحيحة . وأن يبتعد فى تفسيرهما عن كل ما أظهر العلم بطلانه وعن كل ما لا يتفق وقواعد اللغة ...

« يجب أن تهذب العقائد والعبادات ، وتنقى ما جد فيها وابتدع ، وتهذب العادات الاسلامية حيث تتفق وقواعد الاسلام الصحيحة ...

« يجب أن يدرس الفقه الاسلامى دراسة حرة اليسة من التعصب لمذهب ، وأن تدرس قواعده تبطة بأصولها من الأدلة ، وأن تكون الغاية من هذه الدراسة عدم المساس بالأحكام المنصوص عنها فى الكتاب والسنة ، والأحكام المجمع عليها ، والنظر فى الأحكام الاجتهادية لجعلها ملائمة للعصور والأمكنة والعرف وأمزجة الأمم المختلفة ، كما كان يفعل السلف من الفقهاء ...

« يجب أن تدرس الأديان ليقابل ما فيها من عقائد وعبادات وأحكام بما هو موجود فى الدين الاسلامى ، ليظهر للناس يسره وقدسه وامتيازه عن غيره فى مواطن الاختلاف . ويجب أن يدرس تاريخ الأديان وفرقها ، وأسباب التفرق ، وتاريخ الفرق الاسلامية على الخصوص وأسباب حدوثها ...

« يجب أن تدرس أصول المذاهب فى العالم قديمها وحديثها ، وكل المسائل العلمية فى النظام الشمسى والمواليد الثلاثة ، مما يتوقف عليه فهم القرآن فى الآيات التى أشارت الى ذلك ...

« يجب أن تدرس اللغة العربية دراسة جيدة كما درسها الأسلاف ، وأن يضاف الى هذه الدراسة دراسة أخرى على النحو الحديث فى بحث اللغة وآدابها ...

« يجب أن توجد كتب قيمة فى جميع فروع العلوم الدينية واللغوية على طريقة التأليف الحديثة ، وأن تكون الدراسة جامعة بين الطرق القديمة فى عصور الاسلام الزاهرة ، والطرق الحديثة المعروفة الآن عند علماء التربية . وعلى الجملة يجب أن يحافظ على جوهر الدين ، وكل ما هو قطعى فيه ، محافظة تامة ، وأن تهذب الأساليب ويهذب كل ما حدث بالاجتهاد ... بحيث لا يبقى منه الا ما هو صحيح من جهة الدليل ، وكل ما هو موافق لمصلحة العباد ...

« يجب أن يفعل هذا لاعداد رجال الدين ، لأن رسالة النبى صلى الله عليه وسلم عامة ودينه عام . ويجب أن يطبق بحيث يلائم العصور المختلفة

والأمكنة المختلفة ... وان لم يفعل هـذا يكون عرضة للنفور منه ، والابتعاد عنه ،كما فعلت بعض الأمم الاسلامية ، وكما حصـل فى الأمة المصرية نفسهـا ، اذ تركت الفقه الاسـلامى لأنها وجدته بحالته التى أوصله اليها العلماء غير ملائم . ولو أن الأمة المصرية وجـدت من الفقهـاء من جارى أحوال الزمان ، وتبدل العـرف والعادة ، وراعى الضرورات والحـرج ، لما تركتـه الى غيره ، لأنه يرتكن الى الدين الذى هو عزيز عليها ...

دراسة شاقة

« لست أنسى أن هذه الدراسة التى أسلفت بيانها ، دراسـة شـاقة تحتاج الى مجهود عظيم ، وتحتاج الى رجال قد لا نجدهم فى طائفة العلماء ، وتحتاج الى مال يكافأ به العاملون ... ولكن سمو المطلب يحملنا على تذليل كل عقبة تقف فى طريقه ، ويوجب علينا السخاء والبذل لأننا نريد اصلاح أعز شىء على نفوس الجماهير ، ونريد بهذا الاصلاح تقويم هذه الأمة ونهوضها . وليس من السهل أن يكلف شخص واحد بهذه الدراسة على اختلاف أنواعهـا ، بل من الواجب أن نفكر فى طريقـة التقسيم، وجعل الدراسة أقساما وأنواعا متميزة ...

اسس النظام

« وبعد هذا أستطيع أن أضع أسسا اجماليـة للنظام الذى أبغى أن تكون عليه الأزهر والمعاهد الدينية ...

« يجب أن يقسم التعليم الدينى الى قسمين : قسم يحدد عدد تلاميذه ، وترتب درجات التعليم فيه ، وتبين لهم حقوقهم والغايات التى تراد منهم ، والأعمال التى تسـند اليهم من أعمال الدولة ... وهذا هو القسم الذى سكون موضع العناية ، ومكان الرجاء والأمل . وقسم لا يحـدد عدده ، ولا ترتب درجات التعليم فيه ، ولا يكون له شىء من الحقوق فى أعمال الدولة . وانمـا الغاية من وجوده هى سـد حاجة من يريد التفقه فى دينه ، ومعرفة اللغة العربية ليخرج من الجهالة الى نور العلم ، ويقنع بالعلم نفسه . وتوضع لهذا القسم نظم لا يقصد منها أكثر من مراقبة الأخلاق ، ومن تعليم أفراده تعليما صحيحا بعيدا عن العقائد الفاسدة ، موصلا الى روح الدين ، موصلا الى خلق قويم ...

القسم الأول

« والقسم الأول تجعل درجات التعليم فيه ثلاثا ؛ فيكون ثلاثة أقسام :

القسم الأولى : مدته خمس سنوات

القسم الثانوى : مدته خمس سنوات

والتعليم فى القسمين الأولى والثـانوى يكون عاما على مثال التعليم فى المدارس الأميرية . ويعلم فيهما كل مايعـلم فى المدارس الأميرية ما عـدا اللغات . وتعلم فيهمـا علوم الأزهر الأصـلية — بالقـدر المؤهل لدخول الأقسـام العالية — تعليمـا لا يكون قوامه حفظ الدروس ، وانما يكون قوامه فهم العـلم ، والمـران على البحث والتدليل ، وتربية الملكات ...

« وقد يلاحظ أن المدة لا تحتمل تعـليم علوم الأزهر ، وتعـليم ما يدرس بالمدارس الأميرية ولكن هذه الملاحظة تزول اذا لوحظ أن الطالب فى المعـاهد يؤخذ فى سن عالية عن سن التلميذ فى المدارس الأميرية . ويغلب أن يكون ألم بكثير من المعلومات فى المدارس الأولية ، وأن يكون حافظا للقرآن . فاستعداده وسنه يسمحان بأن يحتمل هذا المقـدار الذى يراد أن يعـلمه ... على أن الشروط التى توضع لقبول التلاميذ فى القسم الأولى كفيلة بابعاد من لا يقوى على احتمال هذه الدراسة ...

التعليم العالى

« ويقسم التعليم العالى الى ثلاثة أقسام :

١ — قسم اللغة .

٢ — قسم الفقه .

٣ — قسم الارشاد والدعوة .

« ويجب أن يلاحظ أنى حيث أعرض لهذه الأقسام ، وحيث أبين ما يدرس فيها ، فانى أضع رسما اجماليا قابلا للتهذيب ، وأترك تفصيله الى أن يحين وقت التفصيل ، فتؤلف له لجان فنية ...

المواد الدراسية

« أما القسم الأول ، فتدرس فيه علوم اللغة من نحو وصرف ووضع ، وعلوم البلاغة وأدب اللغة العربية ، وتاريخ الآداب ، وعلم النفس والتربية . ويعلم التلاميذ فيه بعض اللغات التى لها اتصال وثيق باللغة العربية . ويدرس فيه الكتاب والسنة من حيث اتصال اللغة العربية بهما ومن حيث اتصالهما بآدابها ...

« وأما القسم الثانى ، فيدرس فيه الكتاب والسنة دراسة مفصلة . وبخاصة من ناحية الأحكام الفقهية ، ويدرس أصول الفقه ، وتقارن المذاهب الاسلامية بعضها ببعض مع عرض الأدلة ، ومع التعرض للترجيح من جهة الدليل والعرف والعادة ومن جهة المصالح العامة ، وتقارن المذاهب الاسلامية بالقواعد العامة فى أصول القوانين ، ويدرس تاريخ التشريع الاسلامى ، وما يلزم للقاضى والمحامى من نظم القضاء والادارة وقوانين المرافعات .

« وأما القسم الثالث ، فيدرس فيه المنطق ، التوحيد الاسلامى ، والأخلاق والفلسفة قديمها وحديثها ، وتاريخ الأديان ، والمذاهب مع مقارنتها بالدين الاسلامى . ويدرس أدب اللغة والقرآن والسنة ، وبخاصة من ناحية طرق الهداية والارشاد ...

الغاية من هذا

« بعد هذا أنتقل الى الغاية من هذا التعليم . وسأجد نفسى مضطرا الى شىء من الاطالة فى القول ...

« عندما فكرت الحكومة المصرية فى انشاء مدرسة دار العلوم لتخريج أساتذة اللغة العربية فى المدارس الأميرية ، كان العلماء فى الأزهر لا يعنون الا بدراسة القواعد وفلسفتها دراسة نظرية بعيدة عن التطبيق ، وبدراسة الألفاظ وخدمة عبارات المؤلفين . ولا يعنون بالغاية من اللغة ، ولا بخدمة اللغة نفسها ... يشهد بذلك أن أسلوب الكتب المؤلفة فى تلك الأيام بعيد كل البعد عن اللغة ، ويشهد بذلك أن بعض كبار العلماء ممن شاهدناهم لم يكونوا يحسنون التعبير عن أغراضهم ، ولا تزال منهم بقية الى اليوم ...

«وكان العلماء أيضا لا يدرسون شيئا من العلوم العامة — كالتاريخ ، والحساب ، والهندسة ، وتقويم البلدان — وكانوا يحافظون على ما هم عليه أشد المحافظة ، ولا يرون الخير الا فيما هم فيه ... فلم تكن معلوماتهم العامة ، ولا طرائق تعليمهم ، مؤهلة لتوليهم تعليم النشء فى المدارس الأميرية على النحو الحديث ...

« وعند ما فكرت الحكومة فى انشاء مدرسة القضاء الشرعى ، كان الأزهر على النحو الذى وصفته . وكان فيه علماء يحرمون تقويم البلدان والتاريخ والحساب ، ويكتبون مقالات فى الجرائد ضد هذه العلوم . وكان ولاة الأمور يشكون من أن القضاة لايعرفون الأرقام ، ولا يعرفون طرق التوثيق ، ولا يعرفون من العلوم العامة ما يجب أن يعرفه شخص يتولى الحكم بين الناس ...

وقد بدل الله هذه الأحوال ، وأصبح قانون الأزهر مشتملا على ضعفى العلوم التى كانت تدرس فيه من قبل ، وأصبح يدرس فيه التاريخ الطبيعى ، وتدرس فيه الطبيعة والكيمياء ، ويدرس فيه الجبر والهندسة . وقبل الأزهر فى قسم تخصص القضاء الشرعى دروسا فى وظائف الأعضاء ، ودروسا فى التشريح ... قبل الأزهريون كل جديد ، وأعدوا أنفسهم له ، وزالت كل العقبات التى كانت من قبل ، ولم يبق الا اصلاح طرق التعليم ، وايجاد المعلمين الأكفاء ، وتوزيع العلوم على الأقسام توزيعا صحيحا واذا كانت هناك بقية تعترض الجديد فلم يبق لها من الشأن ما تستطيع معه أن تكون عقبة فى طريق الاصلاح ...

مدارس متعددة لنوع واحد

« فى الدولة الآن مدارس متعددة لنوع واحد من التعليم : فيها دار العلوم لتعليم اللغة ، وفيها الأزهر وكل المعاهد لعلوم اللغة ... فيها مدرسة القضاء الشرعى لفقه ونظم القضاء ، وفيها الأزهر للفقه ونظم القضاء ... وفيها تجهيزية دار العلوم ، وفى الأزهر أقسام تماثلها ...

« تنفق الدولة على هذه المدارس جميعها ، ومن الممكن أن تقتصد فى هذه النفقات . ومن الممكن أن تضم هذه النفقات بعضها الى بعض ، وتوحد جهودها لتخرج أمثلة أحسن من هذه الأمثلة ...

« فى الدولة أشكال مختلفة من العلماء ، تخرجوا فى مدارس مختلفة ، يحسد بعضهم بعضا ، وينقم بعضهم على بعض ... ولهذا أثره فى افساد الأخلاق ...

« لم لا يحملنا هذا كله على التفكير فى توحيد الجهود ، وتوحيد النفقات ونجعل قسم اللغة منبع علماء اللغة لجميع مدارس الدولة والأزهر ، وتخصص فرقة من قسم الفقهاء لتحل محل مدرسة القضاء ، فتكون ينبوعا للقضاة والمحامين والمفتين ، وتلغى تجهيزية دار العلوم والقضاء ...

اعتراض

« أول ما يعترضنا فى هذا أن مدرسة دار العلوم أنشئت للحاجة اليها . وقد حققت الآمال فيها ، فأخرجت للدولة علماء أحيوا اللغة العربية وآدابها بعد أن كادت تدرس . وكانوا من أهم الأسباب لنشر تلك اللغة وتحبيبها الى الناس ... بينما الأزهر ضعف التعليم فيه ، وأصبح محلا لشكوى الأمة وشكوى أهله أنفسهم . وليس من الحكمة — بناء على الآمال فى الأزهر — أن نميت مدرسة محققة الفائدة ، وكذلك الحال فى مدرسة القضاء ...

« ولكن على الرغم من قوة هذه الحجة يمكننا التغلب عليها بمراعاة ما يأتى :

« قد كان الأزهر منفصلا عن الحكومة فى الماضى انفصالا تاما ، فلم تكن له بها علاقة الا بمبلغ يسير فى الرزنامة كان حقا له عليها ، ولم يكن للحكومة اشراف عليه . وقد تبدّل الحال ، فصارت ميزانية الأزهر الضخمة أكثرها من وزارة المالية ، وبعضها من وزارة الأوقاف ، وصار لرئيس الدولة حق الاشراف عليه ، وصار مسئولا عنه أمام البرلمان ، وأصبح من اليسير على الأمة والحكومة أن تعرفا فيم تنفق الأموال ، وبأى شىء تشتغل المعاهد ، وعلى أى نحو تسير ...

« ثم ان اندماج دار العلوم والقضاء سيفضى حتما الى ادخال أساتذة المدرستين فى الأزهر ؛ والى وجود الصلة التامة بينهم وبين العلماء . فهذه الصلة ، التى من شأنها أن توجد تماس الأفكار ستنتج نتائجها الحسنة فى احسان الدراسة وستكون هناك عناصر قوية من رجال التعليم فى مجالس الادارة والمجلس الأعلى ، وفى التفتيش

على المعاهد ... وعلى الجملة ستوجد كل الضمانات التى تطمئن النفوس الى أن المعاهد لا ترجع القهقرى ...

« هذا الذى قلته — مضافا الى توحيد التعليم ، وتوحيد النفقات ، وتجانس العلماء فى الدولة — من شأنه أن يحملنا على المضى فى هذا الطريق ...

مدرسة القضاء

« ونختص مدرسة القضاء على نظامها الجديد بكلمة لا بد لى من التصريح بها :

« لست أرجو للقضاء الشرعى خيرا من هذه المدرسة على نظامها الجديد . وقد كان نظامها منذ أنشئت الى سنة ١٩٢٣ خيرا من هذا النظام الجديد ...

« ذلك أننا حتى اليوم ليس لنا مراجع فى القضاء الا تلك الكتب المقررة فى القرون الماضية ، وهى كتب معقدة ، لها طريقة خاصة فى التأليف لا يفهمها كل من يعرف اللغة العربية . وانما يفهمها من مارسها ، ومرن على فهمها ، وعرف اصطلاح أهلها . وأيضا فان العلوم الشرعية التى يحتاج اليها القاضى مشتبكة يستمد بعضها من بعض ، ولا غنى لفقيه عن تعرف علوم كثيرة ترتبط بالفقه ...

« ونظام المدرسة الجديد قطع الصلة أو أضعفها بين تلاميذ مدرسة القضاء وبين الكتب القديمة . فالتلاميذ الذين يتخرجون فى التجهيزية ، وينتقلون الى مدرسة القضاء ، ليس لهم من المؤهلات ما يعدهم لتفهم تلك الكتب ، والى هضم تلك المعلومات التى وضعت لهم فى البرامج ...

الكتب القديمة

« ولست أدافع الآن عن الكتب القديمة ، بل هو الله أن يمكننا من الاستغناء عنها بأحسن منها . وانما أدافع عن الموجود الذى قضت الضرورة بوجوده ، فنحن فى حاجة الى رسل بين القديم والحديث ، وأولئك الرسل يجب أن نعلمهم القديم والحديث ليخرجوا للناس حديثا جيدا . لا بد لنا من علماء فيهم من القوة ما يستطيعون بها فهم تلك الكتب القديمة ، ومعرفة تلك الطرائق القديمة ، وفيهم من القوة ما يستطيعون معه تصوير ذلك فى أسلوب حديث ... ولذلك فانه يجب أن يراعى فى النظام الجديد للأزهر عدم اهمال طرقه الأصلية فى البحث وفهم الكتاب ...

« أما المدرسة على نظامها منذ أنشئت الى سنة ١٩٢٣ ، فانها تستحق الثناء ، ولا أجد ما أعيبها به . ولكن أستطيع أن أقول بأن تعهد الأزهر والمعاهد بالرقابة وحسن الادارة ، يخرج للأمة مثل علماء تلك المدرسة أو أحسن منهم ...

« وقد أشير فى تقرير لجنة اصلاح الأزهر سنة ١٩٢٤ الى شىء من المقارنة بين القضاة خريجى الأزهر ، والقضاة خريجى المدرسة . ويحسن الرجوع اليه لأنه يفيد فيما نحن بصدده ...

الخلاصة

« وخلاصة ما أسلفته أن تندمج تجهيزية دار العلوم والقضاء ومدرسة القضاء ومدرسة دار العلوم فى المعاهد ، على أن توضع قواعد وقتية بهذه المدارس بالنسبة لتلاميذها الموجودين فيها الآن ...

« أما امتيازاتهم فهى كما سيأتى :

« علماء اللغة العربية : يكونون أساتذة فى الأزهر والمعاهد الدينية ، وفى جميع مدارس الحكومة ومجالس المديريات ...

« علماء الفقه : يكونون أساتذة العلوم الشرعية فى الأزهر والمعاهد الدينية وجميع مدارس الحكومة ...

« علماء الارشاد والدعوة : يكونون أساتذة فى الأزهر والمعاهد ، ويكونون خطباء وأئمة ووعاظا ومرشدين ...

« أما شهادة القسم الأولى فليس لها شىء من الحقوق الا تأهيل صاحبها لدخول القسم الثانوى ...

« وأما شهادة القسم الثانوى : فتؤهل صاحبها للأقسام العالية ، وتؤهله لوظائف الكتابة فى المحاكم الشرعية والمعاهد الدينية ...

« وقد ينظر بعد فى علاقة هذا القسم وبعض الأقسام العالية بالجامعة المصرية اذا أراد واحد من حاملى شهاداته دخول الجامعة المصرية فى بعض أقسامها .

الاسراع .. وعدم السكوت

« وقد يصح أن يقال : لندع دار العلوم ومدرسة القضاء تمضيان فى طريقهما ، ولنصلح الأزهر على هذا النحو الذى أشير اليه ، وليس هناك ضرر فى وجود مدارس متعددة صالحة ... غير أن ما أشرت اليه بالنسبة لمدرسة القضاء يحملنا على عدم السكوت على نظامها الحاضر ، وما أشرت اليه بالنسبة للغاية العظيمة التى ننشدها من توحيد التعليم وتجانس العلماء ، من الفائدة التى تعود على المعاهد نفسها من ادخال العناصر القوية فى اللغة العربية — وهم علماء دار العلوم — الى الأزهر ، تجعلنا نفضل طريق التوحيد على طريق التعدد ...

« وهناك أمر لا يصح الاغضاء عنه : ذلك أن وجود مدارس دار العلوم والقضاء ، وتجهيزية دار العلوم ، مؤثر على الأزهر والمعاهد من حيث الرغبة فيهما ... لأن نتيجة الأزهر — اذا لم يخرج قضاة ومحامين وعلماء باللغة العربية فى مدارس الحكومة — تقتصر على اخراج علماء للمعاهد وخطباء للمساجد . وهى نتيجة غير مرغبة ، ومن شأنها أن تجعل التعليم الدينى فى المعاهد مقصورا على بعض الطبقات التى ليس لها فى الحياة آمال سامية . وهذه الطبقات وحدها قد لا تؤمن على هذه الوديعة ، وديعة الخلق الدينى والثقافة الاسلامية . ومن الواجب ألا يغيب عنا — ونحن نتقدم لتهذيب التعليم الدينى ، وتقويم أخلاق الأمة — أن نشجع الطبقة الراقية على الدخول فى هذه المعاهد لتقوم بما يطلب منها من العناية بالأخلاق ...

سمعة الأزهر

« وأمر آخر هو أن سلب الامتيازات القديمة التى كانت للأزهر من تخريج القضاة والمحامين ، وعلماء اللغة العربية ، يؤثر أمام الرأى العام داخل الدولة المصرية وخارجها فى الأقطار الأخرى ، على سمعة الأزهر والمعاهد . ومن واجب الدولة المصرية أن تحافظ على كرامة هذا المعهد القديم ، وأن ترد اليه مجده ... فانه واسطة اتصال وثيق بين الأمة المصرية وغيرها من الأمم . واذا أحسن استخدام هذه الواسطة عاد بفائدة أدبية ذات قيمة على الشعب المصرى ...

« ومتى تم تنظيم الأزهر ، وأخذ مكانته ، فستعود اليه ثقة الأمم الاسلامية ، وتطلب منه علماء ومرشدين ، خصوصا اذا علمت فيه اللغات التى يحتاج اليها المرشد اذا ذهب الى بلد من البلاد الاسلامية ...

« هذا هو مجمل رأيى فى اصلاح المعاهد الدينية والتعليم ، أقدمه خاليا من التفاصيل ، حتى اذا ما صادف قبولا ، واتفق على النقط الأساسية فيه ... أمكن أن نشرع فى تأليف اللجان

الفنية التى تبحث أجزاء المشروع ، وأمكن بعد ذلك أن نرجع الى القوانين لاصلاحها ...

« وقبل أن أختم كلمتى هذه أشير الى أن من الممكن ايجاد كل الضمانات لحسن سير التعليم ، وذلك بتأليف مجالس الادارة ، ومجلس الأزهر الأعلى على وجه تمثل فيه وزارة المعارف تمثيلا قويا ، وبأن يكون قسم التفتيش على اللغة العربية والعلوم الحديثة مشتملا على رجال تكون لوزارة المعارف رأى فى اختيارهم ... بل ويمكن أيضا أن تكون لوزارة المعارف مندوبون لحضور الامتحانات ...

« ولا بد أيضا من أن أصرح بأن الأزهر لا ينبغى أن يعنى باخراج معلمين للمدارس الأولية ، وسننظر فى انهاء هذه الدراسة الخاصة بالتعليم الأولى ...

« كما أنه لا بد لى أيضا من الاشارة الى وجوب الغاء قانون التخصص ، فقد دلت التجارب على عقم نتائجه ... ولذلك أسباب كثيرة قد يحسن عدم الافضاء بها . وأيضا فان النظام الذى أشرت اليه ، وهو نظام تقسيم الدراسة العالية ، سيضمن تخريج علماء لهم تفوق فى علوم الأقسام التى يدخلونها ...

« وأسأل الله أن يهيىء للأزهر والمعاهد طريق الفلاح والنجاح » .

ضجة ... ثم استقالة

هذه هى مذكرة الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغى لاصلاح الأزهر . وقد أثارت ضجة كبرى فى مختلف الدوائر والأوساط . ولسنا الآن بصدد الحكم عليها أو لها ، وانما نحن بصدد تسجيل خطوات الاصلاح . وقد قيل ان دوائر القصر لم ترحب باشراف الحكومة على الأزهر ، وأن هذا كان سببا من الأسباب التى حملت الشيخ المراغى على الاستقالة ... وقيل ان من الأزهريين من لم يرض عن نظام تقسيم الدراسة العالية الى عدة أقسام ، بحجة أن علوم القرآن يخدم بعضها بعضا ، ويتمم بعضها بعضا ، ويشترك بعضها مع بعض فى اعداد العالم الذى تتوافر فيه شروط الاجتهاد .

ولكن هذه المذكرة على كل حال ، كانت هى الأساس الذى قام عليه تنظيم الأزهر فيما بعد ... فقد صدر فى عهد المرحوم الشيخ محمد الأحمدى الظواهرى قانون عام ١٩٣٠ ، وبمقتضاه قسم التعليم العالى الى ثلاث كليات : كلية أصول الدين ، وكلية الشريعة ، وكلية اللغة العربية . وأنشىء نظام التخصص فى المادة ، والتخصص فى المهنة .

النظام الأخير

ولما أعيد الشيخ المراغى الى الأزهر عام ١٩٣٥ ، رأى أن يضع مشروع قانون لاصلاح الأزهر على الأساس الذى وضعه فى مذكرته الأولى ، فصدر بذلك مرسوم بقانون رقم ٢٦ لسنة ١٩٣٦ ، وبمقتضاه جعل التعليم فى الأزهر على أربع مراحل :

١ — ابتدائى : ومدته أربع سنوات ، ويدرس فيه من مواد العلوم الدينية : الفقه ، والتوحيد ، والسيرة النبوية ، وسيرة كبار الصحابة ، وتجويد القرآن الكريم . ومن مواد العلوم العربية : الانشاء والنحو والصرف والاملاء والمطالعة والمحفوظات . ومن العلوم الأخرى : التاريخ والجغرافيا والرياضة وتدبير الصحة والرسم والخط .

٢ — ثانوى : ومدته خمس سنوات ، ويدرس فيه من العلوم الدينية : الفقه والتفسير والحديث متنا ومصطلحا ، والتوحيد . ومن العلوم العربية : النحو والصرف والبلاغة والبيان والمعانى والبديع والانشاء وأدب اللغة والعروض والقافية والمطالعة والمحفوظات ومن العلوم الأخرى : المنطق وأدب البحث والطبيعة والكيمياء وعلم الحياة ، والتاريخ والجغرافيا .

٣ — الكليات وهى ثلاث :

١ — كلية الشريعة ، وتتبعها الأقسام الآتية :

(أ) شهادة الدراسة العالية ، ومدتها أربع سنوات والمواد التى تدرس للحصول عليها هى : التفسير ، الحديث متنا ورجالا ومصطلحا ، أصول الفقه ، الفقه مع حكمة التشريع ومقارنة المذاهب فى المسائل الكلية ، تاريخ التشريع الاسلامى ، المنطق والفلسفة ، لغة أجنبية (الانجليزية أو الفرنسية) وتدرس بصفة اختيارية .

(ب) شهادة العالمية مع اجازة القضاء والمواد التى تدرس للحصول عليها — بعد النجاح فى الشهادة العالية — هى : قوانين المحاكم الشرعية ولوائحها ، الأوقاف والمجالس الحسبية ، « مجلس البلاط » ، التوثيقات الشرعية ، اجراءات وتمرينات قضائية ، دراسة القضايا ذات المبادىء السياسية الشرعية ، القانون الدولى الخاص ، تاريخ القضاء والقضاة فى الاسلام ، النظام الدستورى للدولة ، محاضرات طبية ، محاضرات فلكية ، لغة أجنبية اختيارية ، وهى التى درست فى الكلية .

(جـ) شهادة العالمية من درجة أستاذ فى الفقه والأصول والمواد التى يتخصص فيها للحصول عليها — بعد النجاح فى الشهادة العالية — هى : الأصول والفقه مع حكمة التشريع ، مقارنة المذاهب ، تاريخ التشريع الاسلامى .

٢ — كلية أصول الدين ، وتتبعها الأقسام الآتية :

(أ) شهادة الدراسة العالية فى أصول الدين . والعلوم التى تدرس للحصول عليها هى : التوحيد ، التفسير ، الحديث متنا ومصطلحا ورجالا ، المنطق وأدب البحث ، الأخلاق ، الفلسفة والأصول ، التاريخ الاسلامى ، علم النفس ، لغة أجنبية (الانجليزية أو الفرنسية)

(ب) شهادة العالمية مع الاجازة فى الدعوة والارشاد . والمواد التى تدرس للحصول عليها — بعد النجاح فى الشهادة العالية — هى . القرآن الكريم وعلومه ، الحديث الشريف وعلومه ، الدعوة الى سبيل الله ووسائلها ، الخطابة والمناظرة ، الملل والنحل ، المذاهب الفقهية وتواريخها ، البدع والعادات ، اللغة الأجنبية التى درست فى الكلية ولغة شرقية .

(جـ) شهادة العالمية مع درجة أستاذ فى التوحيد والفلسفة والمواد التى تدرس للحصول عليها — بعد النجاح فى الشهاده العالية — هى . التوحيد ، المنطق ، الفلسفة ، الأخلاق

(د) شهادة العالميه مع درجه أستاذ فى علوم القرآن الكريم والحديث الشريف والمواد التى تدرس للحصول عليها — بعد النجاح فى الشهادة العالية — هى : التفسير ، علوم القرآن الكريم ، الحديث وعلومه .

٣ — كلية اللغة العربية ، وتتبعها الأقسام الآتية :

(ا) شهادة الدراسة العالية فى اللغة العربية . والعلوم التى تدرس للحصول عليها هى : النحو والصرف والوضع ، فقه اللغة ، الأصول ،

الانشاء ، علوم البلاغة (البيان والمعانى والبديع) ، الآداب العربية وتاريخها ، العروض والقافية ، التفسير والحديث والمنطق والفلسفة ، المطالعة والأدب المقارن، علم الاجتماع ، الخط ، الجغرافيا ، التاريخ السياسى ، النقد الأدبى ، لغة أجنبية (الانجليزية) ، الفارسية والعبرية والتركية ، والأخيرة بصفة اختيارية .

(ب) شهادة العالمية مع الاجازة فى التدريس . والمواد التى تدرس للحصول عليها — بعد النجاح فى الشهادة العالية — هى : علم النفس العام ، علم النفس التعليمى ، أصول التربية ، الطرق العامة ، التنظيم المدرسى وتاريخ التربية ، التربية العملية ، طرق التدريس الخاصة ، الأخلاق ، تدبير الصحة المدرسى ، الرسم ، تجويد الخط ، التربية البدنية ، ولغة أجنبية اختيارية وهى التى درست فى الكلية .

(جـ) شهادة العالمية من درجة أستاذ فى النحو . والمواد التى تدرس للحصول عليها — بعد النجاح فى الشهادة العالية — هى : النحو والصرف والوضع ، فقه اللغة ، العروض والقافية ، مبادىء اللغتين العبرية والسريانية .

(د) شهادة العالمية من درجة أستاذ فى البلاغة . والمواد التى تدرس للحصول عليها — بعد النجاح فى الشهادةالعالية — هى : الأدب العربى وتاريخه ، العروض والقافية ، مبادىء اللغتين العبرية والسريانية .

مدة الدراسة

أما مدة الدراسة للحصول على الشهادة العالية فهى أربع سنوات ، وللحصول على شهادة العالمية مع الاجازة سنتان . ومدة الدراسة للحصول على شهادة العالمية من درجة استاذ لاتقل عن ست سنوات ولا تزيد على ثمان

مكتب مراقبة البحوث والثقافة الاسلامية

يقوم هذا المكتب الآن بالاشراف على البعوث التى يوفدها الأزهر الى الخارج ، وعلى التعليم فى قسم البعوث الاسلامية ، وعلى مجلة الأزهر ، وقسم الوعظ والارشاد .

وكان الغرض من انشائه التوسع فى الاتصال الثقافى بالعالم الاسلامى ، وارسال الكتب الاسلامية باللغات الأجنبية الى شتى البلاد ، والاطلاع على ما يكتب باللغات الأجنبية ضد الاسلام والرد عليه . وقد تقرر انشاؤه فى عام ١٩٤٥ م فى عهد المرحوم الشيخ المراغى ، وبدأ يعمل فى عهد المرحوم الشيخ مصطفى عبد الرازق ، فأشرف على انشاء مكتبة اسلامية كبيرة فى « بكين » عاصمة الصين ، وبعث بعدة كتب الى الحجاز ، ومجموعات من المصاحف الى جهات مختلفة .

وتتولى مراقبة البحوث الاجابة على الأسئلة التى ترد اليها من الخارج فى المسائل الدينية الاسلامية ، وارسال البعوث الأزهرية الى مختلف البلاد الاسلامية — كالحجاز ونجد والعراق والكويت والشام والسودان وجنوب أفريقيا وأسمرة والفيلبين وأوغندا — كما تتلقى الطلاب الوافدين الى الأزهر من مختلف الأنحاء والبلاد ، فتوجههم وتعينهم ماديا وعلميا .

بعوث إلى اوربا

وقد بدأ اتصال الأزهر حديثا بأوربا حين أوفدت أول بعثة الى ألمانيا باسم الشيخ محمد عبده فى عهد الشيخ الظواهرى . وكانت مكونة من الشيخين : محمد البهى قرقر ، ومحمد ماضى ، ثم لحق بهما الشيخ عبد الحليم النجار ، بعد امتحان مسابقة بين الجامعة ودار العلوم والأزهر كان ترتيبه فيه الأول . وقد عاد هؤلاء دكاترة

ممتازين . ويعمل الأول الآن مديرا لمكتب البحوث والثقافة ، والثانى مديرا للمعاهد الدينية ، والثالث أستاذا بجامعة القاهرة .

وفى عهد الشيخ المراغى أرسلت الى باريس بعثة أزهرية عام ١٩٣٦ ، كان منها المشايخ : محمد عبد الله دراز ، محمد الفحام ، عبد الحليم محمود ، عبد الرحمن تاج ، عفيفى عبد الفتاح ، محمد يوسف موسى . كما أرسل الى انجلترا المشايخ : عبد العزيز المراغى ، على حسن عبد القادر ، محمود حب الله ، سليمان دنيا ، محمد بيصار ، بدوى عبد اللطيف ، وغيرهم ممن لا تعى الذاكره أسماءهم . وقد عاد هؤلاء يحملون شهادات الدكتوراه وغيرها ، ووكلت اليهم وظائف مختلفة فى الأزهر وخارج الأزهر .

الى الأمم الاسلامية

كما أرسل الأزهر بعوثا من علمائه المبرزين الى الأمم الاسلامية المختلفة ، لبث الثقافة الدينية ، والدعوة الى الاسلام فى البلاد الوثنية ... فأرسل بعثات الى الصين ، والحبشة ، وجنوب أفريقيا والهند ، واليابان .

إلى الأزهر

واستقبل الأزهر — ولا يزال يستقبل كل عام — طلبة من البلاد الاسلامية المختلفة وغيرها ، وقام — ولا يزال يقوم — بكل ما يحتاجون اليه من تكاليف الاقامة . ويتولى تعليمهم أول قدومهم اللغة العربية أساتذة موكلون بذلك . ثم يعدهم لمراحل التعليم المختلفة . وكانوا يقيمون بأروقة الأزهر وبمساكن أخرى تستأجر لهم على حساب الأزهر . ثم أنشئت لهم مدينة كبيرة يشرف عليها قسم البحوث الاسلامية . ويبلغ عددهم أكثر من ألف طالب ، من طرابلس وتونس والجزائر ومراكش والسودان والحبشة والصومال وجنوب أفريقيا ونيجريا ويوغندا والشام والعراق والحجاز ونجد واليمن وجاوة وسيلان والهند والصين واليابان وروسيا والقوقاز والأناضول والكردستان والأفغان وتركيا وألبانيا ويوغوسلافيا وبولونيا وبلغاريا وغيرها .

قسم الوعظ والارشاد

بدأ هذا القسم بعدد قليل من العلماء ، عينوا فى وزارة الداخلية عام ١٩٢٨ ، بناء على اقتراح فضيلة المرحوم الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغى شيخ الجامع الأزهر . فقد أقنع صديقه المغفور له محمد محمود باشا رئيس مجلس الوزراء حينذاك ، بأن فى تعيينهم خدمة للأمن عن طريق الارشاد الدينى . فنفذ هذه الرغبة ، ثم ضم هؤلاء الوعاظ بمرتباتهم الى الأزهر ، وصار للأزهر وحده الاشراف عليهم وتوجيههم بعد شهور من تعيينهم فى وزارة الداخلية . ثم تزايد عددهم حتى صار قسم الوعظ قسما كبيرا من أقسام ادارات الأزهر ، وصار يصدر مجلة خاصة يتولى تحريرها الوعاظ وغيرهم ، وهى مجلة نور الاسلام . وقد خصصت دروس للنساء زاد الاقبال عليها .

ورأت وزارة الصحة ، فى أكثر من مناسبة ، الاستنجاد بهم فى مكافحة الأوبئة الوافدة والأمراض المتوطنة ، فيسرت لهم أن ينبثوا مع الأطباء فى جميع أنحاء البلاد ، ليرشدوا الناس الى ضرورة الأخذ بأسباب الوقاية والاقبال على العلاج . وكان لذلك أثره الذى سجلته وزارة الصحة مقرونا بالشكر والتقدير .

وتدل التقارير التى تتلقاها وزارة الداخلية كل عام عن حالة الأمن على أن الوعظ أثمر ثمرات طيبة فى هذا السبيل . وكثيرا ما استعان رجال

الأمن — ولا يزالون يستعينون — بالوعاظ فى الصلح بين العائلات ، واطفاء نار الفتن ، وحقن الدماء ... هذا الى عملهم الأساسى فى تبصير الناس بشئون دينهم ، ووعظهم وارشادهم الى ما فيه خيرهم ، ومحاربة البدع والتقاليد الفاسدة الضارة .

وقد امتد نشاط الوعاظ الى الجهات النائية والأماكن البعيدة ، بل الى الشعوب العربية الشقيقة : فذهب بعضهم الى أريتريا ، وبعضهم الى لبنان ، وبعضهم الى السودان ... وهم فى حركة دائبة ونشاط متصل ولهم فى المواسم والمناسبات والحفلات صوت نافذ وتوجيه حميد .

وقد كان عددهم فى عام ١٩٤٨ مائتين وثلاثين ، وعددهم الآن يبلغ نحو ٢٥٠ ، ولهم صندوق خاص يدفعون منه اعانات لأسر المتوفين منهم ، ومساعدات لأبنائهم على مواصلة تعليمهم ... بل يدفعون منه للمجلة فى بعض الأحيان .

مجلة الأزهر

وللأزهر مجلة تحمل اسمه ورسالته ، وتصل المسلمين به فى مختلف أنحاء العالم الاسلامى ، فينقلون منها ، ويترجمون عنها ، ويجدون فيها البحوث الواسعة والمقالات الممتعة وقد أنشئت فى أول المحرم من عام ١٣٤٩ للهجرة (١٩٣٠ م) ، وكان اسمها فى بادىء الأمر « نور الاسلام » ، ثم رأى فضيلة الأستاذ المراغى — بعد أن أعيد الى مشيخة الأزهر عام ١٩٣٥ — أن يغير اسمها الى « مجلة الأزهر » . وكان ممن رأس تحريرها فى بادىء أمرها فضيلة المرحوم الشيخ محمد الخضر حسين الذى صارت اليه مشيخة الأزهر فيما بعد ، وتولى ادارتها ورياسة تحريرها الكاتب العالم الفيلسوف الاسلامى المرحوم الأستاذ محمد فريد وجدى .

ولما تولى المرحوم فضيلة الشيخ عبد المجيد سليم مشيخة الأزهر ، أسند ادارة هذه المجلة الى الأستاذ أحمد حسن الزيات . ثم تولى ادارتها بعده الأستاذ الشيخ محمد عرفة عضو جماعة كبار العلماء ، ثم الأستاذ الشيخ محمد عبد اللطيف السبكى عضو الجماعة وشيخ الحنابلة . ويتولى رياسة تحريرها الآن الأستاذ أحمد حسن الزيات ، خلفا للأستاذ محب الدين الخطيب .

لجنة الفتوى بالأزهر

صدر قرار بتكوين هذه اللجنة فى ١٣ من جمادى الأولى عام ١٣٥٤ للهجرة ، (١١ من أغسطس عام ١٩٣٥ م) . وكان الغرض منها سد حاجة كان يشعر بها المسلمون فى الأقطار الشقيقة ، فقد كانت ترد على الأزهر استفتاءات كثيرة فى مسائل دينية مختلفة ، وكان أصحاب هذه الاستفتاءات يطلبون الافتاء على مذهب معين ، أو من غير تقيد بمذهب معين ... لهذه الحاجة ، ولأهمية المسائل التى يطلب من الأزهر اصدار الأحكام فيها ، رأى فضيلة المغفور له الشيخ محمد مصطفى المراغى تكوين لجنة من العلماء الثقات الأثبات لتضطلع بهذا العبء الجسيم ، فأصدر قرارا بتكوين هذه اللجنة ، على أن تتكون من رئيس وأحد عشر عضوا : منهم ثلاثة من علماء الأحناف ، وثلاثة من المالكية ، وثلاثة من الشافعية ، واثنان من الحنابلة .

وما زالت هذه اللجنة تقوم بمهمتها فتعقد الاجتماعات لبحث ما يرد اليها من المسائل ، وترد على ما يوجه اليها من استفتاءات ، ببحوث وافية مستفيضة ، ثم تجيب عليها ، وتبين حكم الشرع فيها ، اما وفق أحكام مذهب معين اجابة لطلب المستفتى ، واما بغير تقيد بمذهب معين بحسب

ما تقضى به القواعد العامة وفقا للكتاب والسنة أو اجماع المسلمين أو القياس .

وقد قدر ما أصدرته اللجنة من الفتاوى كل عام بنحو ٣٥٠ فتوى . وتعاقب على رياستها المغفور لهم المشايخ : حسين والى ، محمد عبد اللطيف الفحام ، محمد مصطفى المراغى ، محمد مأمون الشناوى ، عبد الرحمن حسن ، عبد المجيد سليم ، ابراهيم حمروش ، محمد العنانى ، محمد حسنين مخلوف .

وعمل أعضاء بهذه اللجنة أصحاب الفضيلة المشايخ : محمود شلتوت ، عبد العزيز المراغى ، محمد عبد اللطيف السبكى ، عبد الرحمن تاج ، عبد الجليل عيسى وغيرهم ، وكلهم علماء متمكنون راسخون فى العلم .

مكتبات الأزهر

وبكليات الأزهر ومعاهده مكتبات كبيرة . ومكتبة الأزهر تعد الثانية بعد دار الكتب فى الشرق ، وبها من المخطوطات عدد كبير ويذكر الأستاذ الشيخ أبو الوفا المراغى أنه بلغ فى عام ١٩٤٣ أربعة وعشرين ألف مجلد .

ويرجع التفكير فى انشاء هذه المكتبة الأزهرية العامة الى الشيخ محمد عبده . فقد رأى ضرورة جمع الكتب المتفرقة فى مكتبات الأروقة لحفظ ما بقى من التراث العلمى لعلماء الأزهر ، وبخاصة بعد أن ظهر أن كثيرا مما كانت تضمه الأروقة من نفائس الكتب تسرب الى أيدى العلماء الأوربيين من طريق سماسرة الكتب ، كما ضاعت كتب كثيرة ، وأتلفت الحشرات قدرا كبيرا ، وتقطعت جلود كتب كثيرة ، وبليت أوراقها ، وتراكم عليها التراب . وبعض الكتب كان فى عهدة أشخاص لا أمانة لهم ، فباعوها بثمن بخس لمتصيديها والمتربصين لها ، وتصرفوا فيها تصرف الملاك .

ويقول الشيخ أبو الوفا المراغى أمين هذه المكتبة ، فى تقرير له ، انه « حوالى سنة ١٢٧٠ هـ (١٨٥٣ م) أمر ديوان عموم الأوقاف بجرد كتب مكتبات المساجد والتكايا وأروقة الأزهر وحاراته . وقيدت جميعها فى سجلين جامعين : خصص أولهما لمكتبات الجامع الأزهر ، وثانيهما لمكتبات المساجد والتكايا . وقد بلغ مجموع المجلدات الموجودة فى ذلك الوقت ، فى مكتبات أروقة الأزهر وحاراته ، ١٨٥٦٤ مجلدا . فاذا رجعنا الآن الى هذا السجل التاريخى فلا نجد من أثمن الكتب وأنفسها الا أسماءها ، وكأن هذين السجلين أنشئا ليكونا فى الواقع مرشدا لأيدى الاغتيال التى عمدت الى أنفس ما فى المكتبات من المؤلفات الأصيلة القيمة فانتهبتها انتهابا . وأغرب من هذا أن نفس السجلين تسربا أيضا الى أيد أجنبية خارج الأزهر ، ولم يعودا اليه الا بالشراء سنة ١٩١١ ، ودفع لهما ثمن قدره ١٥٠ قرشا ، وأعيد قيدهما بالمكتبة » .

ويطول بنا الحديث اذا شرحنا كيف جمعت الكتب ، وكيف استكملت الكتب التى وجدت ناقصة ... فقد فصل ذلك كله الشيخ عبد الكريم سلمان فى كتابه الذى أشرنا اليه ، وقال فيما قال : « وانى لأعرف كتبا كثيرة ، مما نجده الآن كاملا ، كان الكتاب الواحد منها بعضه فى خزانة فلان ، وبعضه الآخر فى خزانة فلان ، وباقيه فى خزانة فلان . ولم تجمع أجزاؤه بعضها على بعض الا بطريق المصادفة الحسنة ... الخ » .

ولكن لا يفوتنا أن نذكر أن هذه الكتبة بعد تكوينها ، تلقت مكتبات كثيرة وقفها الخيرون على العلماء وطلبة الأزهر ، منها :

١ — مكتبة سليمان أباظة (باشا) ، وقد أهداها ورثته الى الأزهر عام ١٨٩٨ بناء على مشورة الشيخ محمد عبده ، وعدد مجلداتها ١٤٨٤ مجلدا .

٢ — مكتبة حليم (باشا) . وقد خص الأزهر منها ٢٨٥٧ مجلدا . وكثير من كتبها بخطوط موشاة بالذهب .

٣ — مكتبة الشيخ عبد القادر الرافعى ، وعدد مجلداتها ١٤٥٧ مجلدا .

٤ — مكتبة الشيخ محمد بخيت المطيعى مفتى الديار المصرية ، وعدد مجلداتها ٣٣٦٥ مجلدا .

٥ — مكتبة الشيخ الانبابى شيخ الأزهر ، وعدد مجلداتها ١٤٥٢ مجلدا .

٦ — مكتبة نسيم أغا ، وعدد مجلداتها ألف مجلد .

٧ — مكتبة الشيخ العروسى شيخ الأزهر ، وعدد مجلداتها ٨١٨ مجلدا .

ثم مكتبات الشيخ ابراهيم السقا ، وابراهيم بك حفظى ، والشيخ حسونة النواوى ، والشيخ الجوهرى ، والشيخ محمد عبد اللطيف الفحام ، ورضوان باشا ، ومختار باشا ، وثابت باشا ، ورشيد باشا ، وبعض مكتبة مدرسة القضاء ، وبعض مكتبة زكى باشا ، ومكتبة رواق الصعايدة .

ويذكر الشيخ أبو العيون أن عدد مجلدات مكتبة الأزهر يبلغ الآن أكثر من ثمانين ألف مجلد .

ولكن هذه المكتبة الضخمة لم ينشأ حتى الآن مكان لائق بها ، وانما هى تحتل مبنيين كبيرين من أبنية الأزهر : يعرف أحدهما بالمدرسة الأقبغاوية ، والثانى بالمدرسة الطيبرسية .

غرباء تخرجوا فى كلية الشريعة

تخرج فى كليات الأزهر كثيرون من طلاب العلم الوافدين اليه من أنحاء العالم الاسلامى فى الشرق والغرب ، وعادوا الى بلادهم علماء ... ففى كلية الشريعة تخرج من أبناء فلسطين كثيرون ، نذكر منهم المشايخ : عبد الرحمن محمد مراد ، محمد محمود الحاج قاسم ، محمد حرب خميس جوده ، كمال سعيد حمدان الأغا ، سليم أحمد محمد المصرى ، جمعة موسى عبد القادر ، حسن عبد اللطيف أحمد ، توفيق محمود قاسم جرار ، رجب حامد بيوض التميمى ، محمد صالح يونس المحتسب ، توفيق محمود محمد عبد الفتاح عسليه ، واصف عبد الرحمن عبده ، واصف سيف الدين قمر الدين ، موسى حسن أبو السعود ، محمد قاسم عبد الله حسن أبو الحاج ، ناجى الحاج حسن عبد الله ، محمد الشيخ حسن أبو سردانه ، محمد بسام حنون ، نمر مصباح محمد النموره ، عدلى عبد القادر الجوهرى ، محمد بشير المراد ، عبد النديم زلوم .

ومن أبناء اقليم سوريا المشايخ : محمد سياد المراد ، أحمد رشيد البيك ، محمد محمود الحامد ، محمد عوض المقداد ، محمد خير عبد القادر الجلاد ، عبد الستار السيد الحسينى ، فخر الدين محمد أسعد الصاحب ، محمد صلاح الدين الأزهر ، وآخرون كثيرون .

ومن أبناء شرق الأردن : محمد صالح مناع الرغبى ، يس ابراهيم القطان ، أنور اسماعيل البشماق ، غالب أيوب محمد هيكل ، محمد محمود محيلان رشدى .

ومن أبناء لبنان المشايخ : عبد الغنى محمد البارودى ، محمد أحمد عمر خالد ، مصطفى محمود الرافعى .

ومن أبناء تركيا المشايخ : محمد فتحى مصطفى سليم ، محمد عبد العزيز عطا ناجى ، حسن حسن خرسا ... وآخرون .

ومن أبنـاء المغرب المشايخ : الهادى عبد الله الرديمى ، الطاهر صـالح سبيطة ، طاهر محمد السنوسى البوصيرى ، عبـد العزيز النجـار ، محمد حموز ربوح ، السنوسى محمد النجار ، أحمد محمد البلقينى التلمسانى ، محمـد علال القنوتى ، ابراهيم أدهم الرفاعى ، محمد الهادى أنديشة ، محمـد الحاج سالم المسلاتى ، حسن أحمد المقداسى ، محمد التمسمانى .

ومن أبناء السـودان المشـايخ : الأمين داود محمـد ، عثمان أحمد عبد الرازق ، طه محمـد المبارك ، مختار فضل بيرم ، ماهر خالد أبو بكر ... وغيرهم .

ومن أندونيسيا المشـايخ : أبو بكر أحمـد شهاب ، حسب الله جعفر عبد الله ، شمس الدين عمر على ، محمـد طه يحيى ، الحاج عبد الغنى سندانج ... وغيرهم .

ومن الأفغان الشيخ : محمد هاشم المجدودى .

ومن اليمن : محمد على محمد الجعفرى العلوى .

ومن المملكة السعودية : محمـد موسى على ، ابراهيم يوسف خان . ومن العراق : محمد محمود الصـواف . ومن ألبانيا : وهبى سليمان خليل عادجى .

غرباء تخرجوا فى كلية أصول الدين

أما كلية أصول الدين فقد تخرج فيها من أبناء الهند المشايخ : أبو الحسنات محمد محيى الدين ، محمـد عمـران خالد النـادى ، سـعد الدين الأنصارى .

ومن أبناء أندونيسيا : اسماعيل محمد بندا ، عبد الجليل حسن محمد ، عبد الرحمن اسماعيل ناسر ، اسماعيل عمر عبد العزيز ، محمـد طاهر عبد المعين .

ومن أبناء اقليم سوريا : عبد الرحمن توفيق عبد الرحمن البانى ، أنور محمد سليم عبد القادر .

ومن أبناء يوغوسـلافيا : حسن سلام . ومن الصـين : أبو بكر هاغان حبن ومن تطوان بمراكش : محمد حداد محمد أمزيان .

غرباء تخرجو فى كلية اللغة

وأما كلية اللغـة فقد تخرج فيها من السودان المشايخ : سليمان على ابراهيم ، عوض عقارب ، امام عثمان محمد ، أحمد مصطفى الطاهر ، أحمد محجوب محمد ، أحمد الخير أحمد ضرار ، يس ابراهيم أحمد ، عبد الله محمـد الشيخ ، محمد الأمين محمد على ، أحمد جمال الدين هلالى ، عبـد الرحمن ابراهيم الصـائم ، عثمان سليمان عثمان .

ومن المملكة السعوديـة : سيـد طلعت على الزواوى ، محمد محمد سعيد الدفتردار .

ومن اليمن المشايخ : محمد صالح المسمرى ، يحيى أحمد زوباره ، عبد الرحيم عبد الرحمن ، محمد على الجفرى العلوى .

ومن المغرب المشايخ : صالح أبو سدرة ، محمد الأمين محمد أحمد ، محمد المهدى المعطى صابر .

ومن طرابلس الغرب المشايخ : أبو بكر محمد أبو بكر ، محمـد على العريفاتى ، مختار ساس المغربى ، السنوسى أحمد التجلد . ومن لبنان : الشـيخ أديب توفيق سـون . ومن المـلايو : اسماعيل عمر عبـد العزيز . ومن شرق الأردن : محمد جمال الـدين . ومن فلسـطين الشـيخ عبـد الله على البطران ، والشيخ عبـد الرءوف

الليدى ومن ألبانيا : الشيخ حسن خوجا ومن الكويت : عبد العزيز حسين عبد الله .

ومن اقليم سوريا المشايخ : نصوح حسنى السباعى ، عبد الرحمن رأفت الباشا ، محمد كامل الحمامى ، محمد أمين المصرى الميرى .

ومن أندونيسيا المشايخ أبو بكر أحمد شهاب ، حامد محمد حامد العلوى ، مختار لمينتغ ليلوماليم

ومن يوغوسلافيا توفيق اسلام يحيى ومن القوقاز : برهان الدين محمد الداغستانى .

ثمرات الجامعة الحديثة

هؤلاء بعض ثمرات الجامعة الأزهرية الحديثة وقد نقلنا أسماءهم من كشف محرر ببيان الذين تخرجوا فى هذه الكليات الثلاث منذ انشائها حتى عام ١٩٤٨ هذا عدا الذين يتخرجون فى القسم العام — وقد صار فيما بعد معهد البعوث — فقد تخرج فيه من هؤلاء ٤٧٧ عالما فى الفترة بين عامى ١٣٣٤ — ١٣٦٨ للهجرة ، كما ذكر فضيلة الشيخ أبى العيون رحمه الله ، وقد كان سكرتيرا عاما الأزهر .

وقد انفسح مجال العمل أمام خريجى هذه الكليات من المصريين وغيرهم ... فأصبح المتخرجون فى كلية اللغة العربيه يعيشون فى مدارس الدولة ، وكذلك المتخرجون فى كليتى الشريعة وأصول الدين وقد زاد عددهم فى وزارة التربية والتعليم حتى أصبح لهم فى كل مدرسة مكان .

فى الجامعات

وقد استعانت جامعات القاهرة والاسكندرية وعين شمس — ولا تزل تستعين — بأبناء الأزهر ... فانتدبت المرحوم الدكتور محمد عبد الله دراز ، والدكتور محمد يوسف موسى ، والدكتور عبد الحليم النجار للتدريس فيها كما انتدبت المشايخ : ياسين محمد سلام مدكور ، وزكريا البرى ، ومحمد المدنى وغيرهم لتدريس الشريعة الاسلامية وقد عين أكثر هؤلاء أساتذة فى هذه الجامعات ، ومنحوا امتيازاتها .

اروقة الأزهر

أصل معنى كلمه الرواق فى اللغة : مقدم البيت ، أو الستره فى مقدمه ، أو الشقة التى تكون دون العليا . ولكنها هنا تطلق على المسكن الذى تقيم فيه طائفة من أبناء الأزهر وقد عرفنا أن أول مسكن بنى لطلاب الأزهر هو الذى بناه يعقوب ابن كلس ... وقد تتابع انشاء المساكن الملاصقة بالأزهر لطلاب العلم فيه ، حتى تكون منها اطار يحيط به من جوانبه المختلفة . وتتصل هذه الأروقة بالمسجد اتصالا مباشرا . ولها أبواب تفضى اليه من الداخل ، وأبواب من الخارج وبين هذه الأروقة ، وفى جوانب المسجد ، ما تطلق عليه اسم « الحارات » ، وهى أماكن كانت توضع فيها الخزائن ، ويقيم بها الطلاب أيضا

ولكل طائفة من الطوائف التى تقيم بالأروقة والحارات دفتر تسجل فيه أسماؤهم ، ويكون تحت يد نقيبهم ، وشيخ يحكم فيهم ويدافع عنهم ، ويخاطب فى شأنهم من قبل شيخ العموم (شيخ الأزهر) أو مشايخ المذاهب .

ولكل طائفه أوقاف من العقار وغيره ، تصرف عليهم من ريعها بشروط يقررها الواقف عدا الأوقاف العامة التى يشترك فى ريعها أهل الأزهر كافة ولا يزال هذا النظام سائدا حتى الآن .

ويبلغ عدد الأروقة تسعة وعشرين رواقا ،

أشهرها رواق الصعايدة ، بل هو أكثرها أهلا وأوقافا ، وأوسعها دفترا .

وهذا الرواق عن يمين الداخل من باب الصعايدة ، المواجه لشارع الباطنية ، يصعد اليه الداخل نحن عشرين سلما فيجد ايوانا متسعا بوسطه عمود من الرخام ، وبهذا الايوان ايوان صغير كانت فى داخله خزانة كتب يستعير منها الطلاب والمدرسون ، ثم ضمت هذه الكتب الى مكتبة الأزهر مع غيرها من الكتب التى كانت فى الأروقة الأخرى .

وقد أنشأ هذا الرواق الأمير عبد الرحمن كتخدا مع ما أنشأ من العمائر الأخرى فى الأزهر ، ووقف عليه عدة أوقاف . ثم اقتدى به أهل الخير ، فوقفوا عليه عدة أوقاف كذلك ، ورتبوا له جرايات يومية ومرتبات سنوية .

ثم هناك الى ذلك : رواق الحرمين ، رواق الشوام ، رواق الدكارنة الغورية ، رواق المغاربة ، رواق السنارية ، رواق الأتراك ، رواق الجاوة ، رواق الجبرتية ، رواق الهنود ، رواق البغدادية ، رواق البحيرة ، رواق الفيومية ، رواق الحنفية ، رواق الفشنية ، رواق الشراقوة ... وهكذا الى تسعة وعشرين رواقا كما قدمنا .

ومن الأروقة الحديثة : الرواق العباسى ، وكانت تعقد فيه دروس الشيخ محمد عبده فى التفسير والبلاغة ، ويحضرها كبار المثقفين فى مصر ، فكان لها شأنها فى توجيه الرأى العام وانارة الأذهان .

معاهد الأزهر

قبل أن يدخل الأزهر فى طور التنظيم والاصلاح ، كانت بعض المساجد ، فى المدن المختلفة ، قد تحولت الى معاهد تدرس فيها العلوم الشرعية والعربية ، ويتولى التدريس فيها علماء من الأزهر أو من المتخرجين فيها . ومن هذه المساجد : الجامع الأنور بالاسكندرية ، والجامع الدسوقى بدسوق ، والجامع الأحمدى بطنطا ... هذا الى مساجد أخرى فى دمياط وأسيوط وقنا .

وفى ٢٩ من المحرم عام ١٣٢١ للهجرة (٢٧ ابريل عام ١٩٠٣ م) ، صدر قرار من الخديو بالحاق التدريس والامتحان فى الاسكندرية بالجامع الأزهر . وسافر شيخ الأزهر ومفتى الديار المصرية الى الاسكندرية ، وشكلا لجنة برياسة شيخ الأزهر من أكابر علماء الاسكندرية ، دعى اليها الشيخ أحمد باشا ليعلم هل يقبل أن يكون الجامع الأنور ، الموقوف للتدريس من جده ، خاضعا للتنظيمات الجديدة فى الاسكندرية أم لا ؟ فتردد فى الأمر أولا ، ثم عاد وأمضى على المحضر بأنه قابل لهذه التنظيمات .

ثم اشتغلت اللجنة بعد ذلك فى حصر العلماء الموجودين ، ورتبت درجاتهم على أساس شهادة لجنة من العلماء الاسكندريين ... وبذلك صار المعهد تابعا لادارة الأزهر ، خاضعا لاشرافها .

كما ضم اليه المعهدان الأحمدى والدسوقى ، ومعهدا دمياط وأسيوط ، وأنشئت بعد ذلك معاهد كثيرة أخرى فى شبين الكوم ومنوف ودمنهور والمنصورة والزقازيق وسمنود والمحلة وأبى كبير وبنها وقنا وسوهاج والمنيا وبنى سويف . وضمت اليه معاهد حرة : كمعهد المنشاوى وقوص وبنى عدى وأولاد طوق شرق وبلصفورة .

وهذه المعاهد هى التى تغذى كليات الأزهر بالطلاب بعد نجاحهم فى امتحان الشهادة الثانوية ، وتتغذى بدورها من مكاتب تحفيظ القرآن فى القرى .

ومما تجدر ملاحظته أن الحركة التعليمية فى

الأزهر وفى معاهده ، وفى المكاتب التى تمده هذه المعاهد بحاجتها من الطلاب ، لم تضعف ... لا فى عهد « دنلوب » حين كان التعليم يهدف الى هدم كل مقومات القومية العربية والاسلامية ، ولا فى عهد غيره من الوزراء الذين اتجهوا بسياسة التعليم فى مصر اتجاها يجافى قوميتها العربية وروحها الاسلامى ... بل انه حتى بعد تقرير مجانية التعليم ، وامداد طلاب المدارس بالأغذية والكتب ، واغلاق المكاتب التى كانت تقوم بتحفيظ القرآن ، لا يزال الأزهر يتلقى كل عام فيضا من أبناء الشعب .

وهكذا كانت المكاتب التى ينشئها القرويون فى القرى لتحفيظ القرآن ، وكانت المعاهد الدينية التى كثر انشاؤها بين حرة ونظامية ، تحديا واضحا من الشعب المصرى العربى الاسلامى للتوجيه الاستعمارى . وكان الأزهر ومعاهده وروافده قلاعا عربية اسلامية تدرس فيها العلوم العربية ، ويصان فيها التراث الاسلامى . وكان أبناؤه وقود كل حركة ثورية ضد الاستعمار وأعوانه ... وبعبارة أدق وأحق كان الأزهر هو القومية العربية بكل ما يعرف للقومية من مقومات .

شروط الالتحاق بالأزهر

أما شروط الالتحاق بالأزهر فهى — كما قرر المجلس الأعلى للأزهر فى سبتمبر عام ١٩٣٦ م — ما يلى :

أولا — ألا تقل سن الطالب عن اثنتى عشرة سنة ، وألا تزيد على ست عشرة سنة ، وأن يكون خاليا من الأمراض المعدية .

ثانيا — ألا تقل قوة بصره فى مجموع العينين معا عن الثلثين ... وهذا فى غير العميان من الطلبة .

ثالثا — أن يكون حافظا للقرآن الكريم كله (ويعفى الأغراب من شرط حفظ القرآن الكريم) .

رابعا — أن تكون درجة الامتحان فى المطالعة والاملاء والخط والحساب ٢٠ للنهاية الكبرى و١٠ للنهاية الصغرى .

خامسا — أن يكون امتحان الحساب دالا على الملم الطالب الماما تاما بقواعده الأربع الأصلية ، مع القدرة على حل المسائل والتمرينات فيها .

سادسا — أن يقصر امتحان الاملاء والحساب على الامتحان التحريرى ، وأن يقصر امتحان العميان على حفظ القرآن الكريم .

المكفوفون فى الأزهر

ويكاد الأزهر يمتاز عن غيره من المعاهد العلمية والجامعات بأنه أول جامعة عنيت بالمكفوفين ، وفسحت لهم المجال لابراز مواهبهم وملكاتهم . فهم فى المنهج التعليمى كالمبصرين فيما عدا المواد التى لا بد فيها من الابصار .

وقد تخرج فيه كثيرون من المكفوفين طارت شهرتهم فى العالم الاسلامى والعربى ، ووصل بعضهم الى مشيخة الأزهر ، كالشيخ القويسنى ، ومنهم من كان صاحب مدرسة فى الأدب كالشيخ حسين المرصفى . وقد عهد اليه بالتدريس فى دار العلوم عند بدء انشائها . ومنهم من كان شاعرا له فى الأوساط الأدبية منزلة مرموقة كالشاعر العالم الراوية الشيخ أحمد الزين . ومنهم من كان حكيما فيلسوفا كالشيخ يوسف الدجوى . ومنهم من أسقط فى الشهادة العالمية ، ثم لم تقف به همته حتى أحلته منصب الوزارة ، وعرف بلقب عميد الأدب العربى ، وهو الدكتور طه حسين . ومنهم من أجاد عدة لغات ، ونبغ فى الخطابة والشعر كالشيخ صاوى شعلان الواعظ العام بالسجون .

وقد عرف غير هؤلاء كثيرون ، كالمشايخ : على الصالحى ، ومحمد ماضى الرخاوى ، وابراهيم

الحديدى ، وسالم البولاقى ، وعبد المطلوب برعى . ولا يتسع المقام لاستيعاب العلماء الأعلام من هؤلاء المكفوفين الذين تخرجوا فى الأزهر .

وقد ألف الأستاذ أحمد الشرباصى كتابا ضخما سماه « فى عالم المكفوفين » فليرجع اليه من يريد الاستزادة وقد نوه شوقى بعبقرية هؤلاء فقال يخاطب فؤاد بمناسبة اصلاح الأزهر عام ١٩٢٤ :

والله ما تدرى لعـــل كفيفهم
يوما يكون أبا العـــلاء المبصرا

لو تشتريه بنصف ملكك لم تجد
غبنا ... وجل المشترى والمشترى

مبانى الازهر

لم يكن الأزهر القديم هو هذا الصرح الذى يواجهك بمآذنه العالية وقبابه الضخمه ، ونحيط به سلسلة من المدارس (المساجد) والأبنية التى أعدت لسكنى الطلاب فيه ، وعرفت باسم الأروقة ... وانما كان مسجدا ، كأى مسجد ، بنى ليكون المسجد الجامع فى العاصمة ثم امتدت اليه يد التجديد والتعمير والانشاء ، فرممت ما تصـــدع منه ، وأدخلت فيه ، وأضافت اليه ، وألحقت به ... حتى صار هذا الصرح الكبير ، وهذه المدينة الجامعية التى كانت تضم آلافا مؤلفة من الطلاب المختلفى الألوان والأجناس .

وقـد ذكرنا بعض ما أدخل فيـه من عمارات . والآن تعال معى فى زيارة لهذا المســجد لتتعرف بعض جوانبه ونواحيه ، وبعض ما أدخل المصلحون فيـــه .

ان أول ما ستقبلنا عندما نصل الى نهاية شارع الأزهر هو باب الأزهر الكبير ، وهو تتكون من بابين واسعين يطلان على الميدان فاذا دخلنا منهما أو من أحدهما ، وجدنا أنفسنا فى دهليز يفصل بين جناحين من الأبنية عن يمين وشمال ، ووجدنا أمامنا بابا آخر كبيرا يصلنا بصحن المسجد ... وهذا الباب هو أول حدود المسجد التاريخى أما الأبنية التى تقوم على جانبى هذا الدهليز ، فقـد أنشئت فى القرن الثامن للهجرة وما بعده ... فالجناح الأيمن — ما عدا منارتيه — أنشأه الأمير طيبرس فى عام ٧٠٩ هـ (١٣٠٩ م) والجناح الأيسر بمنارته أقامه الأمير أقبغا فى عام ٧٤٠ هـ (١٣٤٠ م) . والباب الداخلى بما فوقه من منارة عالية جميلة الى يمين الداخل ، من عمـل السلطـان قايتباى عام ٨٧٣ للهجرة (١٤٦٨ م) أما المنارة التى تليها فهى من صنع السلطان الغورى عام ٩١٥ هـ (١٥١٠ م) ، وهى ذات برجين نوأمين .

مدرســتان

ان هــذين الجناحين اللذين تراهمــا عن يمين وشمال كانا مدرستين وللمدرسة فى تلك العصور مفهوم غير مفهومها الآن ، اذ كانت الثقافة العقلية متصلة بالتهذيب الروحى ... ولهذا نجد فى هاتين المدرستين محرابين أنيقين من الرخــام والذهب ، وهما الآن مكان المكتبه الأزهريه التى تحدثنــا عنهــا .

هــذه هى الزيادات التى نجدها أول ما ندخل الأزهر ، فاذا تركناها وعبرنا السطح الى المقصورة وجدنا محرابا قائما فى وسط المصلى غير متصل بجدار ، كما هو الشأن فى كل محراب ، وخلفه أرض ترتفع درجتين عن الأرض الممتدة بين هــذا المحراب ، وتقوم فيها صفوف طويلة من الأعمدة الرخامية توازى أعمدة الأرض المنخفضة ، ثم نجد محرابا آخر مستندا كالعــادة الى جــدار ، والى جواره منبر

ان هذا الايوان المرتفع بما فوقه ، والجــدار

المتصل ببابه ، والمنارتين اللتين فوقهما ، كلها أدخلها الأمير عبد الرحمن كتخدا عام ١١٦٧ للهجرة (١٧٥٣ م) .

فاذا اقتربنا من جدار هذه المقصورة الشمالى الشرقى وجدنا بابا صغيرا يوصلنا الى مبنى جميل أقامه الأمير جوهر قانقباى المتوفى عام ٨٤٤ للهجرة (١٤٤٠ م) ليكون مدرسة ، ولكن فيه كذلك عناصر المسجد الكبير ، وفيه قبة بانيه وقبة تقوم فوق هذا القبر .

وقد جدد بناء أحد البابين القائمين فى جدار القبلة عام ١٢٨٢ للهجرة (١٨٦٥ م) فى عهد اسماعيل . وفى عام ١٣٠٦ للهجرة (١٨٨٨ م) ، جدد بناء هذا الايوان فى عهد توفيق .

ابنية حديثة حول المسجد

وفى خارج نطاق المسجد مجموعة من الأبنية الحديثة تشرف عليه من الشمال ومن الشمال الشرقى . فقد أنشىء فى عامى ١٩٣٥ ، ١٩٣٦ أربع عمارات كبيرة لسكنى الطلاب . ثم بنى بعد ذلك مدرج فخم يسع ألفى مستمع ، ليكون قاعة للمحاضرات ، وكلية للشريعة الاسلامية ، وكلية للغة العربية . أما كلية أصول الدين والمكتبة والمعهدان الابتدائى والثانوى والمستشفى والحديقة فلا تزال خطوطا فى الورق الذى وضع فيه التصميم الأساسى لمبانى الجامعة الأزهرية .

هذه هى ملامح الأزهر قديما وحديثا . ولو تتبعنا التاريخ بالتفصيل لتكميل الصورة وتلوينها ، لكان علينا أن نؤرخ مصر بكل مظاهر النشاط فيها منذ أنشىء الأزهر حتى الآن ... فقد كان ، وكان أبناؤه ولا يزالون ، بمثابة الجذور الضاربة فى تربة مصر ، الممتدة فى أطباقها وأعماقها ... حتى فى العهود التى وصف فيها بالجمود والتخلف .

وبحسب القارىء أن يقرأ أسماء الزعماء والعلماء والكتاب الذين تدين لهم الأمة العربية بنهضتها ، فسيجد أنهم يدينون ، مع انفصالهم عن الأزهر ، بما للأزهر عليهم من فضل ... فليس عرابى ، وسعد زغلول ، والمنفلوطى ، والبشرى ، وطه حسين ، وأحمد أمين ، ومصطفى عبد الرازق ، وأمين الخولى ، وأحمد حسن الزيات ... الا أزهريين تلقوا تربيتهم فى الأزهر على يد الأزهريين .

وما كانت الجامعة ودار العلوم ومدرسة القضاء فى بدء نشأتها الا فصولا تابعة للأزهر . فقد كان يوكل الى المبرزين من علمائه التدريس فيها ... بل ما كانت النهضة فى احياء الكتب العربية الا على يد علماء الأزهر . وقد عبر شوقى عن هذه الحقيقة فقال :

ما ضرنى أن ليس أفقك مطلعى
وعلى كواكبه تعلمت السرى

هذا الى أثر الأزهر فى الصحافة منذ كانت لمصر صحافة حتى الآن ، وفى الاذاعة ، وفى الجمعيات الدينية المنبثة فى أنحاء البلاد ، وفى حقول التعليم بوزارة التربية والتعليم . والأمل فى مصر وفى الشعوب العربية والاسلامية أن توليه من عنايتها ما يمكنه من متابعة جهوده وجهاده ... فان رسالته هى رسالة العروبة والاسلام ، وستبقى رسالته ما بقيت العروبة وبقى الاسلام .

عبد الرحيم قوده

جامع آق سنقر

الأمير آق سنقر الناصرى ، أحد مماليك الناصر محمد بن قلاوون ، عينه فى عدة وظائف من أمير مائة الى مقدم وأمير شكار (وهو المشرف على شئون الصيد) . وزوجه باحدى بناته . ثم عين واليا لغزة بعد وفاة الناصر ، ثم عين أمير آخور فى دولة الصالح اسماعيل ، ثم ولى نيابة طرابلس .

وفى دولة الكامل شعبان تلألأ نجمه ، وعمل على انتقال الملك الى المظفر حاجى ابن الناصر محمد بن قلاوون ، حتى صار نافذ الكلمة ، ولعب دورا كبيرا فى سياسة الدولة الى أن قبض عليه فى ربيع الآخر عام ٧٤٨ هـ (١٣٤٨ م) ، وقتل رحمه الله ، ودفن فى هذا المسجد .

تاريخ انشاء المسجد

شرع الأمير آق سنقر الناصرى فى ١٦ من رمضان عام ٧٤٧ هـ (١٣٤٧ م) فى بناء هذا الجامع ، وأنشأ بجواره مكتبا وسبيلا ومكانا ليدفن فيه ، ونقل اليه ابنه . وقد اهتم بعمارته اهتماما كبيرا حتى انه كان يشرف على العمارة بنفسه ، وافتتحه للصلاة فى يوم الجمعة ٣ من ربيع الأول عام ٧٤٨ هـ (١٣٤٧ م) ، وأوقف عليه ضيعة من قرى حلب للصرف عليه ، وتعميره .

وفى عام ٨١٥ هـ (١٤١٢ م) أنشأ فى وسطه الأمير طوغان الدوادار فسقية أقام فوقها سقفا محمولا على عمد لم يبق لها أثر اليوم ، وربما حلت محلها المظلة الموجودة فى وسط الجامع .

وصف المسجد

وضع تصميمه على مثال المساجد الجامعة : أربعة ايوانات يتوسطها صحن مكشوف ، أكبرها ايوان القبلة المشتمل على رواقين . أما الايوانات الثلاثة ، فكل منها رواق واحد . وللجامع ثلاثة أبواب فى واجهاته الغربية والبحرية والقبلية وميضأته منعزلة عنه .

وتعد الواجهة الغربية أهم واجهاته ، بها الباب العمومى المحمول عقده على كوابيل طريفة . وعتب الباب ملبس بمزررات رخامية خضراء . وعلى يساره قبة علاء الدين كجك المحلاة شبابيكها بمزررات رخامية ملونة ، ما بين خضراء وبيضاء ، يعلوها شباك مستدير لبس ما حوله برخام ملون مزخرف ، يغطيها مقرنص واحد . وبها لوح رخامى مكتوب فيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم . كل نفس ذائقة الموت . هذه القبة المباركة عمرت لدفن العبد الفقير الى الله تعالى مولانا السلطان السعيد الشهيد الملك الأشرف علاء الدين كجك » . وكانت وفاته فى شهر جمادى الأولى سنة ست وأربعين وسبعمائة .

وعلى يمين الباب شباكان حليت أعتابهما بمزررات رخامية خضراء ، يغطيها مقرنص واحد . وتنتهى الواجهة بمنارة رشيقة مكونة من ثلاث دورات : بدن الدورة الأولى مستدير ، والثانية قنوات مستطيلة ، والثالثة مسدسة فوقها خوذة خشبية مغلفة بالرصاص .

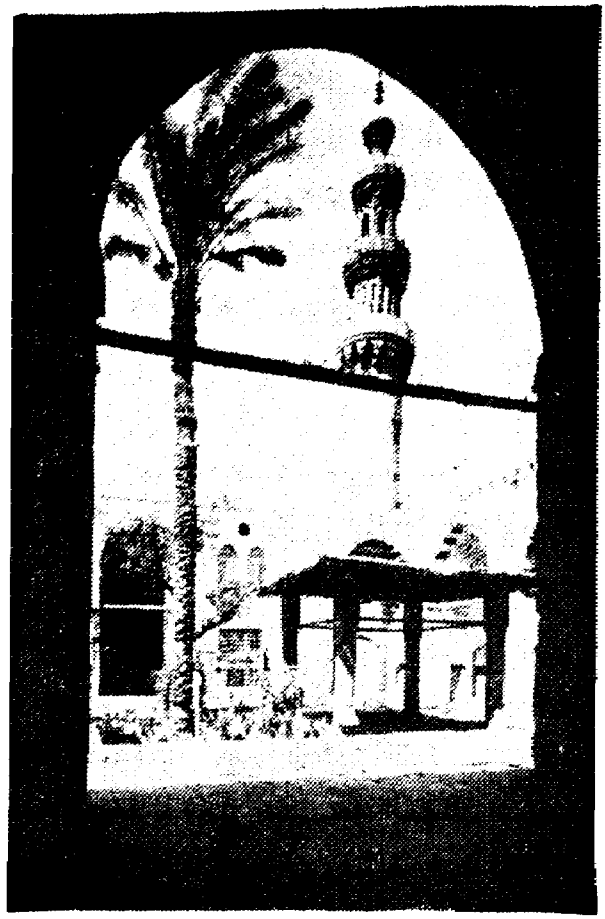

جامع آق سنقر

وعلى يسار الداخل من الباب العمومى مدخل قبة السلطان الملك الأشرف كجك بن السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون . وهى قبة طريفة بها ايوان ودوائر وبخاريات جصية .

وعلى يمين الداخل بمؤخر الايوان القبلى حجرة أنشأها ابراهيم أغا مستحفظان عام ١٠٦٢ هـ (١٦٥٢ م) ، كسيت جدرانها من أسفل بوزرة رخامية ، وبقية الجدران بالقاشانى حتى السقف . وبها محراب رخامى ، ووسطها قبر من الرخام أنشأه فى حياته عام ١٠٦٤ هـ (١٦٥٣ م) .

وفوق شباك المدفن لوحة رخامية تحمل تاريخ عمارة ابراهيم للمسجد عام ١٠٦١ هـ (١٦٥٠ م) . ويجاور هذا المدفن الباب القبلى للجامع ، يلاصقه بناء مربع بسيط بداخله قبر تسوده البساطة ، عليه لوحة نقرأ فيها : « هذا قبر المرحوم آق سنقر الناصرى ، المعروف بجامع النور ، وكان ابتداؤه سادس عشر رمضان سنة ٧٤٧ هـ ، والفراغ فى سنة ٧٤٨ هـ » .

ومن المؤكد أن هذه المقبرة أنشئت فى وقت غير معلوم ، لأنه معلوم أن آق سنقر أعد لنفسه مقبرة بجوار الجامع ، حلت محلها الآن الأبنية التى تحجب بقية الواجهة القبلية على الأرجح ... هذا الى أن المقبرة فى وضعها الحالى هى مقبرة ابراهيم أغا الذى بخل على المنشىء الأصلى بمقبرة تتناسب وعمله الخيرى العظيم .

والايوان الشرقى أكبر الايوانات ، وهو يشتمل على رواقين كانت عقودهما محمولة على أكتاف حجرية مثمنة وسقفها معقودة . وما زال الرواق أمام المحراب محتفظات بأصله لم يتغير . أما الرواق الثانى ، المشرف على الصحن ، فان عقوده استبدلت

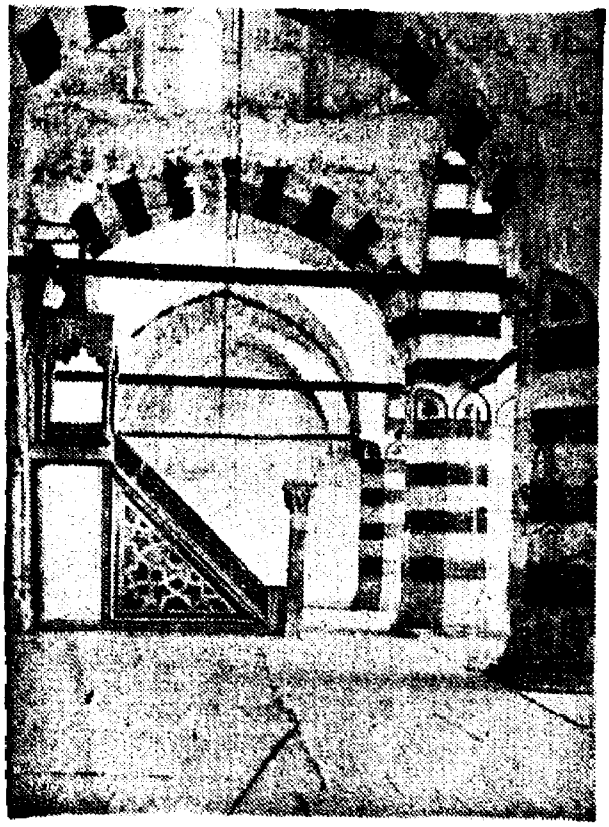

المنبر فى جامع آق سنقر

يسقف من الخشب ، وبقى طرفاه على أصلهما ، وأبدلت بدعائمه عمد رخامية وأكتاف حجرية مربعة ، وكذلك الرواق القبلى والبحرى . أما الرواق الغربى فانه محتفظ بكثير من تفاصيله القديمة .

وهذا التغيير أحدثه ابراهيم أغا مستحفظان فى عمارته الكبيرة التى أجراها بالجامع عام ١٠٦١ — ١٠٦٢ هـ (١٦٥٠ — ١٦٥١ م) كما هو منقوش فى غير موضع بالجامع . ولم يقتصر على هذه العمارة ، بل كسا الجدار الشرقى حتى السقف بالقاشانى الملون الجميل ، وهى أكبر مجموعة منه وجدت فى أثر واحد بمصر . ويزيد فى أهمية هذه المجموعة أنها عملت خصيصا لهذا الجامع برسوم موضوعة ... ولذلك عرف الجامع — وخاصة عند الزائرين الأجانب — « بالجامع الأزرق » ، نسبة الى مجموعة القاشانى العظيمة الموجودة فيه .

ومما يسترعى النظر فى هذا الايوان ، المنبر الرخامى الملون ، ودرابزينه الحافل بالزخارف البارزة المورقة وعناقيد العنب . وهو أقدم منبر رخامى باق فى مساجد مصر ، يليه منبر مدرسة السلطان حسن .

يجاور المنبر محراب كبير كسى بأشرطة دقيقة من الرخام والصدف . وقبته وغطاؤه ، المعبر عنه بالطاقية ، رخامى محلى بزخارف نباتية ملونة بارزة ، لعلها الوحيدة من نوعها . وقد ثبت على يسار هذا المحراب لوح من الرخام مكتوب فيه : « رأى النبى صلى الله عليه وسلم فى هذا المحراب المبارك ، فى ليلة السبت تاسع شهر ذى الحجة الحرام سنة ثمان وستين وثمانمائة — وهو قائم يصلى — معمر هذا الجامع الشريف ابراهيم أغا مستحفظان حالا فى تاريخ ١٠٦٢ هـ » .

ويعلو المحراب قبة كبيرة مقرنصها كذلك من طاقة واحدة . وغريب أن نرى مقرنصات قباب هذا المسجد ، وقبتى مسجد السلطان شعبان وتنكزبغا من طاقة واحدة . ويؤخر هذا الايوان دكة المبلغ ، وهى من الرخام .

وقد أجرى بالجامع عمارة هامة فى سنة ١٣٠٧ هـ ، أعادت اليه رونقه وبهاءه .

حسن عبد الوهاب

مسجد السيدة نفيسة

أجمع المؤرخون على صحة تشريف السيدة نفيسة أرض مصر ، ودفنها فى هذا المشهد . فهو يقينا أصح المشاهد .

وهو مشهد يغمره النور ، ويحف به الوقار والجلال ، مشتهر باجابة الدعاء فيه . وكيف لا وقد ثوت فيه فرع الدوحة المحمدية السيدة الطاهرة العالية القدر نفيسة ابنة الامام الحسن ابن زيد بن حسن السبط ابن أمير المؤمنين على ابن أبى طالب « رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت انه حميد مجيد » .

ولدت رضى الله عنها بمكة عام ١٤٥ هـ (٧٦٢ م) ، ونشأت بالمدينة ، ولازمت قبر النبى صلى الله عليه وسلم . وكانت على جانب عظيم من التقوى والزهد ، تحفظ القرآن وتجيد تفسيره . صوامة قوامة ، حجت ثلاثين حجة ، وتحققت أمنيتها ، فزارت قبر الخليل ومعها زوجها اسحاق المؤتمن بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن على زين العابدين بن الامام الحسين ، ثم رحلا الى مصر . وقد احتفى بها أهل مصر ، واستقبلوها أحسن استقبال .

كان تشريفها أرض مصر فى شهر رمضان عام ١٩٣ هـ (٨٠٩ م) ، وقيل عام ١٩٦ هـ (٨١٢ م) ، فقصدها العلماء والصالحون والمتبركون بها . وكان الامام الشافعى يزورها ، ويطلب منها الدعاء . وقيل انه سمع عليها الحديث ، وانه كان يصلى بها التراويح فى شهر رمضان بمسجدها ، وانها صلت عليه مأمومة يوم وفاته رضى الله عنه .

أقامت بمصر وسط تكريم المصريين وتعلقهم بها ، وحفرت قبرها بنفسها ، وداومت على قراءة القرآن فيه . فلما كانت أول جمعة من رمضان عام ٢٠٨ هـ (يناير عام ٨٢٤ م) ، وصلت فى قراءتها فى هدأة الليل الى سورة الأنعام ، وعند قوله تعالى : « لهم دار السلام عند ربهم وهو وليهم بما كانوا يعملون » غشى عليها ، وتشهدت شهادة الحق ، وانتقلت الى الرفيق الأعلى .

وبعد وفاتها شيد مشهدها أمير مصر عبيد الله بن السرى بن الحكم . ثم جدد انشاءه أمير الجيوش بدر الجمالى عام ٤٩٢ هـ (١٠٨٩ م) . وفى عام ٥٣٢ هـ (١١٣٧ م) جدد القبة الخليفة الحافظ لدين الله ، وكسا المحراب بالرخام . وقد بقى من هاتين العمارتين ، بمتحف الفن الاسلامى ، محراب خشبى متنقل ، به زخارف دقيقة وكتابات كوفية آية فى الدقة والجمال يقرأ منها : « ان المتقين فى جنات وعيون آخذين ما آتاهم ربهم انهم كانوا قبل ذلك محسنين . كانوا قليلا من الليل ما يهجعون » ، ومصراعان خشبيان دقت حشواتهما بزخارف نباتية ، ومكتوب بوسط كل حشوة بالخط الكوفى « بركة » .

وقد بلغ من تقديس هذا المشهد أن أخذ من يعتدى على حرمته بالشدة . ففى عام ٦٣٨ هـ (١٢٤٠ م) تسلل الى المشهد لصوص ، وسرقوا ١٦ قنديلا من الفضة . وبعد القبض عليهم اعترف أحدهم بأنه هو السارق فشنق أمام المشهد .

وفى عام ٧١٤ هـ (١٣١٤ م) أنشأ الناصر محمد بن قلاوون مسجدا بالمشهد ، صرف على انشائه من الهبات المقدمة للمشهد ومن النذور . وقد زار المشهد الرحالة المغربى خالد البلوى عام ٧٣٧ هـ (١٣٣٧ م) ، ووصفه وصفا فنيا فقال :

« شاهدنا المشهد العظيم ... مشهد السيدة نفيسة رضى الله عنها . فرأيت مسجدا عظيما غاية فى الحسن ، فيه من الذهب وأنواع النحاس ما لا يحصيه العد ولا يجمعه ، يشهد اليه الداخل بعد اجتياز ثلاثة أبواب متقابلة بديعة ... وفى قبلة المسجد ستار من الحرير مكتوب فيه بخيوط الذهب : « هذا مشهد السيدة نفيسة ابنة الحسن ابن زيد بن الحسن بن على بن أبى طالب رضى الله عنهم » ...

« وفى داخله مسجد آخر أصغر منه حجما ، وأتم حسنا ، وأعظم اتقانا وصنعة . فى جدار قبلته باب بديع يؤدى الى قبة عجيبة تتوقد ذهبا ، وتتلألأ جمالا ...

« وتحت القبة الضريح المبارك ، وحوله الرخام البديع المجزع الغريب الترصيع ، وشبابيك العود البديعة التخريم ، وثريات الفضة والذهب ، وقناديل التبر الخالص الابريز » .

هذا وصف خلاب للمشهد النفيسى وللمسجد الذى شيده الناصر محمد بن قلاوون . وقد بقى من عمارة الناصر محمد شعاع من الخشب دقيق الصنعة ، حوى أدق خرط مكتوب عليه بالخط الكوفى المربع : « انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا » ، ومكتوب « بسم الله الرحمن الرحيم . رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت انه حميد مجيد . هذا مشهد السيدة نفيسة بنت الحسن بن زيد ابن أمير المؤمنين الحسن بن أمير المؤمنين على بن أبى طالب صلوات الله عليهم أجمعين . توفيت السيدة نفيسة صلوات الله عليها فى شهر رمضان المعظم سنة ثمان ومائتين » .

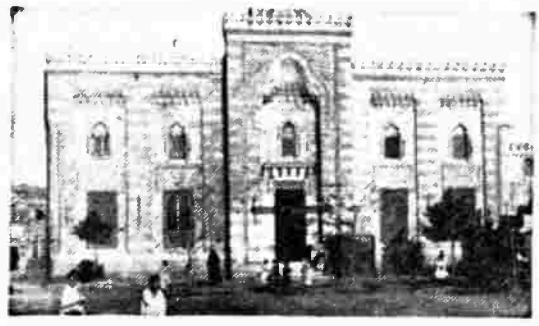

الواجهة الغربية للمشهد النفيسى

كما حلى ظهر هذا الشعاع بزخارف وكتابات تخللتها زخارف آية فى الروعة ، ومكتوب أعلاه : « بسم الله الرحمن الرحيم يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم . خالدين فيها أبدا ان الله عنده أجر عظيم . اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آله الطيبين الطاهرين وسلم تسليما » .

ومن المرجح أن هذا الشعاع كان يعلو مدخلا مؤديا من المسجد الى المشهد ، كما تحلف منه شباك كتب باطاره المزخرف آيات من القرآن ، واشتمل أعلاه وأسفله على حشوات مسدسة حفرت بزخارف نباتية دقيقة .

ويلاحظ من المخلفات المعمارية الباقية من العمارات القديمة لهذا المشهد أن المهندس والصانع تكاتفا على اخراج مصنوعات اتسمت بالدقة والجمال ، بما يناسب مشهد سيدة جليلة . وهذا مالاحظته فى كثير من المنشآت المعمارية التى شيدت للنساء اللائى أمرن بتشييدها .

وأدرك هذا المشهد فى روعته الرحالة عبد الغنى النابلسى ، وزاره عام ١١٠٥ هـ (١٦٩٢ م) ، وقال : « دخلت الى مزارها المعمور فاذا هو ملآن بالناس وحوله ، مع كمال الخضوع . والنساء هناك وحدهن تقرأ لهن القرآن امرأة حافظة بالصوت

العـالى . وكوكب الهيبة والجلال فى سماء تلك الحضرة متلالى . ثم دخلنـا الى معبـدها هناك ، وصلينا ركعتين بقصد حصول البركة » . ثم أنشد قصيدة فى مدحها ، أولها :

نور قلب الموحـــدين نفيسة
تتجـلى بهـا الأمور النفيسة
وبها تكشف الكروب وينجو
قاصدوها من الأمور الخسيسة

ومن طريف ما يذكر أن نساء مصر منذ القرن الثـامن للهجرة (الرابع عشر للميـلاد) خصصن لزيارة السيدة نفيسة يوم الأربعاء ، ولزيارة الامام الحسين يوم الاثنين .

وفى عام ١١٧٠ هـ (١٧٥٦م) أقام والى مصر على باشا حكيم بوابة على الساحة الفضاء التى كانت أمام المسـجد ، ونقش عليهـا أبياتا من الشعر تضمنت ان ما ناله من عز ببركتها .

وفى عام ١١٧٣ هـ (١٧٥٩ م) جـدد المسجد والمشهد الأمير عبد الرحمن كتخدا ، مجدد مشاهد مصر ومزاراتها ، وكسا باب القبة بالقاشانى . وقد نقلت منه قطع هامة الى متحف الفن الاسلامى كما بقى من عمارته أربعة مصاريع مكسوة بالنحاس من أجمل المصاريع التى عملت فى عصره ، وما زالت موجودة بالمسجد .

وفى عام ١٣١٤ هـ (١٨٩٦ م) جـددته وزارة الأوقاف تجديدا راعت فيه أصـول العمارة الاسلامية ، وهذا يبـدو جليا فى طراز الواجهة الغـربية ، والمئذنة الرشيقة ، والقبة الحافلة بالنقوش ... بل وفى المسجد جميعه ، وأدخلت فى عمارتها عمودين من السماق الأحمر السـادر ، يحملان عقد الايوان أمام القبة .

وعلى القبر النفيسى مقصورة من النحاس عملت عام ١٢٦٦ هـ (١٨٤٩ م) .

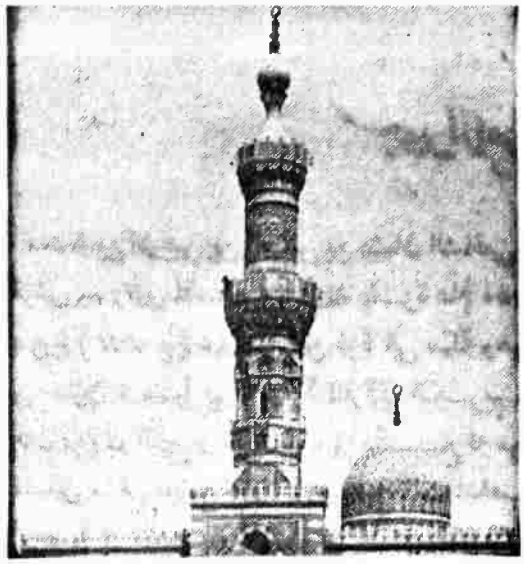

مئذنة وقبة المشهد النفيسى

والمسجد من الداخل مستطيل يشتمل على أربعة أروقة ذات عقود حجرية محكمة ، وعمد رخامية مثمنة ، يحيط به من أعلى شـبابيك ذات مروحة مخوصة ، بداخلها جص وزجاج ملون . ويقرأ على عتب الباب المؤدى الى القبة

هذا مقـام نفيسة العلم التى
برحابهـا تتنزل الرحمـات

والمحراب مكسو بالقاشانى الحديث ذى الألوان البديعة والرسوم الجميلة وكتب فيه : « كلما دخل عليها زكريا المحراب » .

ولا يسعنى الا الاشادة بجـمال عمارة هـذا المسجد ، ورشاقة منـارته وجمال قبته . وأتمنى مخلصا أن تعود وزارة الأوقاف الى سنتها الأولى ، فتشيد مساجدها على الطراز العـربى الصحيح ، كما شيدت هذا المسجد ومساجد السيدة سكينة والسيدة زينب وأولاد عنان والعباسى بالظاهر ، ووزارة الأوقاف ، ان فعلت ذلك ، تصون الفن الاسلامى ، وتبقى على الأيدى العاملة فيه .

حسن عبد الوهاب

مسجد الإمام الشافعي

محمد بن ادريس بن العباس بن عثمان الشافعي ، القرشي — رضى الله عنه — ولد بغزة عام ١٥٠ للهجرة (٧٦٧ م) ، وحمل من غزة الى مكة وهو ابن سنتين ، فنشأ بها ، وقرأ القرآن الكريم ، وكان آية فى الفهم والحفظ ، واجتمع له من الفضائل ما لم يجتمع لغيره . ومذهبه ثالث المذاهب الأربعة فى القدم ... أخذ عن الأمام مالك ، ثم استقل بمذهب خاص . ودخل الى العراق بعد مالك ، ولقى أصحاب الامام أبى حنيفة ، وأخذ عنهم ، ومزج طريقة أهل الحجاز بطريقة أهل العراق ، وخالف مالكا رحمه الله فى كثير من مذهبه .

ويذكر أصحاب الطبقات أن ظهور مذهبه كان أولا بمصر ، وكثر أصحابه بها . ثم ظهر بالعراق ، وغلب على بغداد وعلى كثير من بلاد خراسان والشام واليمن وغيرها . ولما قدم مصر انتشر مذهبه .

وكان رضى الله عنه كثير المناقب ، جم المفاخر ، عالما بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وكلام الصحابة — رضى الله عنهم — وآثارهم .

قال عنه الامام أحمد بن حنبل : « ما عرفت ناسخ الحديث من منسوخه حتى جالست الشافعى » . وقد أجمع علماء الحديث والفقه والأصول واللغة والنحو والقراءات على عفته وأمانته وعدله وزهده وعلو قدره . وقال الزعفرانى : « كان أصحاب الحديث رقودا حتى جاء الشافعي فأيقظهم ، فتيقظوا » .

وقال عبد الله بن أحمد بن حنبل : « قلت لأبى أى رجل كان الشافعى ، فانى سمعتك تكثر من الدعاء له ؟ فقال : يابنى كان الشافعى كالشمس للدنيا ، والعافية للبدن ... فهل من هذين من خلف أو عنهما من عوض ؟ » .

وقال يونس بن عبد الأعلى : « لو جمعت أمة لوسعهم عقل الشافعى » !

قدم مصر عام ١٩٩ للهجرة ، وقيل ٢٠١ هـ (٨١٦ م) ، ونزل بها ضيفا على أبى عبد الله بن الحكم الفقيه المالكى المصرى . وأخذ عنه مجموعة من العلماء ، ولم يزل بها الى أن توفى يوم الجمعة آخر يوم من رجب عام ٢٠٤ هـ (٨١٩ م) ، ودفن وسط قبور بنى عبد الحكم فى القرافة الصغرى ، وبنوا على قبره قبة .

وقد ظلت هذه المقبرة موضع تكريم الزائرين ، يقصدونها بالزيارة والتبرك بهذا الامام العظيم ، حتى عنى بها صلاح الدين ، كما عنى بنشر مذهبه ... ففى عام ٥٧٢ هـ (١١٧٦ م) جدد صلاح الدين قبر الشافعى رضى الله عنه ، وأقام عليه تابوتا من أجمل وأدق التوابيت الخشبية . وفى العام ذاته شرع فى بناء المدرسة الصلاحية بجوار قبر الشافعى ، برسم الفقهاء أصحاب الشافعى . وكان الفراغ منها فى عام ٥٧٥ هـ (١١٧٩ م) ، وعرفت بتاج المدارس ، فقد كانت معقلا لنشر مذهب الشافعى .

وقد تعاقب على التدريس فيها أئمة علماء المذهب حتى نهاية القرن التاسع للهجرة (الخامس عشر

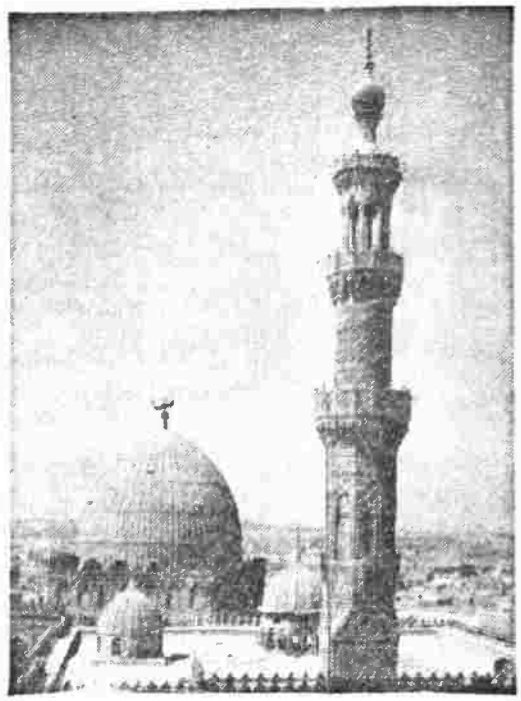

مسجد الامام الشافعى : قبته ومئذنته

للميلاد) . وكانت موضع رعاية ملوك مصر وأمرائها ... فقد جددها السلطان قايتباى ، كما جددها صاحب الخيرات الأمير عبد الرحمن كتخدا عام ١١٧٦ هـ (١٧٦٣ م) ، وأنشأ سبيلا على يسار باب القبة لايزال باقيا حتى الآن هو والكسوة الرخامية للباب الخارجى للقبة بمصراعيه المغشيين بالفضة . ونقش على أعتاب باب المسجد الذى كان جدده محل المدرسة الصلاحية مانصه :

« مسجد الشافعى بحر علوم
أشرقت شمسه بنور محمد »

وعلى عتب آخر :

« أكرم به من مسجد مصباحه
كنز الهدى المولى الهمام الشافعى »

وتخلف من المدرسة الصلاحية النص التاريخى المكتوب بالنسخ الأيوبى المتضمن انشاءها عام ٥٧٥ هـ ، وهو مودع بمتحف الفن الاسلامى .

وفى عام ١٣٠٩ هـ (١٨٩١ م) ، تم تجديد المسجد على ما هو عليه الآن ، وهو مسجد جميل واجهاته مبنية بالحجر ، وحليت أعتاب الشبابيك بكتابات كوفية ، وله منارة رشيقة عملت على مثال المنارات المملوكية .

تابوت الشافعى

تخلف من عمارة صلاح الدين الأولى لضريح الشافعى ، تابوت خشبى فاخر مستطيل غطاؤه هرمى حافل بالنقوش والكتابات الكوفية والنسخية . وأوجه هذا التابوت جميعها مكونة من ألطباق عربية كبيرة ، منقوشة بزخارف نباتية دقيقة ، من غصون مفرغة وأوراق مفرقة فى مجاميع متماثلة ، تتخللها أشكال نجمية ومسدسة .

وأهم الكتابات به النص المشتمل على تاريخ صناعة التابوت واسم الصانع وهو :

« عمل هذا الضريح المبارك للامام الفقيه أبى عبد الله محمد بن ادريس بن العباس بن عثمان بن

تفاصيل من تابوت الامام الشافعى

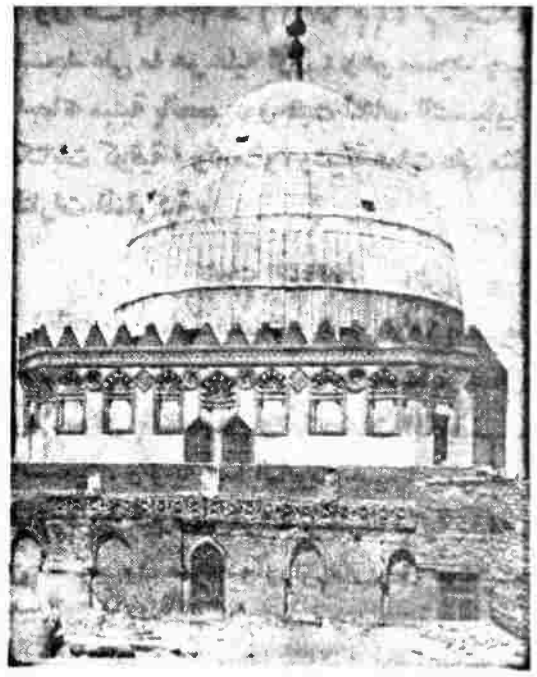

قبة الامام الشافعى

شافع بن السائب بن عبيد بن عبد يزيد بن الهاشم ابن المطلب بن عبد مناف رحمه الله — صنعة عبيد النجار المعروف بابن معالى — فى شهور سنة أربع وخمسين وخمس مائة ، رحمه الله ، ورحم من ترحم عليه ، ودعا له بالرحمة ، ولجميع من عمل معه من النجارين والنقاشين ولجميع المؤمنين » .

وحول هذه التابوت مقصورة خشبية منقوشة ، أقامتها لجنة الآثار العربية لحماية هذا التابوت عام ١٣٢٩ للهجرة .

وابن معالى هذا من أسرة نبغت فى صناعة النجارة ، قرأت اسم أحد أفرادها على منبر نور الدين الشهيد فى المسجد الأقصى ونصه « صنعة سليمان ابن معالى » .

وبهذه القبة تابوت آخر فوق قبر أم الملك الكامل لا يقل أهمية عن تابوت الشافعى ، حليت جوانبه الأربعة بحشوات دقت « بالأويمة » ذات الفروع النباتية تتوسطها التنا عشرة حشوة لجمية آية فى الدقة والجمال .

وفى عام ٨٨٥ هـ (١٤٨١ م) أمر السلطان قايتباى باصلاح القبة ، ولعله هو الذى كساها بالقاشانى .

القبة

فى عام ٦٠٨ هـ (١٢١١ م) أنشأ هذه القبة السلطان الملك الكامل محمد بن الملك العادل لما دفنت أمه هناك .

وهى قبة كبيرة من أجل وأجمل القباب بمصر . وكما تفنن المهندس فى زخرفتها ونقوشها ، كذلك بذل قصارى جهده فى تخفيف كتلة البناء الضخمة التى سيحملها مربع القبة ، وحليت من الخارج بزخارف وكتابات وشرفات مسننة منقوشة . وهذه القبة خشبية ومكسوة بالرصاص ، ولعلها أقدم قبة خشبية ، وكانت مكسوة بالقاشانى قبل كسوتها بالرصاص ، وكسيت جدرانها الداخلية بالرخام . وبجدارها الشرقى ثلاثة محاريب ، أطواقها خشبية منقوشة ، ثم محراب رابع أحدث منها لتصويب القبلة .

ويحيط بالمربع أعلى الوزرة افريز خشبى منقوش بزخارف بارزة ، كما يحيط بها افريز آخر خشبى أسفل رجل المقرنص ، وبقية جدران القبة منقوشة وبها كتابات بالخط الكوفى الأندلسى . وفى عام ١١٨٦ هـ (١٧٧٢ م) أجرى على بك الكبير بها عمارة كبيرة ، فقد كشف ما عليها من الرصاص القديم من أيام الملك الكامل ، وقد تشعث ، فجدد ما تحته من خشب القبة البالى بغيره من الخشب النقى الحديث ، ثم كساه بالرصاص ، وجدد نقوش القبة الداخلية بالذهب واللازورد .

ومركب على باب القبة مصراعان آخران من الخشب المجمع ، دقت حشواتها « بالأويمة » الجميلة

من نوع دقة تابوت أم الكامل ، لهما صنوان مثلهما نقلا الى مسجد الامام الليث . ومنقوش على هدين المصراعين فى أربع حشوات تاريخ الفراغ من القبة « وذلك لسبع خلون من جمادى الأولى سنة ثمان وستمائة » ثم مانصه :

الشافعى امام الناس كلهم
فى العلم والحلم والعلماء والباس
له الامامة فى الدنيا مسلمة
كما الخلافة فى أولاد عباس
أصحابه خير أصحاب ومذهبه
خير المذاهب عند الله والناس

العشارى فوق القبة

اشتهرت قبة الشافعى بالعشارى فوقها ، وهو مركب صغير مثبت فى هلال القبة تتدلى منه سلسلة حديدية ، يقال أنها أعدت ليتسلقها من يريد الوصول الى هذا المركب لوضع الماء والحبوب للطيور على ما يزعمون ... وهو ما يصعب تصديقه . وهذا المركب موضوع فى هلال القبة منذ انشائها ، لأن الامام البوصيرى صاحب البردة المتوفى عام ٦٩٥ هـ (١٢٩٥ م) عاينها ، وأنشد فيها :

بقبة قبر الشافعى سفينة
رست فى بناء محكم فوق جلمود
ومذ غاض طوفان العلوم بقبره
استوى الفلك من ذاك الضريح على الجودى

وتبعه شعراء القرنين الثامن والتاسع للهجرة (الرابع عشر والخامس عشر للميلاد) فى وصفها ، فقد أنشد فيها الأديب الكاتب ضياء الدين بن الفتح موسى بن ملهم :

مررت على قبة الشافعى
فعاين طرفى عليها العشارى
فقلت لصحبى لا تعجبوا
فان المراكب فوق البحار

ومن هذه الأشعار نستنتج أن هذا المركب رمز لعلمه الفياض ، وكناية عنه ، لأنه بحر علوم .

حسن عبد الوهاب

مسجد الإمام الليث

الامام الكبير الليث بن سعد بن عبد الرحمن الفهمى — نسبة الى فهم ، وهم بطن من قيس عيلان — الأصفهانى الأصل ، المصرى ، فقيه مصر، وأحد أعلامها . كنيته أبو الحارث ، وهو من تابعى التابعين .

ولد فى شعبان عام ٩٤ هـ (٧١٣ م) حسب روايته . وقيل انه من أهل قلقشندة احدى قرى الوجه البحرى ، وبها ولد .

كان من الشخصيات المبرزة فى مصر . وكان الامام الشافعى رضى الله عنه يتأسف على فوات لقائه .

وكان ، مع علمه وثرائه ، زاهدا جوادا . فقد كان دخله كل سنة نحو مائة ألف دينار . وما وجبت عليه زكاة قط ، لأن الحول لا ينقضى حتى كان ينفقها ، ويتصدق بها حتى لقب بأبى المكارم . وقيل ان الامام مالكا كتب اليه من المدينة « بلغنى أنك تأكل الرقاق، وتلبس الرقاق ، وتمشى فى الأسواق». فكتب اليه الليث بن سعد :

« قل من حرم زينة الله » الآية . وقد أجمع العلماء على امامته فى الفقه والحديث . وقال يحيى بن بكير : « ما رأيت أحدا أكمل من الليث بن سعد ... فقد كان فقيها عربى اللسان ، يحسن القرآن والفقه والنحو ، ويحفظ الحديث والشعر ، حسن المذاكرة بها » .

توفى الى رحمة الله يوم الخميس منتصف شهر شعبان عام ١٧٥ هـ (٧٩١ م) ، ودفن يوم الجمعة بالقرافة الصغرى . وقد أسف عليه أهل مصر ، وصاروا يعزى بعضهم بعضا .

ويروى أن الامام الشافعى لما وقف على قبره قال : « لله درك يا امام . لقد حزت أربع خصال لم يكملهن عالم : العلم ، والعمل ، والزهد ، والكرم » .

موقع المسجد وتاريخه

بعد أن انتقل الى رحمة الله تعالى الليث بن سعد ، دفن فى مقابر الصدفيين بالقرافة الصغرى . وكان قبره كالمصطبة مكتوب عليه : « الامام الفقيه الزاهد العالم الليث بن سعد بن عبد الرحمن أبو الحارث المصرى ، مفتى أهل مصر » .

وبعد عام ٦٤٠ هـ (١٣٤٢ م) أقام أبوزيد المصرى ، كبير التجار ، بناء على القبر . واستمر أهل الخير يتبارون فى زيادة هذا البناء .

وحوالى عام ٧٨٠ هـ (١٣٧٨ م) ، جدد قبته الحاج سيف الدين المقدم . أخبرنا المقريزى المؤرخ عن عمارة أجريت بالمسجد فى دولة الناصر فرج بن برقوق ، على يد الشيخ أبى الخير محمد بن الشيخ سليمان المادح ، فى شهر المحرم عام ٨١١ هـ (١٤٠٨ م) .

ويوجد بالمسجد باب صغير مبنى بالحجر أمام باب الضريح ، وجهه من الخارج محاط بالنقوش ، ومكتوب على جانبيه آيات من القرآن ، وبأعلاه : « هذا مقام السيد الامام الليث بن سعد . نفعنا الله به آمين » ، وفوق العتب هذا النص :

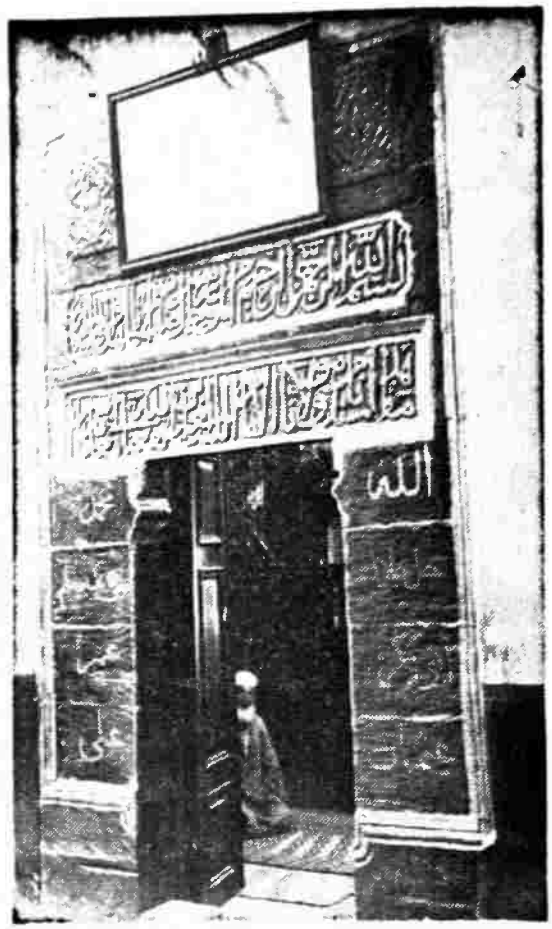

باب قبة الامام الليث

« جدد هذا المقام المبارك فى أيام سيدنا ومولانا السلطان الأعظم الملك الظاهر محمد — عز نصره — على يد الفقير الى الله تعالى أبو بكر بن يونس ، شيخ القرافتين خادم السيدين الامامين الشافعى والليث بن سعد ، لطف الله به ، فى شهر المحرم عام أحد عشر وثمانمائة » .

ومن المرجح أن هذا الباب قد تخلف من العمارة التى أجريت بهذا المسجد فى القرن السابع للهجرة ، يؤيد ذلك أسلوب الكتابة على جانبيه ونقوشه .

ولكن التناقض الموجود فى هذا النص يحملنى على القول بأنه حدث فى دولة الملك الظاهر أبو سعيد چقمق ، أن قام شخص ما — ولعله أبو بكر ابن يونس — بمحو اسم الناصر فرج ، وأثبت اسم سلطان وقته الظاهر محمد . كما محا اسم سلفه أبى الخير المادح ، ثم فاته تغيير التاريخ . فهم ذلك — مع أسباب فنية أخرى — عن هذه السرقة التاريخية .

وفى عام ٨٣٣ هـ (١٤٢٨ م) جددته السيدة مرجا بنت ابراهيم بن عبد الرحمن . وفى عام ٨٣٤ هـ (١٤٢٩ م) أنشأ الأمير يشبك بن مهدى — أحد أمراء الملك الأشرف قايتباى — منارة فى الطرف القبلى الغربى للمسجد الحالى ، منعزلة عنه الآن ، وقائمة على ساباط ، ولها قاعدة مربعة تعلوها كسرات هرمية ، وبكل من أضلاع المثمن بحارية منقوشة .

وفى عام ٩١١ هـ (١٥٠٥ م) جدد المسجد السلطان الغورى . ولم يبق من عمارته سوى الباب الثالث الكبير المؤدى الى المسجد . وهو مبنى بالحجر ، وبه دائرتان بهما اسم الغورى ، كما كتب على جانبيه تاريخ العمارة ، ونصه :

« أمر بانشاء هذا الباب الشريف ، من فضل الله تعالى ، سيدنا ومولانا ومالك رقابنا ، السلطان الملك الأشرف أبو النصر قانصوه الغورى — عز نصره — وكان الفراغ من انشاء هذا المكان فى سنة احدى عشرة وتسعمائة » .

وفى القرن العاشر أجرى به عمارة الشيخ بدر الدين محمد الغورى شيخ المقامين : الشافعى والليث . وفى شهر ذى القعدة عام ١١٣٨ هـ (١٧٢٦ م) جدد المسجد والقبة الأمير موسى جوربجى مرزة مستحفظان . ومن أثر هذه العمارة المقصورة الموجودة حتى الآن .

وفى عام ١١٩٤ هـ (١٧٨٠ م) أجريت عمارة

بالمسجد ، كما أجريت به عمارة أخرى فى عام ١٢٠١ هـ (١٧٨٦ م) بقيت منها لوحتان على الباب الخارجى تضمنتا أبياتا من الشعر فى مدح الامام الليث .

وكذلك أجرى به عمارة الأمير مصطفى أغا قردزلى عام ١٢٧٧ هـ (١٨٦٠ م) . وبقى من عمارته لوح رخامى مكتوب فيه :

« هذا مقام فيه ليث ضارى
أعنى وليا من عباد البارى »

وقد غيرت أعمال الاصلاح التى توالت على هذا المسجد فى بنائه وبدلت ، ولم تبق من عمارته القديمة الا أجزاء بسيطة ، سنتناولها بالشرح حينما نقف أمامها .

فالقادم الى المسجد يهبط بضع درجات ، فأول ما يصادفه باب حديث ثبت عليه لوحتان مؤرختان عام ١١٩٤ وعام ١٢٠١ يقرأ على السفلى منهما :

اذ رمت المكارم من كريم
فيمم من بنى للفضل بيتا
فذاك الليث من يحمى حماه
ويكرم جاره حيا وميتا

يلى هذا الباب باب آخر حديث أيضا ، يؤدى الى طرقة كبيرة بها عمودان رخاميان ، ثم باب ثالث بارز مبنى بالحجر أنشأه الغورى عام ٩١١ هـ (١٥٠٥ م) ، وركب عليه فى وقت ما مصراعان من الخشب بهما « أوبة » دقيقة ، وتاريخ عام ٦٠٨ ، واسم الامام الشافعى . وهما منقولان اليه من مسجد الامام الشافعى ، لأنهما طبق الأصل من صنوهما هناك .

وهذا الباب يؤدى الى المسجد ، وهو مستطيل على يمين الداخل باب الضريح ، وهو حجرة مربعة أقيم بوسطها قبة صغيرة محمولة على أربعة أعمدة رخامية ، قواعدها وتيجانها مزخرفة ، وبها كتابات أيوبية بالخط الكوفى ، نقرأ فيها : « بركة كاملة ... نعمة شاملة » ، لعلها باقية من عمارة عام ٦٤٠ هـ . ويعلو القبة سقف منقوش مكتوب .

وتحت القبر تركيبة رخامية كتب بدائرها آية الكرسى ، وحوله مقصورة خشبية مطعمة بالصدف عليها تاريخ ٢٥ ذى القعدة سنة ١١٣٨ . وهو تاريخ العمارة التى أجراها الأمير موسى جوربجى .

وأمام هذه القبة قبة صغيرة فيها قبر محمد ابن هارون الصدفى ، والامام المحدث شعيب ابن الامام الليث بن سعد ، ومكتوب على بابها :

« هذا مقام سيدنا ومولانا الشيخ شعيب ابن الامام الليث بن سعد ، نفعنا الله ببركاتهم » .

اما بقية المسجد ، بمحرابه ومنبره ، فحديثة ترجع الى عمارة المرحوم اسماعيل بك بن المرحوم راتب باشا الكبير عام ١٢٩٤ هـ (١٨٧٧ م) ، وهو الذى جدد الايوان بالقبة أيضا .

وقد كان ملوك مصر يقصدون قبر الامامين : الليث والشافعى للزيارة والتبرك ، خصوصا السلطان قايتباى والسلطان الغورى . وكثيرا ما كانت تقرأ ختمات القرآن ، وتوزع الصدقات تقربا الى الله تعالى .

حسن عبد الوهاب

مدرسة وقبة وبيمارستان المنصور قلاوون

المنصور قلاوون

هو السلطان الملك المنصور سيف الدين قلاوون الألفى [1] الصالحى ، أحد مماليك الأتراك البحرية . اشتراه الأمير علاء الدين آق سنقر الساقى العادلى بألف دينار ، ثم امتلكه الصالح نجم الدين عام ٦٤٧ هـ (١٢٤٩ م) ، فجعله من جملة البحرية ، وترقى فى الوظائف الى أن عين أتابك [2] العساكر .

وفى عام ٦٧٨ هـ (١٢٧٩ م) عين ملكا على مصر ، ولقب بالملك المنصور ، فكان عصره عصر رخاء ورفاهية : انتعشت فيه الفنون ، وازدهرت العمارة . وحارب التتار وهزمهم فى حمص ، كما هزم الصليبيين فى مواقع كثيرة .

انتقل الى رحمة الله تعالى ليلة السبت ٦ من ذى القعدة عام ٦٨٩ هـ (١٢٩٠ م) بعد أن حكم احدى عشرة سنة وثلاثة أشهر ، ودفن فى تربته التى أنشأها فى شارع بين القصرين .

أقيمت هذه المجموعة على رقعة من أرض القصر الفاطمى الصغير الغربى . وكان على جزء منها قاعة كبيرة لست الملك ، أخت الحاكم بأمر الله ، ثم آلت ملكيتها الى الأميرة مؤنسة القطبية الأيوبية .

ولقد غلب اسم البيمارستان على المجموعة ، لأنه السبب فى انشائها .. ذلك أن المنصور قلاوون — وقت أن كان أميرا عام ٦٧٥ هـ (١٢٧٦ م) — أصابه ، وهو بدمشق ، مرض فعولج بأدوية أخذت له من بيمارستان نور الدين الشهيد . وبعد ابلاله من مرضه زار البيمارستان فأعجب به ، ونذر ان أتاه الله ملك مصر أن يبنى بها بيمارستانا .

فلما ولى الملك شرع فى الوفاء بنذره ، ووقع اختياره على الدار القطبية وغيرها لانشاء بيمارستان ومدرسة وتربة ، وعهد الأمير الى علم الدين سنجر الشجاعى بالتنفيذ .

وكان البدء فى هذه العمارة فى شهر ربيع الآخر عام ٦٨٣ هـ (١٢٨٣ م) ، والفراغ منها فى جمادى الأولى عام ٦٨٤ هـ (١٢٨٤ م) ، أى أن القبة والمدرسة والبيمارستان استغرق بناؤها ١٤ شهرا . ولم يكن هذا تقدير المؤرخين فحسب ، بل نقش على عتب الباب الرئيسى ما نصه :

« أمر بانشاء هذه القبة الشريفة المعظمة ، والمدرسة المباركة ، والبيمارستان المبارك : مولانا السلطان الأعظم الملك المنصور ، سيف الدنيا والدين قلاوون الصالحى . وكان ابتداء عمارة ذلك فى ربيع الآخر سنة ثلاث وثمانين وستمائة ، والفراغ منه فى جمادى الأولى سنة أربع وثمانين وستمائة » .

كما نقش على بقية المجموعة تاريخا البدء فيها والفراغ منها . وهى مستندات قوية . ولكن عظم مساحة هذه المجموعة ، وكثرة زخارفها ودقتها تجعلنى أتشكك فى تصديق ذلك . وكل ما أستطيع الأخذ به أن هذه التواريخ كتبت عند الفراغ من

---

(١) الالفى ، لانه اشترى بالف دينار .

(٢) اتابك : اكبر الامراء المقدمين .

قبة المنصور قلاوون

كتلة البناء لا الزخرف . وقد قوى هـذا الشـك هندى وعززه ، أنه لما توفى عام ٦٨٩ هـ أودع جثمانه القلعة ، واستمر بها الى أن نقل الى قبة مسجده فى غرة شهر المحرم سنة ٦٩٠ هـ (١٢٩١ م) .

ان هذه المجموعة تمت بناء ورخاما وزخرفا فى أول عام ٦٩٠ هـ (١٢٩١ م) ، وتكون استغرقت سبع سنين وثمانية شهور ، وهى المدة المعقولة لبناء هذه المجموعة الشامخة الحافلة بمختلف الفنـون الدقيقة ، وفى خلالهـا أقيمت الدروس بالمدرسة وبالبيمارستان .

والواقف أمام هذه البناية الجليلة يرى قسمين : الأول — وهو القبلى — واجهة المدرسة ، والثانى — وهو البحرى — واجهة التربة تعـلوها قبـة كبيرة . وفيما بين هـذين القسـمين الباب الذى يسلك منه الى المدرسة والقبة والبيمارستان .

والناظر الى هذه المجموعة يرى منظرا من أروع المناظر الاسلامية بالقاهرة . فقد اشتملت الواجهة على عقود محمولة على عمد رخامية ، وبداخل تلك العقود شبابيك مفرغة بأشكال هندسية ، يحليهـا طراز مكتوب به اسـم المنشىء وألقـابه وتاريخ الانشـاء ، وتنتهى من أعلاها بشرفة مسننة حلى وجهها بزخارف . وهى واجهة ذات طراز غير مألوف فى عمارات مصر ، وهـذا بلا شك من ظواهر التأثيرات السورية عليها .

وعلى الطرف البحرى للواجهة المنارة المكونة من ثلاثة أدوار : الأسفل والأوسط مربعان فتحت بهما شبابيك تنوعت عقودها ، والثالث مستدير به نقوش دقيقة وكتابات فى الجص ، متوج بكرنيش مصرى الطراز . أما خوذتها فليست منها ، ولعلها كانت مخوصـة مثل منـارات الجاولى وبيبرس الجاشنكير ، وهو الطراز الشائع فى هذه الفترة .

وهذه المنارة أنشـأها ابنه الناصر محمـد بن قلاوون فى عام ٧٠٣ هـ (١٣٠٣ م) على اثر سقوطها فى زلزال عام ٧٠٢ هـ (١٣٠٢ م) . ونقش تاريخ التجديد فى أربعـة أسـطر تحيط بمربع الدورة الأولى أسفل المقرنص .

ويتوسط هذه الواجهة الباب الذى يسـلك منه الى المدرسة والقبة والبيمارستان ، وهو مكسو بالرخام الملون ، وعلى مصراعيه كسوة نحاسـية مفرغة برسوم هندسـية جميلة ، وسماعتاه على هيئة رأس حيوان .

وهذا الباب يؤدى الى دهليز له سقف خشبى جميل ، فتحت على جانبيه أبواب وشبابيك متقابلة للتربة والمدرسـة ، ينتهى الى باب يـؤدى الى البيمارستان حلى عقده بنقوش .

وللتربة بابان مفتوحان على هـذا الدهليز ، يدخل اليها مباشرة من أولهما ، ومن الثانى الى الايوان الموجود أمامها . وقد أدخل الأمير عبد الرحمن كتخدا فى عمارته التى أجراها عام ١١٧٤ هـ (١٧٩٦ م) تغييرات على هذا الباب . وعلى باب المدرسة المقابل له ، كما هدم قمة القبة الكبيرة .

وتصميم هذه القبة غريب بالنسبة لغيرها بمصر: فالقاعدة مربعة أقيم بوسطها أربعة عمد ضخمة من الجرانيت متقابلة مذهبة تيجانها ، وأربعة أكتاف من البناء ، فى نواصى كل منها أربعة عمد رخامية كسيت جوانبها بوزرة رخاميـة دقيقة مطعمـة بالصدف ، يجمعها من أعلى افريز رخامى دقيق ، فوقه طراز مذهب ، فطراز آخر به آيات من القرآن بحروف مذهبة على أرضية زرقاء . وبقية الأكتاف مكسوة بالخشب المنقوش .

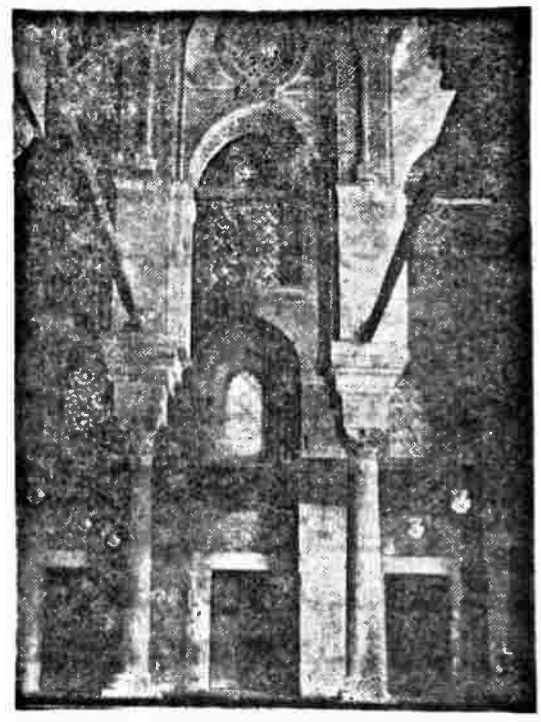

داخل مدرسة المنصور قلاوون

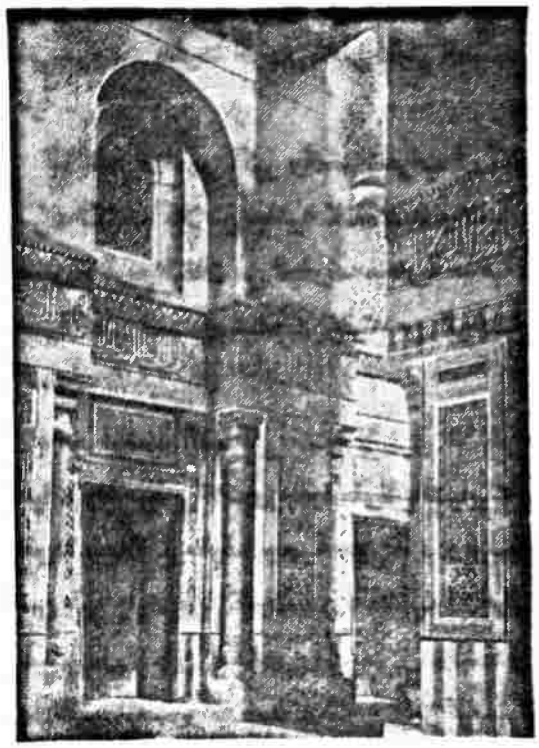

داخل مسجد المنصور قلاوون

وهذه الأكتاف تحمل مع العمد عقودا حلى باطنها بزخارف جصية ، كما حليت حافتها الخارجية بهذه النقوش ، وفتح بأضلاع المثمن شبابيك قنديلية من الجص والزجاج الملون احيطت بزخارف جصـية مورقة ، ثم بمقرنص خشبى ... فالقبة .

وقمة هذه القبة أعادت بناءها لجنة حفظ الآثار العربيـة على مثال قبة الأشرف خليل بن قلاوون المعاصرة لها . وقد غطى ما حول المثمن بأسـقف خشبية مذهبة بعضها على هيئة قصع نقش بها اسم المنصور قلاوون ، وبعضها من برطوم ومربوعات .

أما جدران القبة وفتحات الشـبابيك المحيطة بها ، فقد كسيت بوزرة رخامية مطعمة بالصدف من أدق أعمال الرخام بالآثار الاسـلامية بمصر : نقش بعضها على هيئة رسوم هندسية ، وبعضـها

كتب به بالخط الكوفى المربع « محمد » مكررة ثمانى مرات ، يعلوها افريز رخامى دقيق الصنع للغاية .

أما المحراب فهو أكبر وأفخم محراب فى آثار مصر ، تكتنف كلا من جانبيه ثلاثة عمد رخامية ، وبتجويفه أربع طبقات من تجاويف محارية مذهبة ، محمولة على عمد رشيقة ، وبقيته من الرخام والصدف الدقيق .

ومن أرضية القبة الى قمتها لا ترى الا لونا زاهيا ، وتذهيبا براقا ، وزجاجا ملونا بالشبابيك ، وعقودا محلاة بزخارف جصية مورقة . وبوسط المثمن قبر عليه بقايا تابوت من الخشب المنقوش والمكتوب بالخطين الكوفى والنسخى . وقد دفن بهذا القبر المنصور قلاوون وابنه الناصر محمد وحفيده عماد الدين اسماعيل بن محمد بن قلاوون .

المدرسة

وأمام باب القبة باب المدرسة المنصورية ، ويتوصل اليها أيضا من بابين مقابلين لبابى القبة ، وقد كانت تخربت ، فعنيت ادارة حفظ الآثار العربية باصلاح الايوان الشرقى ، وذلك فيما بين عامى ١٩١٦ — ١٩١٩ .

ونلمس فى هذا الايوان نظاما خاصا لم يسبق له مثيل . فقد أقيم على فتحته عمودان يحملان عقدين كبيرين بكل منهما فتحتان معقودتان مستطيلتان يعلو ذلك شباك مستدير ، يكتنفه كتفان بكل منهما ثلاثة شبابيك كل منهما فوق الآخر . ولا شك أن هذه العقود والشبابيك كانت محلاة بزخارف جصية ، كما تنبىء بقاياها .

وينقسم الايوان الى ثلاثة أروقة ، أوسطها أكبرها ، وسقفه محمول على عمد رخامية ، تعلوها عقود حليت هى والشبابيك المستديرة التى بأعلاها بزخارف جصية . كما توجد كوابيل متقابلة بوجه أرجل العقود أعلى الأعمدة على استواء مبدأ الطارات المنتهية بها الواجهتان القبلية والبحرية من الايوان . والقسم الأوسط فى الايوان ، وان غطى فى عمارته الأخيرة بسقف مستو ، الا أن العقد الدائر بالشبابيك الثلاثة فوق المحراب يدل على أن هذا السقف كان مغطى بقبو معقود .

والمحراب مثل محراب القبة ، الا أن طاقيته وتواشيحه من الفسيفساء المذهبة ، يجاوره منبر بسيط ليس بالمنبر الأصلى ، بل عمله الأمير آزبك بن طوخ عام ٨٩٩ هـ (١٤٩٤ م) أثناء عمارته للمدرسة ، وعمل قبة أعلى الفسقية التى كانت بالصحن .

وبعد الفراغ من المدرسة والقبة عين بهما المدرسين لمختلف العلوم ، كما خصص مدرسين لتعليم الأطفال بكتاب السبيل ... فهى — والحالة هذه — جامعة للطب ولمختلف العلوم .

وقد ألحق بواجهة هذه المدرسة سبيل أنشأه السلطان الناصر محمد بن قلاوون على روح والده عام ٧٢٦ هـ (١٣٢٦ م) ، ووضعه هذا ، وان جاء مشوها للواجهة ، الا أنه تخلص به من حوض كان معدا لشرب الدواب .

البيمارستان (المستشفى)

كان الدافع الأول لانشاء هذه المجموعة هو البيمارستان ، ولذلك كان البدء به فى أول ربيع الآخر عام ٦٨٣ هـ (١٢٨٤ م) . وقد أعد لمعالجة جميع الأمراض ، ولتدريس الطب . وظل

البيمارستان يؤدى وظيفته الى عام ١٨٥٦ م حيث دب اليه الانحلال ، فلم يبق به سوى المجانين الذين نقلوا منه الى ورشة الجوخ فى بولاق ، ثم نقلوا الى العباسية عام ١٨٨٠ . ثم تحول البيمارستان لمعالجة سائر الأمراض ، ثم اقتصر على معالجة أمراض العيون .

وفى سنة ١٩١٥ أقامت وزارة الأوقاف بقسم من البيمارستان مستشفى لمعالجة أمراض العيون ، وهو الباقى الى الآن .

ولم يبق من البيمارستان القديم سوى قسم من الايوان الشرقى به فسقية رخامية ، كانت تنساب اليها المياه على سلسبيل صغير ، تندفع منه الى مجراة من الرخام الدقيق . كما يوجد به شبابيك أحيطت أفاريزها بكتابات كوفية . وكذلك توجد بقايا من الايوان الغربى ، وبها سلسبيل حليت حافته بحيوانات تنحدر عليه المياه الى فسقية ، فمجراة من الرخام تتلاقى مع المجراة المقابلة لها . ومثل هذا موجود فى قصر الحمراء بالأندلس .

ومما يؤثر عن المنصور قلاوون أنه لما زار البيمارستان عقب فراغه تناول قدحا من شراب البيمارستان وشربه وقال : « قد وقفت هذا على مثلى فمن دونى ، وجعلته وقفا على الملك والمملوك ، والذكور والاناث ، والكبير والصغير ، والحر والعبد ، والجندى والأمير » .

حسن عبد الوهاب

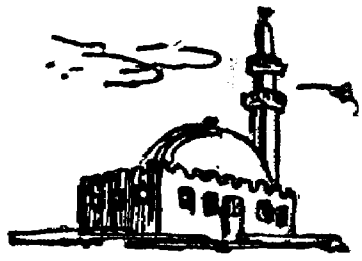

خانقاه بيبرس الجاشنكير

أنشئت هذه الخانقاه على رقعة من أرض دار الوزارة الكبرى الفاطمية التى أنشأها الوزير الأفضل شاهنشاه بن بدر الجمالى ، والتى كانت تمتد — على وجه التقريب — من وكالة ذى الفقار حتى حارة الروم الجوانية .

منشىء الخانقاه

السلطان الملك المظفر ركن الدين بيبرس ابن عبد الله المنصورى الجاشنكير . اشتراه الملك المنصور قلاوون صغيرا وألحقه بخدمته ، وظل يتنقل فى الوظائف الى أن عينه جاشنكيرا[1] .

ولما قتل الأشرف خليل بن منصور قلاوون كان ممن ساعد فى القبض على المعتدين عليه ، وقتل الأمير بيدار وغيره .

ولما ولى الناصر محمد بن قلاوون سلطنة مصر للمرة الثانية ، تلألأ نجم بيبرس ، ورقى الى وظيفة استادار[2] . وحج عام ٧٠١ هـ (١٣٠١ م) ، فقضى على كثير من الحرافات الشائعة هناك

وفى عام ٧٠٨ هـ (١٣٠٨ م) خرج الناصر محمد الى الكرك ، وكتب الى أمراء مصر يتنازله عن الملك ... فاستقر رأيهم على تولية بيبرس الجاشنكير ، ولقب بالملك المظفر ، وذلك فى يوم السبت ٢٣ من شوال عام ٧٠٨ هـ (١٣٠٨ م)

وكان موصوفا بالعقل والميل الى الخير ، ومحاربة الموبقات ... ففى عهده أبطلت الخمارات ، ومواطن الريب ، وأريقت الخمور وفى أيامه عمل جسرا من قليوب الى مدينة دمياط ، وهو مسيرة يومين ، وجدد جامع الحاكم .

ولمحبة الشعب للناصر محمد بن قلاوون لم يتعاونوا مع بيبرس ، وكاتبوا الناصر ، وتغلب عليه الأمراء والمماليك مما اضطره لترك المملكة فى رمضان عام ٧٠٩ هـ (١٣٠٩ م) ، حينما علم بقدوم الناصر محمد من الشام .

وفى أول شوال عام ٧٠٩ هـ (١٣٠٩ م) قدم الملك الناصر محمد الى قلعة الجبل ، واستولى على ملك مصر للمرة الثالثة . ثم قبض على بيبرس الجاشنكير فى شرقى غزة ، وأحضر الى القلعة فى ١٣ من ذى القعده عام ٧٠٩ هـ (١٣٠٩ م) ، وقتل ليلة الجمعه ١٥ من ذى القعدة عام ٧٠٩ هـ (١٣٠٩ م) ، ثم دفن بتربة الفارس أقطاى ، ثم نقل الى تربته المجاورة لزاوية الشيخ أبى السعود ابن أبى العشائر بالقرافة ، ثم نقل مرة ثالثة الى قبة هذه الخانقاه .

بدأ فى انشائها الأمير بيبرس الجاشنكير فى عام ٧٠٦ هـ (١٣٠٦ م) قبل ان يلى السلطنة ، وأنشأ بجانبها رباطا كبيرا يتوصل اليه من داخلها ، وألحق بها قبة كبيرة يقول المقريزى انه ركب على أحد شبابيكها الشباك الكبير الذى كان بدار الخلافة فى بغداد ويجلس الخلفاء فيه كذلك أخذ من دار الوزارة أنقاضا ، كما اشترى كثيرا من الدور المشهورة ، وأخذ أنقاضها وأدخلها فى عمارة

---

(١) جاشنكير : الأمين على ذوق الأطعمة والمشروبات قبل تقديمها للسلطان .

(٢) استادار : وظيفته الاشراف على الشئون الخاصة بالملك .

منارة وقبة مسجد بيبرس الجاشنكير

الخانقاه . وأدخل فى عمارتها كثيرا من الرخام الذى كان مودعا فى أحد سراديب الفاطميين .

واستمرت الأعمال جارية بها الى أن كملت فى شهر رمضان عام ٧٠٩ هـ (١٣٠٩ م) ، وقرر بها أربعمائة صوفى ، وبالرباط مائة من الجند ، وبعض الأفراد الذين أخنى عليهم الدهر . وأوقف عدة ضياع بمصر والشام لعمارتها والصرف عليها .

وعقب الفراغ منها وافتتاحها قبض عليه الناصر محمد بن قلاوون وقتله ، وأمر باغلاقها ، وأخذ ما كان موقوفا عليها . وظلت عشرين عاما معطلة الى أن صدر الأمر بفتحها ثانية فى أول عام ٧٢٦ هـ (١٣٢٦ م) ، فأعاد اليها ما كان موقوفا عليها .

وقد بقيت الخانقاه ، وهدم الرباط وحل محله ربع السلحدار .

وصف الخانقاه

قبل الدخول فى وصفها نلقى نظرة على الواجهة الغربية ، وهى العمومية ، فنرى واجهة كبيرة مبنية بالحجر ، ينتهى طرفها القبلى بباب كبير كسى بالرخام ، وكتب عليه آيات من القرآن بالرخام الأبيض الملبس فى الرخام الأسود ، وبه مقرنصات .

ويكتنف الباب من جانبيه صفف مجوفة مكسوة بالرخام ، مغلق بها عمد وتيجان رشيقة . ويغطى هذا المدخل عقد مجيدى كبير بداخله مقرنص . وفى هذا الباب نرى تطورا جديدا وابتكارات فى المداخل العامة نهج على منوالها بعد ذلك .

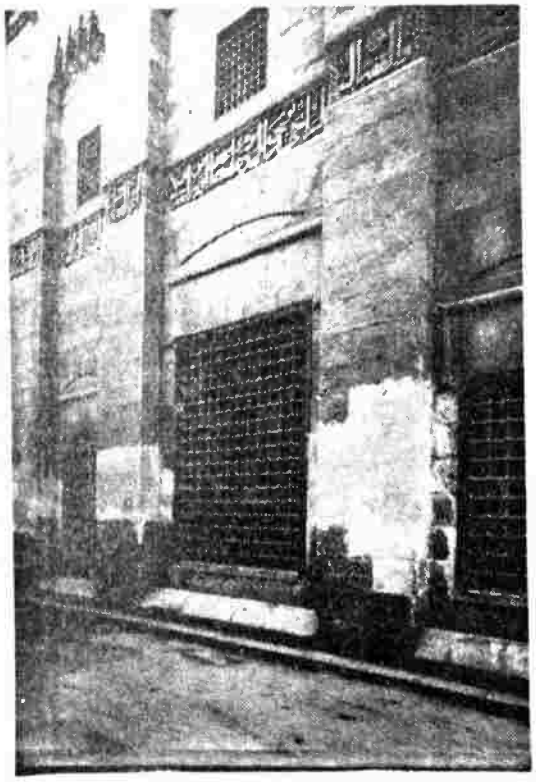

خانقاه بيبرس الجاشنكير

وقد غطيت الشبابيك بالواجهة بمقرنصات متنوعة ، وبها طراز مكتوب عليه ما نصه :

« بسم الله الرحمن الرحيم . فى بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه » الى قوله تعالى « بغير حساب » . أمر بانشاء هذه الخانقاه السعيدة ، وقفا مؤبدا على جماعة الصوفية ، من فيض فضل الله تعالى وجزيل احسانه ، راجيا بذلك عفوه وغفرانه : العبد الفقير الى الله تعالى (.....) وكن الدين بيبرس المنصورى عبيد الله ، والفقير اليه الراجى رحمته يوم القدوم عليه ... ضاعف الله ثوابه ، وزكى أعماله ، ويسر له أسباب ما نشط اليه من المعروف آماله بمنه وكرمه وأفضاله ، وصلى الله على سيدنا محمد » . ...

ويلاحظ فى كتابة هذا الطراز أن القسم الواقع بين كلمتى تعالى وركن الدين وطوله نحو متر محيت كتابته . وأرجح أن الكلمات التى محيت هى « السلطان الملك المظفر » .

والمعروف أن الآمر بمحوها هو الملك الناصر محمد . ذلك أنه لم يعترف له بصفة الملك فمحاها من البناء . ولكنه ، وفاء منه ، ترك اسمه على الخانقاه لتظل منسوبة الى منشئها .

ويتوسط هذه الواجهة شباك كبير من النحاس . وهنا نتساءل : هل هذا الشباك هو الذى حدثنا عنه المقريزى بأنه نقل من دار الخلافة فى بغداد ، ثم دار الوزارة بمصر الى هذه الخانقاه ؟ الجواب عن ذلك أن ذلك الشباك كان من الحديد ، وهذا من النحاس ، وتبدو عليه الجدة كما تبدو على ما يجاوره من الشبابيك ، كما انه مطابق لها فى الصناعة ... فأين ذهب شباك دار الخلافة ؟ العلم عند الله . وكل ما وصل الينا أن الشيخ محمد الأبراشى ناظر الخانقاه ، أزال ثلاثة شبابيك كانت بواجهتها ، وحولها الى دكاكين .

وتعلو المدخل منارة قاعدتها مربعة ضخمة حليت بالمقرنصات ، وبدن دورتها الثانية مستدير ، وكسيت قمتها المضلعة بالقاشانى الأزرق . وهى أول تكسية عثرت عليها برءوس المنارات ، ولم تكن معروفة من قبل ، تليها منارتا مسجد الناصر محمد بن قلاوون بالقلعة .

وعلى الباب مصراعان من النحاس المفرغ الدقيق بهما تكفيت بسيط بالفضة ، ومكتوب عليهما اسم المنشىء . وقد حلى ظهراهما بزخارف جميلة مدقوقة « أويمة » .

نجتاز الباب العظيم الى دركاة مربعة على يسارها باب القبة ، وهى من القباب الكبيرة ، فرشت أرضيتها بالرخام الأسود والأبيض على هيئة محاريب [1] وبوسطها قبر المنشىء . وبها وزرات من الرخام الدقيق ارتفاعها ثلاثة أمتار وستون سنتيمترا ، كتب بها بالخط الكوفى المربع « محمد » مكررة ، وبها تقاسيم هندسية ملونة ، ومجموعة من الشبابيك الجصية الدقيقة زجاجها ملون . ولها محراب شاهق مكسو بالرخام الدقيق ، خلفه ممر مسحور للتهوية ، يتوصل اليه من مدخلين على يمين ويسار المحراب على هيئة دواليب .

وقد أقيم على وجه العقد الغربى لقاعدة القبة سياج من الخشب الخرط ، مكتوب عليه : « بسم الله الرحمن الرحيم . ان المتقين فى مقام أمين . فى جنات وعيون » الى قوله تعالى « فارتقب انهم مرتقبون . وافق الفراغ من هذه القبة والخانقاه فى شهر رمضان المعظم سنة تسع وسبعمائة » .

يجاور باب القبة باب آخر يوصل الى طرقة

(1) الأرضيات المحاريب والأبسطة المحاريب شاعت فى هذا العصر ، فقد كانت ارضيات المدرسة الطيبرسية وابسطتها على هيئة محاريب . وكان الفاطميون اسبق ، فقد استعملوا الحصر المحاريب المبطنة . والأرضية الرخامية حول الكعبة على هيئة محاريب .

مستطيلة ، فرشت بالرخام الملون ، توصل الى صحن الخانقاه . وتصميمها ايوانان كبيران معقودان شرقى وغربى . أما الجانبان البحرى والقبلى فقد أنشىء بهما خلاو للصوفية بعضها فوق بعض حليت أعتابها بمقرنصات وعقود متنوعة ، وانفردت بنوع غريب من العقود . ويتوسط كلا منها ايوان صغير معقود غطيت فتحته بباب معتب يعلوه شباك مغطى بمقرنصات لطيفة كى ينسجم مع باقى الواجهة .

والايوان الشرقى أكبرها ، وقد قسم أقساما ثلاثة ، يتوسطه محراب حجرى تسوده البساطة ، عار من الزخرف . ولا غرابة فى ذلك فهى خانقاه أعدت للمتصوفين .

وعلى ذكر الخانقاه أذكر أن الخانقاه ، أو الخانكاه ، كلمة فارسية معناها دار الصوفية . والرباط هو المكان المخصص للأعمال الصالحة ، والعبادة واقامة المنقطعين من الأهل . ويجوز للفقراء الاقامة فى الأربطة وتناول مرتباتها ، ولا يجوز للمتصوف الاقامة فى المدارس وأخذ جرايتها ... لأن المعنى الذى يطلق على المتصوف موجود فى الفقيه ، ولا عكس .

حسن عبد الوهاب

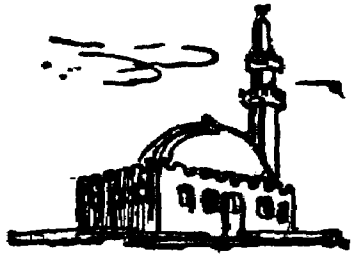

مدرسة السلطان حسين

السلطان حسن

السلطان الملك الناصر حسن بن محمد بن قلاوون . ولد فى عام ٧٥٣ هـ (١٣٣٤ م) ، وسمى أولا قمارى . ولما ولى ملك مصر اختار اسم حسن فعرف به ... ولى الملك فى ١٤ من رمضان عام ٧٤٨ هـ (١٣٤٧ م) وعمره ثلاث عشرة سنة . ولصغره ناب عنه فى ادارة شئون الدولة الأمير بيغاروس نائب السلطنة ، وأنعم على الأمير منجك اليوسفى ، وعين فى الوزارة والاستدارية .

وفى سنة ٧٥١ هـ (١٣٥٠ م) أثبت القضاة أنه بلغ سن الرشد . وقبض على الأميرين منجك وبيغاروس ، مما دعا الأمراء الى التآمر عليه واقصائه عن الملك فى ١٧ من جمادى الآخرة سنة ٧٥٢ هـ (١٣٥١م) ، واعتقاله فى الدور السلطانية ، وتعيين أخيه الصالح صالح .

وفى شهر شوال عام ١٧٥٥ هـ (١٣٥٤ م) ، أعيد الناصر حسن الى ملك مصر ، فاستبد بالمملكة . وصفت له الدنيا ، ولم يشاركه أحد فى الحكم ... فبالغ فى أسباب الطمع الى عام ٧٦٢ هـ (١٣٦٤ م) ، وتزايد سلطانه ، وكثرت مماليكه . وأهدى اليه بعض ملوك اليمن خيمة غريبة الهيئة تتكون من قاعة وحمام محلاة بنقوش غريبة .

ومن أجل تغير الجو فى مصر وقتئذ ، خرج مع حاشيته الى ضواحى الجيزة ، فأقام ثلاثة أشهر . وفى هذه الفترة اشتدت الفتنة بينه وبين الأمير يلبغا الخاصكى ، وحاول السلطان حسن الفتك به فلم يوفق ، فهاجمه يلبغا فى القلعة . وهرب السلطان حسن ، ثم قبض عليه وعلى من معه جهة المطرية ، وذلك فى عام ٧٦٢ هـ (١٣٦١ م) . ويقول أغلب المؤرخين : كان هذا آخر العهد به . وقيل انه خنق وألقى به فى البحر ، ولم يعرف له قبر .

ويقول المقريزى : انه دفن فى مصطبة كان يركب عليها من داره بقلعة الكبش . كما قيل أنه دفن بكيمان مصر ، وأخفى قبره .

كان رحمه الله ملكا حازما شجاعا منزها عن كثير من نقائص المماليك . وكان ينفر منهم ، ويقرب منه أولاد الناس ، ويعينهم فى حاشيته .

مدرسة السلطان حسن

ان حق لمصر الفرعونية أن تفخر بأهرامها ، فان لمصر الاسلامية أن تتيه عجبا بمدرسة السلطان حسن التى لا يعادلها بناء آخر فى الشرق بأجمعه ، فقد جمعت شتى الفنون فيها .

ويعرف موقعها قديما بسوق الخيل ، وكان به قصران من أجمل القصور أمر بانشائهما الملك الناصر محمد بن قلاوون عام ٧٣٨ هـ (١٣٣٧ م) لسكنى الأميرين يلبغا اليحياوى والطنبغا الماردانى .

وقد بقى هذان القصران حتى هدمهما الملك الناصر حسن ليبنى محلهما هذه المدرسة . ففى عام ٧٥٧ هـ (١٣٥٦ م) بدأ هذا السلطان فى بنائها ، وعنى بها عناية شديدة . واستمرت

العمـارة جارية فيها وكان يصرف عليها بسخاء عظيم .

ونسب الطواشى مقبل الشامى الى السلطان حسن أنه قال : « لولا أن يقـال ان ملك مصر عجز عن اتمام بناء بناه ، لتركت بناء هذا الجامع من كثرة ما صرفت عليه » . وليس بمستبعد أن يقول هذا ... فالبنـاء شامخ يدل على العظمـة والجبروت وعلى المقدرة الفنية ، كما ينم عن كثرة النفقات . وقد ابتكر مهندسه فى هذا البناء الضخم زخارف دقيقـة وكتابات ونقوشا ونحاسا مكفتا آية فى الحسن والبهاء .

ويصفه المقريزى المؤرخ بقوله : « فلا يعرف فى بلاد الاسلام معبد من معابد المسلمين يحاكى هذا الجامع وقبته التى لم يبن بديار مصر والشام والعراق والمغرب واليمن مثلها » .

وقد أجمع على هذا الرأى جميـع المؤرخين والرحالة الذين زاروها . فيقول عنها ابن تغرى بردى : « ان هذه المدرسة ومئذنتها وقبتهـا من عجـائب الدنيـا ، وهى أحسن بنـاء مبنى فى الاسلام » .

وقد وضع تصميمها على طريقة التعامد التى تشـتمل على أربعـة ايوانات ، يتوسطها صحن مكشوف .

وكان المقرر فى مشروع بنائها أربع منارات فرغ من بناء ثلاث منها : اثنتان تكتنفان القبة بالواجهة الشرقية ، والثالثة كانت على الكتف الأيمن للباب العمومى ، وقد سـقطت يوم السبت ٦ من ربيع الآخر عـام ٧٦٢ هـ — (١٣٦٠ م) ، فـأبطل السلطان حسن بناء المنارة الرابعة التى كان مقررا لهـا الكتف الأيسر للباب المذكـور ، واكتفى بالمنارتين . وقيل ان المنارة الرابعة كانت موجودة .

وفى شهر جمادى الأولى عام ٧٦٢ هـ (١٣٦٠ م)

مدرسة السلطان حسن

قتل السلطان حسن ، وكانت المدرسة كاملة ، عدا أعمـال تكميلية أتمها من بعـده الطواشى بشير الجمدار .

لقد قام الطواشى بشير بأعمال تكميلية كثيرة لهذه المدرسة دون أن يتمها أيضا ، منها أعمال الرخام بالوزرات والأرضيات . ولذلك يقرأ على ركن منها ما نصه :

« بسم الله الرحمن الرحيم . أمر بانشاء هذه المدرسة المباركة مولانا السلطان الشهيد المرحوم الملك الناصر حسن بن مولانا السلطان الشـهيد المرحوم الملك الناصر محمد بن قلاوون ، وذلك فى شهور سنة أربع وستين وسـبعمائة » ... مع ذكر المذهب المخصصة له « مدرسـة للشـافعية أو الحنفية » .

كما أتم قبـة الفسقية بالصحن عام ٧٦٤ هـ . وهى قبة خشبية أقيمت على ثمانية أعمدة رخامية ،

وكتب بدائرها آية الكرسى ، وتاريخ الفراغ منها « سنة أربع وستين وسبعمائة » .

وعمل الباب النحاسى الكبير الموجود الآن فى جامع المؤيد . كما أتم بناء القبة الكبيرة ، وكتب بطرازها آية الكرسى ، ثم « وكان الفراغ من هذه القبة المباركة فى شهور سنة أربع وستين وسبعمائة » .

هذه هى أعمال بشير الجمدار . أما الزخارف وبقية أعمال الرخام بالواجهات ، فقد تركها دون أن يتمها ، كما تركها السلطان حسن .

غير أن وفاة السلطان حسن قبل اجراء بقية الأعمال التكميلية ليس معناه أن المدرسة لم تفتح فى حياته ... فقد احتفل السلطان حسن بافتتاحها ، وصلى بها الجمعة ، وأنعم على البنائين والمهندسين ، وأقيمت بها الدروس فى حياته أيضا .

كما حرر لها وقفية مؤرخة شهر رجب عام ٧٦٠ هـ (١٣٥٨ م) رصد عليها وعلى غيرها عقارات وأراضى تغل للصرف عليها ، وعين بها الموظفين والقراء ، وفرشها وعلق بها المشكاوات الجميلة ، وعين لها اماما .

وصف المدرسة

ان المطلع على رسم هذه المدرسة يرى فى وضعها ازورارا قليلا ، بل يصعب عليه تحديد شكلها . وغاية ما ينتهى اليه الوصف أنه شكل كثير الأضلاع . وتبلغ مساحتها ٧٩٠٦ أمتار ، وامتداد أكبر أطوالها ١٥٠ مترا وأطول عروضها ٦٨ مترا .

وللمدرسة أربع واجهات : واجهة شرقية ، وبها القبة ومنارتان : أقدمهما المنارة القبلية ، ويبلغ ارتفاعها عن صحن المسجد ٨١٫٦٠ مترا . أما المنارة البحرية فقد سقطت عام ١٠٧٠ للهجرة (١٦٥٩ م) ، وجددت فى عمارة ابراهيم باشا عام ١٠٨٢ هـ (١٦٧١ م) .

وقد حليت أعتاب شبابيك القبة بمقرنصات وعقود غريبة ، كما طعمت بأشرطة من القاشانى . وحليت نواصيها بعمد من الحجر ظريفة ، بها كتابات كوفية . ويتجلى منظرها من ميدان صلاح الدين ومن أعلى القلعة .

وواجهة قبلية ، وبها شبابيك مدرستى الحنابلة والحنفية . وغربية ، وتحتها دورة المياه ، وأمامها الساقية التى كانت توصل المياه الى المدارس والى المسجد بوساطة مجراة على كوابيل بالواجهة القبلية . وبحرية — وهى الواجهة العمومية — يبلغ ارتفاعها ٣٧٫٧٠ مترا ، وبطرفها الغربى الباب العمومى . وهذا الباب طرفة أثرية ، فقد حلى جانباه بزخارف متنوعة ممتدة الى أعلى ، وأكثرها لم يتم الى الآن ، كما أن أجزاء كثيرة منه كان مزمعا تلبيسها بالرخام ولم يتم . ويكتنف هذا المدخل خيتان لبستا بالرخام الأخضر فى أشكال هندسية ، وكتب أعلاهما بالخط الكوفى المزهر قوله تعالى : « انا فتحنا لك فتحا مبينا ليغفر لك الله » . وتعلوها تربيعتان كتب باحداهما بالكوفى المربع : « لا اله الا الله محمد رسول الله » ، وبالأخرى : « أبو بكر ، عمر ، عثمان ، على » .

وهذا الباب يؤدى الى مدخل مربع ، مكون من ثلاثة ايوانات مغطاة بمقرنصات تتوسطها قبة . ويصدر هذا المدخل صفة حلى صدرها بالرخام الملون الملبس فى الحجر الأبيض ، وشباك من الجص ودوائر ومستطيلات زخرفية دقت فى الحجر لا تقل دقة عن الأويمة فى الخشب أو الجص . ومن هذا المدخل يتوصل الى سلم ذى خمس درجات ، يؤدى الى دهليز ينثنى دفعة

واحـدة الى اليسـار ، وينتهى الى صحن كبير مفروش بالرخام الملون مساحته ٣٤٫٦٠ مترا فى ٣٢ مترا ، تتوسطه فسقية تعلوها قبة محمولة على ثمانية أعمدة ، مكتوب بدائرها آية الكرسى وتاريخ الفراغ منهـا ، وبها تاريخ عمارة أجريت بها عام ١٠٨٨ هـ (١٦٧٧ م) .

وحول الصحن أربعة ايوانات : أكبرها ايوان القبلة ، وهو ايوان كبير لا نظير له فى سـعته وارتفاعه اذ تبلغ فتحته ١٩٫٢٠ مترا ، يحيط به افريز نادر من الجص مكتوب به بالخط الكوفى المزهر ما نصه : « بسم الله الرحمن الرحيم . انا فتحنا لك فتحا مبينا » الى قوله تعالى : « فوزا عظيمـا » . وتتحلل الكتابة زخارف دقيقـة ، وتتوسطه دكة رخامية يلفت النظر فيها تلبيس عمد الرخام الملون فى نواصيها ، وبصـدره المحراب المغشى بالرخام الملون ، والمحلى بزخارف مورقة تتخللها عناقيـد العنب . ويجاور المحـراب منبر رخامى له باب نحاسى مخـرم ، ويكتنف المحراب بابان يوصلان الى القبة خلف المحراب : أحدهما قبلى مغشى بالنحاس المكفت بالذهب وعليه اسم السلطان حسن ، والآخر فقدت كسوته .

والقبة مربعة ، طول كل ضلع من أضلاعها ٢١ مترا ، وارتفـاعها ٤٨ مترا . وبها محراب رخامى مزخرف زخرفة دقيقة ، ووزرة مرتفعة نحو ثمانية أمتار ، يعلوها افريز فـوقه مقرنصات خشـبية محلاة بزخارف ملونة ومذهبة وغطاء القبة الحالى ليس هو غطاءها القديم ، فقد كانت القبة خشبية مكسوة بالرصاص .

وقد زار السائح « بترو دى لا ڤاليه » مصر ، وكتب رحلته عام ١٠٢٥ هـ (١٦١٦ م) . ومن وصفه للقبـة يعتبر طرازها كطراز القباب السمرقندية . كذلك ذكر « برس دافين » أن القبة سقطت عام

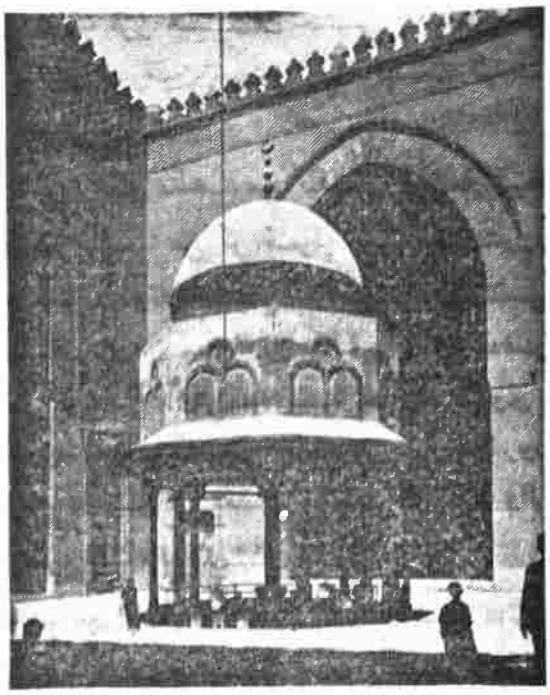

منظر بداخل مدرسة السلطان حسن

١٠٧١ للهجـرية (١٦٦٠ م) ، وكانت أعظـم ارتفاعا ، وباطنهـا حافلا بالنقوش ، وجـددها ابراهيم باشا عام ١٠٨٢ هـ (١٦٧١ م) . وهى محاطة من الخارج بدعامات أسطوانية .

وتتوسط القبة تركيبة من الرخام ، كتب عليها أنها أنشئت سنة ٧٨٦ هـ برسم تربة السـلطان السـعيد الشهيد الملك الناصر حسن وذريته . ولكن السلطان حسن لم يدفن فيها) كما ذكرنا فى ترجمته ، بل دفن فيها أولاده . وقد أودع هذه القبة كرسى للمصحف مكون من حشوات من وأبنوس وخشب دقت بالأويمة الدقيقة .

ويحيط بالصحن أربع مدارس للمذاهب الأربعة تعد فى تصميمها مساجد صغـيرة محدقة بصحن الجامع الكبير : أكبرها المدرسة الحنفية اذ تبلغ مساحتها ٨٩٨ مترا . ويتكون كل منها من ايوان وصحن تتوسطه فسقية ، ثم طبقات بعضها فوق بعض تشرف على صحن المدرسة وعلى الواجهات .

وقد قرر السلطان حسن لهذه المدارس مدرسين ومراقبين ، وعين لهم مرتبات نثبتها فيما يلى :

قرر لكل مذهب من المذاهب الأربعة شيخا ومائة طالب : من كل فرقة خمسة وعشرون متقدمون ، وثلاثة معيدون . وعين مدرسا لتفسير القرآن ، وعين معه ثلاثين طالبا عهد الى بعضهم عمل الملاحظة . وعين مدرسا للحديث النبوى ، ومقرئا لقراءة الحديث ، وثلاثين طالبا يحضرون يوميا ، عهد الى بعضهم وظيفة النقيب ، والى الآخر وظيفة داع للسلطان عقب الدروس .

ثم عين بالايوان القبلى بالجامع شيخا عالما مفتيا ، ورتب معه مقرئا مجيدا للقراءة على أن يحضر أربعة أيام من كل أسبوع — منها يوم الجمعة — فيقرأ ما تيسر من القرآن وما تيسر من الحديث الشريف . وعين مدرسا حافظا لكتاب الله ، عليما بالقراءات السبع ، يجلس كل يوم ما بين صلاة الصبح والزوال بالايوان القبلى ، وقارئا آخر يجلس معه ليلقن القرآن لمن يحضر عنده . ثم عين اثنين لمراقبة الحضور والغياب : أحدهما بالليل ، والآخر بالنهار . وأعد مكتبة عين لها أمينا ، وألحق بالمدرسة مكتبين بمدرسيهما لتعليم الأيتام القرآن والخط ، وقرر لهم الكسوة والطعام ... فكان اذا أتم اليتيم القرآن حفظا يعطى له خمسون درهما ، ويمنح مؤدبه خمسين درهما مكافأة له .

وعين طبيبين مسنمين : أحدهما باطنى ، والآخر للعيون ، يحضر كل منهما كل يوم بالمسجد ليداوى من يحتاج الى علاج من الموظفين والطلبة . ... طبيبا ثالثا جراحا . وقد أرصد فى وقفيته بيان مرتبات الأساتذة والطلبة والموظفين ، وقيمة ما يصرف لهم من المآكل كل ليلة جمعة ، وكذا فى سائر الأعياد .

المدرسة كقلعة

لوقوع هذه المدرسة أمام قلعة الجبل اتخذها المماليك حصنا لهم يدافعون منه عن أنفسهم أمام القلعة فحينما تقع فتنة بينهم يصعد الأمراء وغيرهم أعلى مدرسة السلطان حسن ويضربون القلعة ... ففى عام ٧٧١ هـ (١٢٦٩ م) نصبت مكحلة أعلى المدرسة ، رمى بها على باب السلسلة فهرب المماليك . ولذلك أمر السلطان الظاهر برقوق فى ٨ من صفر عام ٧٩٣ هـ (١٣٩١ م) بهدم السلم الموصل الى السطح ، وسد ما وراء الباب النحاسى الكبير ، ثم فتح شباك من شبابيك المدرسة ليتوصل منه الى داخلها .

وفى شهر رمضان عام ٨٣٥ هـ (١٤٢١ م) صرح بالأذان فى المنارتين ، وأعيد بناء المدرج والبسطة ، وركب باب جديد .

وفى ٢٩ من ذى الحجة سنة ٨٥٨ هـ عهد السلطان أبو النصر اينال الى المهندسين بفحص المنارة القبلية للمدرسة خوفا من حدوث خلل بها . وبفحصها تبين لهم أن رصاص القبة به ثغرات من كثرة الرمى عليها بالمكاحل فى أيام الحروب ، واعوج هلالها فرفع وبقيت القبة بدونه .

وقد قيض الله لهذه المدرسة لجنة حفظ الآثار العربية ، فبذلت فى اصلاحها مجهودا جبارا : فأكملت بناء منارتها ، وأصلحت جدرانها ورخامها ونجارتها وأرضيتها حتى أعادت اليها رونقها بعد أن صرفت عليها ٤٠ ألف جنيه .

وانتهت هذه الأعمال فى منتصف عام ١٩١٥ .

حسن عبد الوهاب

ار الكتب المصرية
قسم التزويد

كتاب الشعب

١ تفسير جزء عم
للأستاذ الامام محمد عبده
٢ قصة السموات والأرض
للدكتور محمد جمال الفندى
والدكتور محمد يوسف حسن
٣ قصة الجنس البشرى (١)
للدكتور هندريك فان لون
٤ قصة الجنس البشرى (٢)
٥ اعرف نفسك ليوستاس تشسر
٦ تفسير جزء تبارك
للأستاذ عبد القادر المغربى
٧ الطب للشعب
لفريق من الأخصائيين العالميين
٨ جان كريستوف (١)
رومان رولان
٩ اشغال الصوف (التريكو)
للأستاذة بثينة الكفراوى
١٠ جان كريستوف (٢)
١١ على هامش التاريخ المصرى القديم
للأستاذ عبد القادر حمزة
١٢ مائدة الشعب (١)
للأستاذة بسيمة زكى ابراهيم
١٣ مائدة الشعب (٢)
١٤ المصحف المفسر (١)
للأستاذ محمد فريد وجدى
١٥ نبى البر (المختار من سيرة ابن هشام)
للأستاذ ابراهيم الابيارى
١٦ المصحف المفسر (٢)
١٧ فن الحياة لاندريه موروا
١٨ المصحف المفسر (٣)
١٩ اساطير من الشرق
للأستاذ سليمان مظهر
٢٠ المصحف المفسر (٤)
٢١ عالمنا الذى نعيش فيه
للأستاذة فاطمة محجوب
٢٢ المصحف المفسر (٥)
٢٣ كيف نعيش اليوم
للأستاذة فاطمة محجوب
٢٤ المصحف المفسر (٦)
٢٥ صلاح الدين الايوبى
للدكتور جمال الدين الرمادى
٢٦ المصحف المفسر (٧)
٢٧ تاريخ الجبرتى (١)
٢٨ المعجم المفهرس (١)
للأستاذ محمد فؤاد عبد الباقى
٢٩ تاريخ الجبرتى (٢)
٣٠ المعجم المفهرس (٢)
٣١ تاريخ الجبرتى (٣)
٣٢ المعجم المفهرس (٣)
٣٣ تاريخ الجبرتى (٤)
٣٤ المعجم المفهرس (٤)
٣٥ تاريخ الجبرتى (٥)
٣٦ المعجم المفهرس (٥)
٣٧ تاريخ الجبرتى (٦)
٣٨ المعجم المفهرس (٦)
٣٩ صحيح البخارى (١)
٤٠ تاريخ الجبرتى (٧)
٤١ المعجم المفهرس (٧)
٤٢ صحيح البخارى (٢)
٤٣ دائرة معارف الشعب (١)
٤٤ تاريخ الجبرتى (٨)
٤٥ صحيح البخارى (٣)
٤٦ دائرة معارف الشعب (٢)
٤٧ تاريخ الجبرتى (٩)
٤٨ صحيح البخارى (٤)
٤٩ دائرة معارف الشعب (٣)
٥٠ اساطير من الغرب
للأستاذ سليمان مظهر
٥١ صحيح البخارى (٥)
٥٢ دائرة معارف الشعب (٤)
٥٣ خامس الراشدين (١)
للأستاذ احمد الشرباصى
٥٤ صحيح البخارى (٦)
٥٥ دائرة معارف الشعب (٥)
٥٦ خامس الراشدين (٢)
٥٧ صحيح البخارى (٧)
٥٨ دائرة معارف الشعب (٦)
٥٩ فن التفصيل والحياكة (١)
للأستاذة بثينة الكفراوى
٦٠ صحيح البخارى (٨)
٦١ دائرة معارف الشعب (٧)
٦٢ فن التفصيل والحياكة (٢)
٦٣ صحيح البخارى (٩)
٦٤ دائرة معارف الشعب (٨)
٦٥ هذا هو الاسلام
للدكتور محمد غلاب
٦٦ صحيح البخارى (١٠)
٦٧ دائرة معارف الشعب (٩)
٦٨ هوايات مربحة
للأستاذ محمد سيد احمد حسن
٦٩ صحيح البخارى (١١)
٧٠ دائرة معارف الشعب (١٠)
٧١ تقويم الشعب
للأستاذ احمد عطية الله
٧٢ صحيح البخارى (١٢)
٧٣ دائرة معارف الشعب (١١)
٧٤ صحيح البخارى (١٣)